

التصوف والعرفان

يُبين مراحل التصوف وأفكاره
التي انتشرت باسم العرفان

الشيخ

هشام الخفاجي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

أما بعد ..

إن مفردات الصوفية وأفكارهم توغلت وانتشرت في مسلك عرفاء الشيعة الذين تأثروا بالتصوف ، وفي أوساط من ينجذب إليهم ، ثم أخذت تتعاظم ويُنظر لها كأنها نصوص شرعية ملزمة العمل بها والسير وفقها ، مع أن تلك الأفكار والمتبنيات مخالفة للدين ، ولا تمت له بصلة وإن كانت مُعنونة باسم العرفان ، وذلك لأن أصل المحدث لم يكن بالعنوان والتسمية ، وإنما بما يتضمن من محتوى يمثل الفكر الصوفي ويجسد مضامينه.

وقد غرر عنوان العرفان بالكثيرين وجعلهم يتبنون ما كان للصوفية من رؤى ومعتقدات ، لأن الغالبية العظمى ممن يتقبل تلك الرؤى وينساق إليها هو لتوهم المغايرة بين التصوف والعرفان ، في حين أن تسمية العرفان زامنت التصوف وكانت تُطلق عليه منذ بدايات انتشاره في البلاد الإسلامية - هذا فيما إذا لم نقل إن العرفان كان يُطلق على التصوف قبل الإسلام - فلو كانت أفكار التصوف تُنشر باسم التصوف ، أو يُعلم أنها للتصوف لرفضتها الكثير من

الأوساط الشيعية التي أخذت تميل نحوها بدون أدنى تردد وتأمل ، ولكن تحت طائلة العرفان وعدم المعرفة بنشأتها وجذورها الصوفية تُتقبل وتنمو حواضرها.

ومن هنا علينا أن نسير وفق رؤية عامة تفرق بين خطين أو مسلكين في حيز دائرة أتباع أهل البيت عليه السلام ، مسلك يمثل التقرب إلى الله تبارك وتعالى ومعرفته في حدود معارف القرآن الكريم والعرة الطاهرة (صلوات الله وسلامه عليهم) ولنا أن نسلمهم بعرفاء الثقلين ، ومسلك يقتبس من الصوفية ويتبنى أفكارهم ، وعلى أقل تقدير هو متأثر بجملة منها ورؤيته مدار أفقها وعلى قطب رحاها ، ولنا أن نصفهم بعرفاء الصوفية أو المتأثرين بهم .

ولذا كان من الضروري جدا التمييز ومعرفة أن علماء الشيعة أو عرفاءها ينقسمون إلى قسمين : قسم منهم ينهل معارفه وفكره من أهل البيت عليه السلام ولهم حالات روحانية وصفاء باطني وهذا مما لا شك فيه.

والقسم الآخر منهم وإن كان أيضا ينهل من فكر أهل البيت عليه السلام إلا أنه متأثر بالفكر الصوفي ، ولا يخفى أن هذا القسم يمثل النزر اليسير جدا من ذوي التوجه نحو التصوف وما يحمل من نزعات ، كما يوجد في علماء العامة فئة تميل للتصوف وتدافع عن مضامينه ومعتقداته وتراه يمثل روح الإسلام الأصيل!

ويمكن معرفة العلماء المتأثرين بالتصوف أو لنقل بالعرفان الصوفي فلا فرق - سواء كانوا من الخاصة أو العامة - من خلال عدة أمور أهمها هو كتبهم التي تسفر عن مضامين الصوفية وتشيد بها ، ونحو ذلك من قبيل استعمال مصطلحاتهم ومفرداتهم ، مثل مصطلح : الطريقة ، والحقيقة ، أو مثل مصطلح الفيض ، والإنسان الكامل وغير ذلك ، حتى أن بعض المتأخرين منهم لشدة تأثرهم بالتصوف لديهم كتب باسم الإنسان الكامل !

أو من خلال تعليقاتهم وشروحاتهم على مؤلفات ابن عربي ، سواء كانت تلك الشروح مطبوعة في كتب وبحوث أو مسموعة في دروسهم ومحاضراتهم . ومما سبق يتضح أن الحوزات الشيعية وعلماءها على وجه الخصوص عندما يقفون على الضد من العرفان فالمراد منه هو العرفان الصوفي ، وليس عرفان الثقلين ، الذي تلخص لبه في القرون الأخيرة في مصنفات ابن عربي لا سيما (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) .

وقد حاولت تسليط الضوء في هذا المختصر على حيثيتين رئيسيتين ، الأولى : وهي مراحل دخول التصوف إلى بعض الأوساط الشيعية تحت مسمى العرفان، والأخرى : تتضمن انتشار سلوكيات التصوف وأفكاره تحت جناح العرفان والسير والسلوك . ولعل الله تبارك وتعالى يوفقني في مستقبل الأيام للوقوف على حيثيات أخرى بلطفه وكرمه ، لكي نحد من بقعة التصوف التي أخذت تتسع في الوسط الشيعي تحت مسميات مختلفة ، لأن عامة المؤمنين فيما

لو عرفوا حقيقة التصوف وما طاله من تعتيم بسبب إضفاء العناوين والمسميات عليه لرفضوه وتخلوا عن الأوساط والشخصيات التي تميل له وتسعى لنشره.

وقد كان دأبي في هذه السطور أن أدلل على ما أقوله وأميل إليه ، وكل فكرة أتيناها أقيم عليها عدة شواهد ، مع إرجاع كل ما أذكره من الأقوال والآراء إلى مصادرها الأساسية إتماماً للحجة وإبلاغاً للمقصود.

أرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله محل نظره ورضاه ، وتبصرةً لأتباع أهل البيت عليهم السلام ممن التبست عليهم سبل الهداية بالغواية ، والحق المبين بجائل إبليس وتسويلات الأنفس والأهواء .

هشام كاظم

النجف الأشرف ١٤٤٢ هـ

معنى العرفان والتصوف

إن العرفاء قسموا العرفان في القرون اللاحقة لظهوره وبداياته إلى قسمين :
العرفان العملي : وهو أعمال الإنسان المؤدية إلى التوحيد ومشاهدة الحق ، أو
هو العلم بالله سبحانه من حيث أسمائه وصفاته كما عرفه بعضهم .

العرفان النظري : وهو التعبير عن الحقائق والمعارف التوحيدية أي الوحدة
الشخصية للوجود ولوازمها التي يصل إليها العارف عن طريق الشهود في آخر
مراحله والتي تحصل بسبب الرياضة والعشق ؛ فالعرفان النظري لم يكن سوى
تعبير عن تلك الحقائق لا أنه تلك الحقائق نفسها.

وعلى هذا يكون العرفان النظري عبارة عن آثار ونتائج للعرفان العملي ، إذ
بسبب الكشف والشهود الذي كان من ثمار العرفان العملي تحصلت جملة
حقائق دونت باسم العرفان النظري ، وهذا مما يبين العلاقة والصلة بينهما.

وعرف بعضهم العرفان بأنه الإدراك الشهودي لذات الحق المقدسة ، وكشف
خفيات عالم الوجود ببصيرة القلب والعلم الحضورى.

ولكن هذا عبارة عن تعريف للعرفان العملي ولا يشمل قسمه الآخر . ويمكن
أن يُجاب أن أصل التصوف والعرفان بحقيقته الشهودية غير ملحوظ فيه ما
دُون من تلك الحقائق التي قُيدت بعد عصور من ظهور العرفان والتصوف.

ومما يرد على العرفان النظري أنه غير تام ولا يمكن من خلاله بيان الحقائق ؛ وذلك لأن كشف العارف لا يمكن بيانه ووصفه من قبل العارف نفسه ، ولا يمكن لغيره فهمه وإدراكه من خلال الوصف والبيان ، ومن ثم يُصرف الكلام إلى غير معناه وتحميله من المعاني والوجود ما لا يحتمل ، فيحدث حينها من الزلل الجسيم ما يحدث !

يقول السيد الطباطبائي رحمته الله في هذا المجال : الذين يحاولون بيان المعاني الشهودية من خلال القوالب اللفظية والعبارات اللغوية فهم كالذين يريدون بيان الألوان المختلفة للذي ولد من بطن أمه أعمى ، فيحاول أن يدرك المعاني المرتبطة بالباصرة من خلال القوة السامعة^(١).

ويقول أيضا : الذي يريد أن يضع المعاني الشهودية في قالب الألفاظ يكون مثله تماما كمثل الذي ينقل الماء بالغربال من مكان لآخر^(٢).

ويقول السيد حيدر الآملي : الكشفيات والذوقيات غير قابلة للعبارة والإشارة والسؤال والجواب^(٣).

بل قد يكون المكاشف نفسه لا يعرف المراد ، فما بالك في بيانها وفهمها من قبل غيره ولذا يقول ملا هادي السبزواري رحمته الله : أنواع الكشف الصوري قد تتعلق

(١) مجموعة مقالات الطباطبائي، ج١، ص٣٩.

(٢) مقالات تأسيسية، ص٦٩.

(٣) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص١٦٧.

بالأمور الدنيوية ولا مبالاة لأهل السلوك بها وقد يتعلق بالأمور الأخروية وهي المعبرة عندهم وكما أن الرؤيا يحتاج إلى التعبير كثيرا ما ، كذلك الصور المشهودة الكشفية في اليقظة يحتاج إلى التأويل فليعرض على الكامل المكمل إن لم يفهم نفسه المراد سيما ما يتعلق بآفات النفس وعاهاتها^(١).

والأدهى من ذلك أن مكاشفات العرفاء قد تتناقض فيما بينها ، يقول ابن تركه: فإن ما يجده بعض السالكين قد يكون مناقضا لما يجده البعض الآخر منهم ولهذا قد ينكر البعض منهم البعض الآخر في إدراكاتهم الذوقية ومعارفهم الوجدانية الكشفية^(٢).

ولكن ملا صدرا يرى أنه يمكن بيانها وإقامة الدليل عليها فيقول : إياك وأن تظن بفطانتك البتراء أن مقاصد هؤلاء القوم من أكابر العرفاء واصطلاحاتهم وكلماتهم الرموزة خالية عن البرهان من قبيل المجازفات التخمينية أو التخيلات الشعرية حاشاهم عن ذلك وعدم تطبيق كلامهم على القوانين الصحيحة البرهانية والمقدمات الحقّة الحكمية ناشئ عن قصور الناظرين وقلة شعورهم بها وضعف إحاطتهم بتلك القوانين^(٣).

(١) شرح دعاء الصباح، ص ١٢٦.

(٢) تمهيد القواعد، ص ١٦٩.

(٣) الحكمة المتعالية، ج ٢، ص ٣١٥.

تحقق المكاشفات في نظر العرفاء أو الصوفية

إذا ما سألنا أكابر العرفاء والصوفية سواء ممن ينتمون للعامة أو التشيع هل مدار تحقق المكاشفات على العرفان العملي - الذي يتمثل بالزهد والذكر وغيرها من المفاهيم ذات البعد العملي في جوانح الإنسان وجوارحه - أم أن المدار فيها والتحقق على العرفان النظري ؟ سنجدهم يجمعون على أن المدار في وجودها هو العرفان العملي ، ومن غيره لا وجود للمكاشفات حتى لو درس الإنسان العرفان النظري ألف عام ، بل إن التصوف والعرفان في بداياته لم يكن معروفا وملحوظا فيه العرفان النظري أصلا ولم يكن فيه شيء مدون، وفي القرون الأولى للعرفان والتصوف لم يكن للعرفان النظري أي وجود .

وهذه كلمات أكابرهم التي تدلل على أن المدار في تحقق المكاشفات هو العرفان العملي وليس النظري - مع غض النظر عما جاء فيها من الصحة وعدمها - :

يقول ابن عربي : ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح ولا سيما في معرفة الله تعالى ومن المحال أن يعرف ماهيته بطريق النظر فما لك يا أخي تبقى في هذه الورطة ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله ﷺ فتنال ما نال من قال فيه سبحانه وتعالى :

﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^{(١)(٢)}

ويقول القيصري : إن أهل الله إنما وجدوا هذه المعاني بالكشف واليقين لا بالظن والتخمين وما ذكر فيه مما يشبه الدليل والبرهان إنما جيء به تنبيها للمستعدين من الإخوان^(٣).

ويقول أبو الفتح السهروردي : وأما أنت إن أردت أن تكون عالما إلهيا من دون أن تتعب وتداوم على الأمور المقربة إلى القدس فقد حدثت نفسك بالممتنع أو شبيه الممتنع فإن طلبت واجتهدت لا تلبث زمانا طويلا إلا ويأتيك البارقة النورانية وسترتقي إلى السكينة الإلهية الثابتة^(٤).

ويقول حيدر الأملي : ينبغي للعاقل أن يخلي قلبه من الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن ويستريح ولا سيما في معرفة الله تعالى ومن المحال أن يعرف ماهيته بطريق النظر ، فما لك يا أخي ! تبقى في هذه الورطة ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله ﷺ فتنال ما نال من

(١) سورة الكهف : ٦٥ .

(٢) رسائل ابن العربي، ص ٣١٤ .

(٣) شرح القيصري على فصوص الحكم، ص ٧ .

(٤) فلسفة السهروردي، ص ٤٧ .

قال فيه سبحانه وتعالى : ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^{(١)(٢)}

ويقول ملا صدرا : اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالا نوريا والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهابا قويا ففاضت عليها أنوار الملكوت و حلت بها خبايا الجبروت ولحققتها الأضواء الأحدية وتداركتها الألفاظ الإلهية فاطلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان من الأسرار الإلهية والحقائق الربانية والودائع اللاهوتية والخبيايا الصمدانية فاستروح العقل من أنوار الحق بكرة وعشيا وقرب بها منه وخلص إليه نجيا^(٣).

والسيد الطباطبائي رحمته الله يقول في هذا المجال : إن العارف هو الذي يمكنه الانقطاع قلبا عن هذه النشأة مع تمام الإيقان باللازم من المعارف الإلهية والتخلص إلى الحق سبحانه وهذا هو الذي يمكنه شهود ما وراء هذه النشأة المادية والإشراف على الأنوار الإلهية كالأنبياء عليهم السلام^(٤).

(١) سورة الكهف : ٦٥ .

(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٦٢٨.

(٣) الحكمة المتعالية، ج ١، ص ٨.

(٤) رسائل سبعة ص ١٧.

إن ملخص ما أصبو إليه من الاستشهاد بسرد هذا الكلام أنه إذا كان الطريق في نظرهم للكشف والشهود ينحصر في الرياضة والآداب المعنوية ، مثل قلة الكلام والنام والطعام وكثرة الذكر وغيرها من الأمور التي نجد الشرع حث عليها ، فلا موجب لشغل المسلمين بسفاسف لا طائل من ورائها بل توقعهم في المتاهات والمحدورات ، كما أن أتباع أهل البيت عليهم السلام على وجه الخصوص في غنى وكفاية ، إذ فيما ورد في معارفهم عليهم السلام يروي الغليل ويشفي العليل .

ولكن لا بد أن يكون كل عمل لله تبارك وتعالى وابتغاء قربه والزلفى لديه ، وإلا إذا كانت من أجل المكاشفات تكون من الشرك في العبادة ولا قيمة لها .
وينبغي أن يغلب عليه جانب التعقل والهدوء مع لحظ مداراة الناس أيضا ، فليس من الصحيح أن يكلمه جليسه وهو صامت لا يتكلم وإنما عليه مداراته بالشكل المعقول ونحو ذلك .

وليخف رياضاته وحالاته بصورة عامة لأن إظهارها يثقل النفس ، مما يصعب عليه تأدية الرياضات بالشكل الدائم والمطلوب ، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : (أفضل الزهد إخفاء الزهد)^(١) ثم لا موجب أن تجعل علاقتك مع الله تعالى في معرض حديثك للخاصة والعامة .

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٧ .

ولكن لو سألنا أصحاب العرفان النظري وقلنا لهم ما الغرض من دراسة العرفان النظري والحال أن الكشف والشهود متوقف على العرفان العملي ولا يترتب على العرفان النظري ؟

سيقولون الغرض من دراسة العرفان النظري هو من أجل معرفة صحة المكاشفات من عدمها.

ولا يصح هذا كغرض موجب لدراسته ، لأنهم ذكروا عدم إمكان بيان المكاشفات^(١) ، مع وقوع الخطأ والاشتباه في كثير من الأحيان عند تفسيرها ، بل قد تتناقض فيما بينها ، مضافا إلى ذلك إن صحة المكاشفات يكمن في عدم تعارضها وموافقتها للشرع ، وهذا (عدم التعارض والموافقة للشرع) كاف في الصحة بالتمييز.

ويقولون أيضا إن دراسة العرفان النظري من أجل تفسير وبيان معنى المكاشفات ، وفي الحقيقة هذه دعوى لم يثبت موضوعها ، أي لم يثبت أن العرفان النظري له القابلية على تفسير المكاشفات وشرحها ، وعلى فرض ثبوت الموضوع وأن له القابلية على شرح المكاشفات لا يكون إلا على النحو الشاذ النادر الذي يكون بمصاف العدم ، فأبي فائدة ترجى منه حينها ، ناهيك فيما إذا كان العرفان النظري وفق الرؤى والمعتقدات الصوفية .

(١) انظر العنوان المتقدم : (معنى التصوف والعرفان) .

معنى المكاشفات

إذا أردتُ تعريف المكاشفات بصورة إجمالية جامعة يمكنني القول إنها تكشف عن حقائق الوجود سواء كانت تلك الحقائق في عالم الدنيا أو غيرها من العوالم ، ولكن في مقام الإجابة على هذا التساؤل أكتفي بتقسيم وتعريف ملا هادي السبزواري رحمته الله حيث يقول : الكشف بالقسمة الأولية قسمان : صوري ومعنوي . والصوري ما يحصل بطريق الحواس الخمس وينقسم الصوري قسمة ثانية بحسب المحسوسات الخمسة فما يكون بطريق الإبصار كرؤية المكاشف صور الأرواح عند تمثلها وما يكون بطريق السماع كسماع النبي صلى الله عليه وآله كلمات فصيحة بليغة ومنه ما يسمى (نقرا في الأسماع)^(١) الحاصل للمكاشفين وما يكون بطريق الشم كالتنشق بالنفحات الإلهية كما قال النبي صلى الله عليه وآله : (إن لله في أيام دهركم نفحات إلا فتعرضوا لها)^(٢) وقال صلى الله عليه وآله : (إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن)^(٣) وما يكون بطريق الذوق كقوله صلى الله عليه وآله : (أبيت عند ربي يطعمني

(١) ورد عن الإمام الصادق عليه السلام : إن علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع ، أما الغابر فما تقدم من علمنا ، وأما المزبور فما يأتينا ، وأما النكت في القلوب فالهام وأما النقر في الأسماع فأمر الملك . أصول الكافي ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

(٢) ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله : (إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها بكثرة الاستعداد) عوالي اللئالي ، ج ٤ ، ص ١١٨ .

(٣) من مرويات العامة ، روى المتقي الهندي عن رسول الله صلى الله عليه وآله : إني أجد نفس الرحمن من ههنا وأشار إلى اليمن . كنز العمال ، ج ١٢ ، ص ٥٠ .

ويسقيني^(١) وما يكون بطريق اللمس كقوله ﷺ (وضع الله تعالى كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي)^(٢) وهذه المكاشفات قد تنفرد وقد تجتمع وكلها تجليات أسمائية فإذا تجلى الله تعالى على السالك المرتاض باسمه (البصير) يرى ما لا يرى غيره وإذا تجلى عليه باسمه (السميع) يسمع ما لا يسمعون وهذه المسموعات وهذه المبصرات كلها هورقليائية حقة عيانية ويصير المشاعر الظاهرة تابعة منطقية تحت تلك المشاعر النورية المذكورة في الأصل الثاني فإنها صارت بالفعل وبارزة بعد ما كانت بالقوة وكامنة وكذا الشهودات الثلاثة الباقية عن تجليات اسمه تعالى (المدرک) إذ بمقتضى التوقيف الشرعي لم يطلق عليه تعالى (الشام) و (الذائق) و (اللامس) لئلا يوهم التجسم . وأنواع الكشف الصوري قد تتعلق بالأمور الدنيوية ولا مبالاة لأهل السلوك بها وقد يتعلق بالأمور الأخروية وهي المعبرة عندهم وكما أن الرؤيا يحتاج إلى التعبير كثيرا ما كذلك الصور المشهودة الكشفية في اليقظة يحتاج إلى التأويل فليعرض على الكامل المكمل إن لم يفهم نفسه المراد سيما ما يتعلق بأفات النفس وعاهاتها وليكن السالك يقظانا عالي الهمة لئلا يقف ولا يقع في شرك غنج الصور ودلالها فمن أولى الهمم العالية من لا يلتفت إلى الكونين الصوريين ويخلع النعلين للوفود على فناء باب الله وقرّة عينهم الفناء في جنبه والمحو في

(١) عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٢) روى القمي في تفسيره عن رسول الله ﷺ : فوضع يده - أي يد القدرة - بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي. تفسير القمي، ص ٢٤٤.

مشاهدة جماله ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ﴾^(١) والمعنوي ظهور المعاني الغيبية والحقائق العينية ومعرفة الكليات الوجودية المجردة علما حضوريا وهو من تجليات اسم الله (العليم الحكيم) وهو أيضا ينقسم بحسب المراتب السنية للنفس الناطقة من القلب والروح والسر والخفي والأخفى والمكاشف في أي مقام يكون من هذه المقامات يكون كشفه بحسبه في النورية وشدة الظهور ويدعى كشفه بأسامي مختلفة : ففي مقام (بالحدس) وفي مقام (بالإلهام) وفي مقام (بالنور القدسي) وفي مقام (بالمشاهدة القلبية) وفي مقام (بالمشاهدة الروحية) وقس عليه الباقي^(٢).

ولا يخفى أن بعض الأحاديث التي استشهد بها الملا السبزواري رحمته الله عامة ورويت مرسلة في (عوالي اللئالي) .

ولكن هذا لا يعني أن المكاشفات كلها حق وصحيحة فمثلا إليك مكاشفة أبي حامد الغزالي كما ينقلها الحر العاملي رحمته الله : صاحب كل مذهب منهم يدعي حصول الكشف له ببطلان مذهب من خالفه كالغزالي فقد ذكر أنه لزم الرياضة والخلوة وترك الدرس عشر سنين فانكشف له بطلان مذهب الإمامية وأفضلية أبي بكر على علي عليه السلام بمراتب^(٣).

(١) سورة العنكبوت : ٥ .

(٢) شرح دعاء الصباح، ص ١٠٨.

(٣) الاثنا عشرية، ص ٩٤ .

ومكاشفات ابن عربي كيف أن زيغها واضح ، يقول ابن عربي : الذي شاهده
عند إنشائي هذه الخطبة في عالم حقائق المثال في حضرة الجلال مكاشفة قلبه في
حضرة غيبية ولما شهدته ﷺ في ذلك العالم سيدا معصوم المقاصد محفوظ
المشاهد منصورا مؤيدا وجميع الرسل بين يديه مصطفون وأمته التي هي خير
أمة عليه ملتفون وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافون والملائكة
المولدة من الأعمال بين يديه صافون والصدیق علی يمينه الأنفس والفاروق
على يساره الأقدس والختم بين يديه قد جثا يخبره بحديث الأنثى وعلي يترجم
عن الختم بلسانه وذو النورين مشتمل برداء حياته مقبل على شأنه فالتفت
السيد الأعلى والمورد العذب الأحلى النور الأکشف الأجلی فرآني وراء الختم
لاشتراك بيني وبينه في الحكم فقال له السيد هذا عديلك وابنك وخليك
أنصب له منبر الطرفاء بين يدي ثم أشار إليّ أن قم يا محمد عليه فأثن على من
أرسلني وعلي فإن فيك شعرة مني لا صبر لها عني هي السلطنة في ذاتيتك فلا
ترجع إلي إلا بكليتك ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء فإنها ليست من عالم
الشقاء فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعد وكان ممن شكر في الملاء
الأعلى وحمد فنصب الختم المنبر في ذلك المشهد الأخطر وعلى جبهة المنبر
مكتوب بالنور الأزهر هذا هو المقام المحمدي الأطهر^(١).

وينقل ابن عربي من مكاشفات الرجبين التي تكشف حقيقة الشيعة أنهم
خنازير !! فيقول : ومنهم رضي الله عنهم الرجبون وهم أربعون نفسا في كل

(١) الفتوحات المكية، ج١، ص٢.

زمان لا يزدون ولا ينقصون وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله وهم من الأفراد وهم أرباب القول الثقيل من قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) وسموا رجبون لأن حال هذا المقام لا يكون لهم إلا في شهر رجب من أول استهلال هلاله إلى انفصاله ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة الآتية وقليل من يعرفهم من أهل هذا الطريق وهم متفرقون في البلاد ويعرف بعضهم بعضا منهم من يكون باليمن وبالشام وبديار بكر لقيت واحدا منهم بدنيسير من ديار بكر ما رأيت منهم غيره وكنت بالأشواق إلى رؤيتهم و منهم من يبقى عليه في سائر السنة أمر ما مما كان يكشف به في حاله في رجب ومنهم من لا يبقى عليه شيء من ذلك وكان هذا الذي رأيته قد أبقي عليه كشف الروافض من أهل الشيعة سائر السنة فكان يراهم خنازير فيأتي الرجل المستور الذي لا يعرف منه هذا المذهب قط وهو في نفسه مؤمن به يدين به ربه فإذا مر عليه يراه في صورة خنزير فيستدعيه ويقول له تب إلى الله فإنك شيعي رافضي فيبقى الآخر متعجبا من ذلك فإن تاب وصدق في توبته رآه إنسانا وإن قال له بلسانه تبت وهو يضم مذهب لا يزال يراه خنزيرا فيقول له كذبت في قولك تبت وإذا صدق يقول له صدقت فيعرف ذلك الرجل صدقه في كشفه فيرجع عن مذهبه ذلك الرافضي ولقد جرى لهذا مثل هذا مع رجلين عاقلين من أهل العدالة من الشافعية ما عرف منهما قط التشيع ولم يكونوا من بيت التشيع أداهما إليه نظرهما وكانا متمكنين من عقولهما فلم يظهرا ذلك وأصرا عليه بينهما وبين الله فكانا

(١) سورة المزمل : ٥ .

يعتقدان السوء في أبي بكر وعمر ويتغالون في علي فلما مرا به ودخلا عليه أمر بإخراجهما من عنده فإن الله كشف له عن بواطنهما في صورة خنازير وهي العلامة التي جعل الله له في أهل هذا المذهب وكانا قد علما من نفوسهما أن أحدا من أهل الأرض ما اطلع على حالهما وكانا شاهدين عدلين مشهورين بالسنة فقالا له في ذلك فقال أراكما خنزيرين وهي علامة بيني وبين الله فيمن كان مذهبه هذا فأضمر التوبة في نفوسهما فقال لهما إنكما الساعة قد رجعتما عن ذلك المذهب فإني أراكما إنسانين فتعجبا من ذلك وتابا إلى الله وهؤلاء الرجبيون أول يوم يكون في رجب يجدون كأنما أطبقت عليهم السماء فيجدون من الثقل بحيث لا يقدرّون على أن يطرفوا ولا يتحرك فيهم جراحة ويضطجعون فلا يقدرّون على حركة أصلا ولا قيام ولا قعود ولا حركة يد ولا رجل ولا جفن عين يبقى ذلك عليهم أول يوم ثم يخف في ثاني يوم قليلا وفي ثالث يوم أقل وتقع لهم الكشوفات والتجليات والاطلاع على المغيبات ولا يزال مضطجعا مسجى يتكلم بعد الثلاث أو اليومين ويتكلم معه ويقال له إلى أن يكمل الشهر فإذا فرغ الشهر ودخل شعبان قام كأنما نشط من عقال فإن كان صاحب صناعة أو تجارة اشتغل بشغله وسلب عنه جميع حاله كله إلا من شاء الله أن يبقى عليه من ذلك شيء أبقاه الله عليه هذا حالهم وهو حال غريب مجهول السبب والذي اجتمعت به منهم كان في شهر رجب وكان في هذه الحال^(١).

(١) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٨.

وقد دافع السيد الطهراني عن ابن عربي^(١) وأول كلامه تأويلا عجيبا حيث يقول : المراد بالروافض في هذه الحكاية هم الخوارج لا الشيعة الإمامية!!^(٢).

فليس كل المكاشفات صحيحة وإنما بعضها باطلة وسبب هذه المكاشفات الباطلة هو إيجاءات الشياطين : ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٣)

(١) نقل السيد محمد حسين الطهراني رحمه الله في كتابه (الروح المجرد) اعتراض السيد الطباطبائي رحمه الله على ابن عربي حيث يقول : كيف يمكن عدّ محيي الدين من أهل الطريقة مع أنه يعدّ المتوكل من أولياء الله ؟

وقد دافع السيد الطهراني رحمه الله عن ابن عربي وبرر له تبريرا مضحكا بقوله : إن ثبت هذا الكلام عنه دون تحريف في نقله - لأن الشعراني يدعي أن هناك تحريفات كثيرة حصلت في فتوحات ابن العربي - ومع افتراض علمنا بأنه كان شخصا منصفًا لا ينكر الحق إن ثبت لديه ، فإن علينا في أمثال هذا النمط من المطالب أن نعدّه في زمرة المستضعفين . فضحك العلامة مستنكرا وقال : أمحيي الدين من المستضعفين ؟! الروح المجرد، ص ٤٢٠ .

ولا تعجب من تبرير الطهراني رحمه الله وضحك السيد الطباطبائي رحمه الله فإن الذين تأثروا بتصوف ابن عربي اضطروا لتأويل كلامه وصرفه إلى وجوه مضحكة ، ولا أدري كم هو عدد التبريرات التي تضحك السيد الطباطبائي رحمه الله وتجعله مستنكرا؟!

(٢) الروح المجرد ص ٤٥٤ .

(٣) الروح المجرد ص ٤٥٤ .

المكاشفات الشيطانية

إن الأحاديث الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام تكشف عن حدوث المكاشفات الشيطانية فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا واتخذهم له أشراكا فباض وفرخ في صدورهم ودب ودرج في حجورهم فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل فعل من قد شرکه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه^(١).

وعنه عليه السلام : اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجندا بهم يصول على الناس وتراجمة ينطق على ألسنتهم إستراقا لعقولكم ودخولا في عيونكم ونفثا في أسماعكم فجعلكم مرمى نبلة وموطئ قدمه ومأخذ يده^(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام : إنه ليس من يوم ولا ليلة إلا وجميع الجن والشياطين تزور أئمة الضلالة ويزور إمام الهدى عددهم من الملائكة حتى إذا أتت ليلة القدر فيهبط فيها من الملائكة إلى ولي الأمر خلق الله - أو قال قيض الله - سبحانه من الشياطين بعددهم ثم زاروا ولي الضلالة فأتوه بالأفك والكذب حتى لعله يصبح فيقول : رأيت كذا وكذا فلو سألت ولي الأمر عن ذلك لقال رأيت

(١) نهج البلاغة، خطبة (٧).

(٢) نهج البلاغة، خطبة (١٩٢).

شيطانا أخبرك بكذا وكذا حتى يفسر له تفسيراً ويعلمه الضلالة التي هو عليها^(١).

وعن عبد الله بن علي عن الإمام الصادق عليه السلام قال : تراءى والله إبليس لأبي الخطاب على سور المدينة أو المسجد فكأنني أنظر إليه وهو يقول له أيها نظفر الآن أيها نظفر الآن^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام : إبليس سلط شيطانا يقال له المتكون يأتي الناس في أي صورة شاء، إن شاء في صورة صغيرة وإن شاء في صورة كبيرة ولا والله ما يستطيع أن يجيء في صورة أبي عليه السلام^(٣).

وعن حفص بن عمرو النخعي قال كنت جالسا عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له رجل : جعلت فداك أن أبا منصور حدثني أنه رفع إلى ربه وتمسح على رأسه وقال له بالفارسية (يا پسر)^(٤) . فقال له أبو عبد الله عليه السلام : حدثني : أبي عن جدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن إبليس اتخذ عرشا فيما بين السماء والأرض، واتخذ زبانية كعدد الملائكة فإذا دعا رجلا فأجابه ووطئ عقبه وتخطت إليه

(١) أصول الكافي، ج١، ص٢٥٣.

(٢) اختيار معرفة الرجال، ص١٧٥.

(٣) اختيار معرفة الرجال، ص٥٨٩.

(٤) (يا پسر) : (يا بني) أو (يا صغيري) .

الأقدام ، تراءى له إبليس ورفع إليه ، وان أبا منصور كان رسول إبليس ، لعن الله أبا منصور ، لعن الله أبا منصور ثلاثاً^(١).

وقد علق عليه السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله قائلاً : هذه الرواية تبطل جملة مما يدعونه أهل الكشف والشهود خصوصاً مثل مكاشفات محيي الدين كما في جملة من كتبه سيما ما سماه بالفتوحات المكية^(٢).

وقد يكون سبب المكاشفات الباطلة هو الوهم والخيال أو بسبب ما يشهده النائم في النوم الخفيف الذي يكون في بداية النوم فيتوهم أنه من الكشف وما هو من الكشف لا الرحماني ولا الشيطاني.

المكاشفات الرحمانية في النصوص الدينية

إن الأحاديث تدل على حدوث المكاشفات حين الرياضة والالتزام بالآداب المعنوية ؛ فعند الرجوع للنصوص الدينية نجد ثلة من الأخبار تدل على أن تقوى الله وملازمة تعاليم الشرع توجب صفاءً وحالات نورانية للإنسان ، فلا غرو في أن تكون حالات الصفاء والذكر توجب شهوداً نورياً يتجلى في أسماء

(١) اختيار معرفة الرجال، ص ١٧٦.

(٢) التعليق على بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١٠.

وصفات الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾^(١) أو الاطلاع على العوالم والكشف عن بعض الحقائق.

ومكاشفات الأئمة عليهم السلام التي تتحدث عن كشف حقائق الوجود كثيرة وبينه للعيان فلا موجب لسرد الأخبار والإطالة فيها ، بل حتى أصحاب الأئمة حدثت لهم مكاشفات ، حيث روي ابن قولويه رحمه الله عن إسحاق بن عمار قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك يا بن رسول الله كنت في الحيرة ليلة عرفة فرأيت نحو من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل جميلة وجوههم ، طيبة ريحهم ، شديد بياض ثيابهم يصلون الليل أجمع ، فلقد كنت أريد أن آتي قبر الحسين عليه السلام واقبله وأدعو بدعواتي فما كنت أصل إليه من كثرة الخلق ، فلما طلع الفجر سجدت سجدة ، فرفعت رأسي فلم أر منهم أحدا . فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : أتدري من هؤلاء ، قلت : لا جعلت فداك ، فقال : أخبرني أبي ، عن أبيه ، قال : مر بالحسين عليه السلام أربعة آلاف ملك وهو يقتل فخرجوا إلى السماء فأوحى الله إليهم : يا معشر الملائكة مررتم بآبن حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وآله وهو يقتل ويضطهد مظلوما فلم تنصروه ، فأنزلوا إلى الأرض إلى قبره فأبكوه شعثا غربا إلى يوم القيامة ، فهم عنده إلى أن تقوم الساعة^(٢).

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٢) كامل الزيارات ، ص ٢٢٦ .

وعن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال حججت مع أبي عبد الله عليه السلام فلما كنا في الطواف قلت له جعلت فداك يا بن رسول الله يغفر الله لهذا الخلق فقال يا أبا بصير إن أكثر من ترى قردة وخنازير ، قال : قلت له أرنيهم قال : فتكلم بكلمات ثم أمر يده على بصري فرأيتهم قردة وخنازير فهالني ذلك ثم أمر يده على بصري فرأيتهم كما كانوا في المرة الأولى^(١).

وعن أبي بصير قال لي أبو عبد الله عليه السلام تريد أن تنظر بعينك إلى السماء ؟ قلت نعم ، فمسح يده على عيني فنظرت إلى السماء^(٢).

وعن يونس بن ظبيان قال : استأذنت على أبي عبد الله عليه السلام فخرج إلي معتب فأذن لي ، فدخلت ولم يدخل معي كما كان يدخل فلما أن صرت في الدار نظرت إلى رجل على صورة أبي عبد الله عليه السلام فسلمت عليه كما كنت أفعل ، قال : من أنت يا هذا ؟ لقد وردت على كفر أو إيمان. وكان بين يديه رجلان كأن على رؤوسهما الطير، فقال لي : ادخل. فدخلت الدار الثانية، فإذا رجل على صورته صلى الله عليه وإذا بين يديه جمع كثير كلهم صورهم واحدة ، فقال : من تريد ؟ قلت : أريد أبا عبد الله . فقال : قد وردت على أمر عظيم ، إما كفر أو إيمان . ثم خرج من البيت رجل قد بدا به الشيب ، فأخذ بيدي، وأوقفني على الباب وغشي بصري من النور ، فقلت : السلام عليك يا بيت

(١) بصائر الدرجات، ص ٢٩٠.

(٢) بصائر الدرجات، ص ٢٩٠.

الله ونوره وحجابه . فقال : وعليك السلام يا يونس . فدخلت البيت فإذا بين يديه طائران يحكيان ، فكنت أفهم كلام أبي عبد الله عليه السلام ولا أفهم كلامهما . فلما خرجا قال : يا يونس ، سل نحن نجلي النور في الظلمات ، ونحن البيت المعمور الذي من دخله كان آمناً ، نحن عزة الله وكبرياؤه . قال : قلت : جعلت فداك ، رأيت شيئاً عجيباً ، رأيت رجلاً على صورتك ! قال : يا يونس ، إنا لا نوصف ، ذلك صاحب السماء الثالثة يسأل أن أستأذن الله له أن يصيره مع أخ له في السماء الرابعة . قال : قلت : فهؤلاء الذين في الدار ؟ قال : هؤلاء أصحاب القائم من الملائكة . قال : قلت : فهذان ؟ قال : جبرئيل وميكائيل نزلا إلى الأرض ، فلن يصعدا حتى يكون هذا الأمر إن شاء الله تعالى وهم خمسة آلاف . يا يونس ، بنا أضاءت الأبصار وسمعت الأذان ووعت القلوب الإيمان^(١).

وعن إسحاق بن عمار قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح ، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه ، مصفراً لونه ، قد نحف جسمه و غارت عيناه في رأسه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : كيف أصبحت يا فلان ؟ قال : أصبحت يا رسول الله موقناً ، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال : إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك ؟ فقال : إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب

(١) دلائل الإمامة، ص ٢٧٠.

وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأني أنظر إلى أهل الجنة ، يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلى الأرائك متكئون وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرحون وكأني الآن أسمع زفير النار ، يدور في مسامعي ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : هذا عبد نور الله قلبه بالإيمان ، ثم قال له : ألزم ما أنت عليه ، فقال الشاب : ادع الله لي يا رسول الله أن ارزق الشهادة معك ، فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر^(١).

ويمكن المناقشة فيها أنها لا تدل على المكاشفات وإنما على الإيمان واليقين.

وعن الإمام الصادق عليه السلام : استقبل رسول الله ﷺ حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك ؟ فقال : يا رسول الله مؤمن حقا ، فقال له رسول الله ﷺ : لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك ؟ فقال : يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأني أنظر إلى عرش ربي قد وضع للحساب وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني أسمع عواء أهل النار في النار ، فقال له رسول الله ﷺ : عبد نور الله قلبه ، أبصرت فاثبت ، فقال : يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني الشهادة معك ، فقال : اللهم ارزق حارثة الشهادة ، فلم يلبث إلا أياما حتى بعث رسول الله ﷺ سرية فبعثه فيها ، فقاتل فقتل تسعة أو ثمانية ثم قتل . وفي رواية

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٣.

القاسم بن بريد ، عن أبي بصير قال : استشهد مع جعفر بن أبي طالب بعد تسعة نفر وكان هو العاشر^(١).

وهذه أيضا يمكن المناقشة فيها كالمناقشة المتقدمة.

وذكر الكشي رحمته الله في أحوال جابر بن يزيد الجعفي ما له صلة بهذا الموضوع حيث ذكر له جملة من الخوارق والكرامات ، بل إن الخوارق تحدث لعموم المرتاضين حتى لو كانوا غير مسلمين لأنها ضمن قوانين الطبيعة ؛ روي أن هارون اللا رشيد استدعى رجلا يطل به أمر أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ويقطعه ويخجله في المجلس ، فانتدب له رجل معزم^(٢) ، فلما أحضرت المائدة عمل ناموسا^(٣) على الخبز ، فكان كلما رام خادم أبي الحسن عليه السلام تناول رغيف من الخبز طار من بين يديه ، واستفز هارون الفرح والضحك لذلك ، فلم يلبث أبو الحسن عليه السلام أن رفع رأسه إلى أسد مصور على بعض الستور ، فقال له : يا أسد الله ، خذ عدو الله . قال : فوثبت تلك الصورة كأعظم ما يكون من السباع ، فافتربت ذلك المعزم ، فخر هارون وندماؤه على وجوههم مغشيا عليهم ، وطارت عقولهم خوفا من هول ما رأوه ، فلما أفاقوا من ذلك بعد حين ، قال هارون لأبي الحسن عليه السلام : أسألك بحقي عليك ، لما سألت الصورة

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٤.

(٢) المعزم : الذي يعمل العزيمة والرقى للنفع والضرر. وقيل معناه المجد لما يريد فعله .

(٣) الناموس : ما ينمّس الرجل به من الاحتيال. الصحاح، ج ٣، ص ١٢٧.

أن ترد الرجل. فقال : إن كانت عصى موسى ﷺ ردت ما ابتلعتة من حبال القوم وعصيتهم ، فإن هذه الصورة ترد ما ابتلعتة من هذا الرجل^(١).

وحدوث الخوارق والتصرف في الطبيعة من قبل الكفار مثل مرتاضي الهند وغيرهم أمر واضح للعيان.

ويمكن أن يدل على حدوث المكاشفات من خلال جملة من الأحاديث من ضمنها :

ورد عن أمير المؤمنين ﷺ : إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد العشوة وتنقاد به بعد المعاندة وما برح الله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم ، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة^(٢).

وورد عنه ﷺ : قد أحيا عقله وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعت الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه^(٣).

(١) أمالي الصدوق، ص ٢١٢.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٤٢.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة (٢٢٠).

وعن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ : ما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وإنه ليقرب إلي بالنافلة حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ، إن دعاني أجبتة وإن سألتني أعطيتة^(١).

ولكن لا يعني هذا أن ترتب المكاشفات على الرياضات والآداب المعنوية أمر لازم لا ينفك ، ولذا قد لا تتحقق المكاشفات لأعظم المقربين لمصلحة يراها الرب في عبده ، لأن الكشف عن العوالم وحقائق الوجود توجب اضطراب السر وباطن الإنسان في ثلة من المؤمنين ، بل إن اضطراب السر أمر حاصل لا محالة ولكن يتفاوت من مؤمن لآخر بحسب قربه ومنزلته ويقدر الله ما يختاره في مصلحة عبده ، نعم حالات الصفاء وما ينجم عنها من القرب والشهود ليس فيها اضطراب كالذي ينجم عن كشف حقائق الوجود ولذا لا يترتب عليها أي محذور بل تحدث بانسراح الصدر ومعالم الأنس فلا تكون ملحوظة أصلا كالمرآة تنظر فيها من غير لحظها.

وقد تصور بعضهم أن المكاشفات تتعلق بذات الحق تعالى ولذا نفى كل المكاشفات حتى الصادقة ، مع أنها لا شأن لها بذات الحق وكنهه ، وإنما تتعلق بالأسماء والصفات ، حيث معرفة الله بالأسماء والصفات لم تكن مقتصرة على جانب العقل والبرهان وإنما يلوح في أفق القلب وسماء معرفته.

(١) الكافي، ج ٤، ص ٧٢.

ومنهم من نفى المكاشفات لكونها من مفردات الصوفية وفي الحقيقة ليست المشكلة بالتسمية والعنوان ، وإنما بمضمونها ومصدرها هل هو رحماني أم شيطاني ؛ فمن كان لا يرتضي هذه التسمية له أن يسميها بأي تسمية أخرى.

العرفان والتصوف والعرفاء والصوفية حقيقة واحدة

إن تسمية العرفاء كانت تُطلق على الصوفية الذين وصلوا إلى مرتبة عالية - في نظر الصوفية - فلم تكن تسمية العرفاء تُطلق على جماعة مغايرة للصوفية ، وإنما على ثلة خاصة منهم امتازت بمزايا بحسب فهمهم وذوقهم.

يقول عبد الرحمن بدوي عن الصوفية : كذلك الحال في تسميتهم بالعارفين فالعرفان مرتبة من مراتب الطريق فحسب ولا يصل إليها من الصوفية إلا من بلغ درجة عالية في سلم الطريق^(١).

وقد يكون في بداية ظهور التصوف في قرونه الأولى كانت تسمى به ثلة خاصة منهم - بمعنى كل عارف هو متصوف وليس كل متصوف هو عارف - وبعد ذلك أُطلقت على عموم الصوفية وأصبح كل الصوفية تُسمى وتعرف بالعرفاء والصوفية على حد سواء كما يقول ابن سينا : المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما

(١) تاريخ التصوف الإسلامي، ص ١٤.

يخص باسم العابد والمتصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف وقد يتركب بعض هذه مع بعض^(١).

ولكن الشيخ مرتضى مطهري رحمته الله يرى أن لا فرق بين معنى التسميتين وكل منهما يُطلق على نفس الجماعة حيث يقول : أهل العرفان إذا ذكروا في معرض المعرفة دُعوا بالعرفاء ، وإذا ذكروا في معرض أمر اجتماعي دُعوا بالمتصوفة^(٢). وعلى هذا لم يكن التميز والتفرقة إلا في اللفظ دون حقيقة الجماعة وتوجههم.

وقد يكون الصوفية بلحاظ الظاهر ، والعرفاء بلحاظ الباطن كما يقول الشيخ محمد هادي معرفة رحمته الله : من هو العارف ومن هو الصوفي ؟ كلاهما تعبيران عن شخصية واحدة تجمع بين صفاء الباطن وزهد في ظاهر الحال . وإنما يقال له (الصوفي) باعتبار تقشفه في الحياة والاقتصار على أقل المعيشة وفي جشوبة في المأكل والملبس ، وكان من مظاهرها ملابس الصوف الحشنة تجاه ملابس الحرير الناعمة . فكان هذا النعت كناية عن تنسكه وتزهده في مزاولة الحياة ...

أما الوصف بالعرفان فلعرفانه الباطني وخلوصه في السير والسلوك إلى الله ومثابرته في سبيل معرفة الذات المقدسة وقربه منه تعالى .. فذاك وصف لظاهر الحال ، وهذا نعت لصفاء الباطن وعرفانه لمقام الذات^(٣).

(١) الإشارات والتبہات، ج ٣، ص ٣٧٣.

(٢) الكلام والعرفان، ص ٦٥.

(٣) التمهيد في علوم القرآن، ج ١٠، ص ٤٢٣.

وعند الرجوع إلى كلمات الأوائل من أقطاب الصوفية نجدهم يطلقون لفظ العارف والعارفين على ثلة خاصة من الصوفية ، أو لنقل أنهم يطلقونها على حقيقة الصوفي في نظرهم ، وعلى كل حال هي مستعملة في الصوفية ، يقول سفيان الثوري (ت: ١٦١هـ) : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف بالله انقطاعه عن الذكر^(١).

ويقول الحلاج : مسكين أبو يزيد ، أين كان أبو يزيد مع بدء النطق ، إنما الحق نطق على الجهة ، فالحجوب شهد (أبا يزيد) فيها ، والعارف انطوى عنده (أبو يزيد) عندها فلم يسمع ما سمعه ؛ لأنه من الحق سمع والحق ، ومن سمع الحق بالحق ما يظهر منه الإنكار ولا التعجب ولا الاستنكار^(٢).

وسئل ذو النون المصري (ت: ٢٤٥هـ) عن العارف فقال : كان هاهنا فذهب^(٣). فذهب^(٣).

وقال أيضا : أدب العارف فوق كل أدب ؛ لأن معروفة مؤدب قلبه^(٤).

وأيضا له : معاشر العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا بأخلاق الله^(٥).

^(١) الرسالة القشيرية، ص ٣٣٥.

^(٢) الطواسين، ص ٢٦٢.

^(٣) الرسالة القشيرية، ص ١٢٤.

^(٤) الرسالة القشيرية، ص ٤٠٨.

^(٥) الرسالة القشيرية، ص ٤٤٠.

وسئل أبو يزيد (ت: ٢٦١هـ) عن العارف فقال : لا يرى في نومه غير الله ، ولا في يقظته غير الله ، ولا يوافق غير الله ، ولا يطالع غير الله تعالى^(١).

ويقول الفراغانى : سمعت الجنيد (ت: ٢٩٧هـ) وقد سئل : من العارف ؟ قال : من نطق عن شرك وأنت ساكت^(٢).

وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب^(٣).

وأیضا يقول الجنيد يقول : سمعت السري يقول : الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق^(٤).

ويقول الشبلي (ت: ٣٣٤هـ) : العارف لا يكون لغيره لاحظ ولا بكلام غيره لافظا ، ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظا^(٥).

والسيد محمد محسن الطهراني - نجل السيد محمد حسين الطهراني رحمته الله صاحب الروح المجرد - الذي هو ضمن مسلك العرفاء المتأثرين بالتصوف يرى أن

^(١) الرسالة القشيرية، ص ٤٤٣.

^(٢) الرسالة القشيرية، ص ٧١.

^(٣) الرسالة القشيرية، ص ٤٤٢.

^(٤) الرسالة القشيرية، ص ٤٦١.

^(٥) الرسالة القشيرية، ص ٤٤٢.

حقيقة العرفان والتصوف واحدة حيث يقول : حقيقة العرفان والتصوف واحدة^(١).

وأيضاً يرى أنه لا يوجد فرق بين العارف والصوفي كما ينقل رأي عدة من أهل العرفان فيقول : يرى العديد من أهل الفن أن مصداق هذين العنوانين (العارف والصوفي) واحد^(٢).

وبكل تأكيد وإن عبر هو : (العديد من أهل الفن) إلا أن هذا لا يعني أن غيرهم يقول بالتفريق بين العنوانين ، وإنما من باب ما اطلع عليه وعرفه من خلال كلماتهم إذ لا يوجد فرق بين العنوانين.

بل إن السيد حيدر الآملي الذي هو من مسلك عرفاء الشيعة في القرن الثامن الهجري يشي على التصوف بأوصاف يجعلنا لا نحتاج بعده لمزيد من البيان والاستدلال أن لا اثنينة بين العرفان والتصوف وبين العارف والصوفي ، وأقصد من العرفان هو العرفان النظري الصوفي – وليس عرفان أهل البيت عليه السلام – الذي لا غبار في أن ابن عربي صاغه وأظهره بصياغة فلسفية وكلامية مما يجعل عصره مرحلة من مراحل تطور العرفان النظري ونضوجه أكثر من ذي قبل – يقول السيد حيدر الآملي : لو عرفت معنى التصوف وسبب تسميتهم بهذا الاسم لما استنكفت من اسمهم ولا من طريقتهم لأن التصوف عبارة عن

(١) حريم القدس، ص ٨٢.

(٢) حريم القدس، ص ٨٨.

التخلق بالأخلاق الإلهية قولاً وفعلاً وعلماً وحالاً وأي كمال يكون أعظم منه؟ وبالحقيقة ما كانت بعثة الأنبياء والرسل وتعيين الأولياء والأوصياء بأجمعهم إلا للأمر بتحصيل ذلك كما هو معلوم لأرباب الأصول ويشهد بذلك رياضاتهم ومجاهداتهم ، وتركهم اللذات الدنيوية والأخروية ، ورجوعهم إلى الفناء ، وتركهم إضافة شيء إلى أنفسهم ، وغير ذلك من الأوصاف الحميدة والأخلاق الجميلة^(١).

ويقول أيضاً : إن الشيعي الحقيقي لا يكون إلا صوفياً^(٢).

ويرى بعضهم أن لفظ العرفان والعرفاء له جذور في الفلسفة اليونانية والتصوف المسيحي وغيره^(٣) ، ولا موجب للتوسع أكثر بعد ما تضح أن العرفان النظري والتصوف ، والعرفاء والصوفية حقيقة واحدة غير متغايرة ، وهذا ما أصبو لبانه وإظهاره لكثير من الأخوة القراء الذين يتساءلون عن الفرق بين هذه العناوين والمسميات.

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٤٤.

(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ١٢١.

(٣) يقول السيد الطباطبائي رحمته الله : وليس التصوف مما أبدعه المسلمون من عند أنفسهم لما أنه يوجد بين الأمم التي تتقدمهم في النشوء كالنصارى وغيرهم حتى الوثنية من البرهمانية والبوذية ، ففيهم من يسلك الطريقة حتى اليوم بل هي طريقة موروثة ورثوها من أسلافهم. تفسير الميزان، ج ٦، ص ١٩٢.

ولكن الذين تأثروا بالتصوف وإن كانوا يقرون أن أصوله غير إسلامية ، إلا أنهم يقولون نما في الإسلام ، وصار له محتوى جديد مغاير لما هو موجود عند غير المسلمين ، مثل رياضة كبح النفس والابتعاد عن العلائق الدنيوية لها وجود في الفلسفة الهندية وغيرها من الفلسفات غير الإسلامية ، إلا أن هؤلاء أنفسهم يقرون أن عرفانهم أخذوه من نظريات وكتب ابن عربي ، أو ممن تأثر به وأصبح مقلدا ومبوبا له مثل السيد حيدر الآملي ، وملا صدرا كما يأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في مراحل دخول التصوف إلى التشيع .

أصل التصوف وأصوله عند العامة

إذا أردنا معرفة أصل التصوف وأصوله هل تعود إلى الشيعة أو أنه نشأ وترعرع في أوساط العامة ، علينا أن نعرف أوائل الصوفية الذين لا شك في تصوفهم ، ومن ثم معرفة معتقداتهم وتوجههم نحو الخلفاء ، حينها يتضح أصل التصوف عند أتباع أهل البيت عليهم السلام ، أم أن أصوله عند أتباع الصحابة ومدرسة السقيفة .

إن مما لا شك فيه أن أوائل الصوفية وأقدمهم من التابعين خمسة وهم : الحسن البصري ، ومالك بن دينار ، وفرقد السبخي ، وأبو هاشم الكوفي ، وسفيان الثوري تلميذ أبي هاشم الكوفي كما يأتي الكلام عنه .

ويتحدث ابن عربي عن اجتماع الحسن البصري بفرقد السبخي ومالك بن دينار وحديثه معهم عن التصوف فيقول : هذا الفن من الكشف والعلم يجب

ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو فغوره بعيد والتلف فيه قريب فإن من لا معرفة له بالحقائق ولا بامتداد الرقائق ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به وهو لم يذقه ربما قال : أنا من أهوى ومن أهوى أنا فلهذا نستره ونكتمه وقد كان الحسن البصري إذا أراد أن يتكلم في مثل هذه الأسرار التي لا ينبغي لمن ليس من طريقها أن يقف عليها دعا بفرقد السبخي ومالك بن دينار ومن حضر من أهل الذوق وأغلق بابه دون الناس وقعد يتحدث معهم في مثل هذا الفن^(١).

إن هذه الأسرار كما يحسبها ابن عربي هي الفكر الصوفي الذي انتشر بعد ذلك وأخذ يضلل المسلمين ، وإلى يومنا هذا نرى من يحسبها أسراراً جرياً على نهج ابن عربي !

وبعد هذا علينا أن نخوض في سيرة أوائل الصوفية لنعرف هل كانوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام لكي نقول أن أصول التصوف شيعية ، أم من أتباع الخلفاء لنقول أن أصله وأصوله عند العامة وليس عند الشيعة .

(١) رسالة الفناء في المشاهدة، ص ٥.

الحسن البصري

إن أول من مثل التصوف في الإسلام هو الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) وكل سلسلة الصوفية ترجع إليه كما هو معروف ومشهور في كتب الصوفية ، سواء الصوفية الذين ينتمون للشيعنة أو العامة ، حيث لم يذكروا أحدا سبقة في التصوف ، وإن كانوا ينسبون تصوفه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ليصححوا طريقهم في النسك والعبادة ، وهذه النسبة المزعومة هي نسبة باطلة ولا دليل عليها وأين طريقة البصري المذمومة بالأحاديث من نهج أمير المؤمنين عليه السلام!

ومن الذين نسبوا أصل التصوف للحسن البصري وأنه أخذه من أمير المؤمنين عليه السلام هو السيد حيدر الآملي حيث يقول : اعلم أنه قد صح وثبت بحكم النقل عند مشايخ الصوفية والخواص من أهل الله تعالى أن عليا أمير المؤمنين عليه السلام دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأفضلها عند الله وأسهلها على عباده . فقال له صلى الله عليه وآله وسلم : عليك يا علي بما نلت ببركة النبوة فقال علي عليه السلام ما هذا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : ذكر الله تعالى ، قال علي عليه السلام : هكذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مه يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : الله الله ثم قال : أنصت يا علي حتى أنا أقول ثلاث مرات وأنت تسمع مني فإذا أنا سكت فقل أنت حتى أنا اسمع منك . هكذا لقن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام ثم

لقن علي الحسن البصري . ثم لقن الحسن حبيبا العجمي . ثم لقن الحبيب داود الطائي . ولقن داود معروف الكرخي . ولقن المعروف سري السقطي . وهو لقن أبا القاسم الجنيد بن محمد البغدادي . ولقن الجنيد ممشاد الدينوري . ولقن ممشاد أحمد الأسود الدينوري . ولقن احمد محمد البكري السهروردي ، المعروف بعمويه . ولقن محمد بن عبد الله البكري القاضي وحيد الدين عمر بن محمد البكري . ولقن هو أبا النجيب عبد القاهر السهروردي . وهو لقن شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي البكري . ولقن هو معين الدين من أصحاب شيخ شيوخ بلاد الروم . ومعين الدين لقن هذا الفقير أحمد بن مسعود ببلد قونية . وكان قدس الله سره لقن شيخي وشيخ أبي وجدي . ولقن هذا الفقير محمد بن علي بن محمد المعروف بالزاهد الأصفهاني . ولقن هو هذا الفقير محمد بن أبي بكر السمناني ، المذكور أعلاه ، من عاشر جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة^(١).

وخبر تلقين أمير المؤمنين عليه السلام للحسن البصري لم يرد في مصادرنا ويبدو أنه من موضوعات الصوفية ، بل هو يقول أنه منقول عن مشايخ الصوفية كما في عبارته المقدمة : (قد صح وثبت بحكم النقل عند مشايخ الصوفية والخواص).

وقد كان الحسن البصري من أتباع الخلفاء ومبغضا لأمير المؤمنين عليه السلام وكان يمنع الناس في مواعظه من امثال أمره والقتال معه . ويأتي ما ورد فيه من ذم من

(١) نص النصوص، ص ٢٢٣.

قَبْلَ الأئمة عليهم السلام تحت عنوان (لقاءات الحسن البصري بالأئمة وذمهم له) وذكرت فيه وصف الأمير له بأنه سامري هذه الأمة ، ودعائه عليه السلام عليه بعد ما كان متأسفا على قتل أصحاب الجمل فلا يُشك بعدم انتسابه لأهل البيت عليهم السلام وسيرته وتوجهه نحو الخلفاء.

ومما رواه ابن جرير في سيرة الحسن البصري : كان ممن خرج مع عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وتخلف عن الحسين بن علي عليه السلام ثم خرج في جند الحجاج إلى خراسان مع قتبية بن مسلم وهو القائل في عثمان قتله الكفار وخذله المنافقون فنسب المهاجرين والأنصار إلى النفاق^(١).

ويُعد الحسن البصري أول من صنف كتابا في التصوف أسماء (رعاية حقوق الله) يمكن تصنيفه كأول كتاب في التصوف ، والنسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة في اكسفورد ، ويدعي نيكلسون أن أول مسلم كتب حول منهج حياة الصوفية كان الحسن البصري ، وقد بين طريقة في التصوف والوصول إلى المقامات العالية مازال العلماء يشرحونها حتى اليوم^(٢).

^(١) (المسترشد، ص ١٥٦.

^(٢) (انظر كتاب العرفان لمرتضى مطهري، ص ٥١.

لقاءات الحسن البصري بالأئمة عليهم السلام وذمهم له

لقائه مع أمير المؤمنين عليه السلام :

ورد عن أبي يحيى الواسطي قال لما افتتح أمير المؤمنين عليه السلام البصرة اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه الألواح فكان كلما لفظ أمير المؤمنين عليه السلام بكلمة كتبها فقال أمير المؤمنين عليه السلام بأعلى صوته ما تصنع ؟ فقال نكتب آثاركم لنحدث بها بعدكم فقال أمير المؤمنين عليه السلام أما إن لكل قوم سامري وهذا سامري هذه الأمة أما إنه لا يقول لا مساس ولكن يقول لا قتال^(١).

ومر أمير المؤمنين عليه السلام بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال : يا حسن أسبغ الوضوء . فقال : يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناسا يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، يصلون الخمس ، ويسبغون الوضوء . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدونا . فقال : والله لأصدقنك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت علي سلاحي وأنا لا أشك في أن التخلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر ، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة ناداني مناد : (يا حسن إلى أين أرجع فإن القاتل والمقتول في النار) فرجعت ذعرا وجلست في بيتي ، فلما كان في اليوم الثاني لم أشك أن التخلف عن أم المؤمنين عائشة هو

(١) الاحتجاج، ج١، ص٢٥١.

الكفر ، فتحنطت ، وصبت علي سلاحه وخرجت أريد القتال ، حتى أنهت إلى موضع من الخريبة فناداني مناد من خلفي : (يا حسن إلى أين مرة بعد أخرى فإن القاتل والمقتول في النار) قال علي عليه السلام : صدقك أفندري من ذلك المناذي ؟ قال : لا . قال عليه السلام : ذلك أخوك إبليس ، وصدقك أن القاتل والمقتول منهم في النار ، فقال الحسن البصري الآن عرفت يا أمير المؤمنين أن القوم هلكي^(١).

وروى قطب الدين الراوندي : أن عليا عليه السلام رأى الحسن البصري يتوضأ في سقية ، فقال : أسبغ طهورك يا فتى . قال : لقد قتلت بالأمس رجالا كانوا يسبغون الوضوء . قال : وإنك لحزين عليهم ؟ قال : نعم . قال : فأطال الله حزنك . قال أيوب السجستاني : فما رأينا الحسن قط إلا حزينا ، كأنه يرجع عن دفن حميم أو كأنه خربندج^(٢) ضل حماره^(٣).

مع الإمام الحسن عليه السلام :

كتب الحسن بن أبي الحسن البصري إلى أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام أما بعد فإنكم معشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة والأعلام النيرة الشاهرة أو كسفينة نوح عليه السلام التي نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون. كتبت إليك

(١) الاحتجاج، ج١، ص٢٥٠.

(٢) مكاري الحمار .

(٣) الخرائج والجرائح، ج٢، ص٦٣.

يا أبن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في الاستطاعة ، فأخبرنا بالذي عليه رأيك ورأي آبائك عليه السلام ؟ فإن من علم الله علمكم وأنتم شهداء على الناس والله الشاهد عليكم ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. فأجابه الحسن عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم وصل إلي كتابك ولولا ما ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذا ما أخبرتك ، أما بعد فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أن الله يعلمه فقد كفر . ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر، إن الله لم يطع مكرها ولم يعص مغلوبا ولم يهمل العباد سدى من المملكة بل هو المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم ، بل أمرهم تحييرا ونهاهم تحذيرا فإن أئتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صادًا وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمن عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل وإن لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبرا ولا ألزموها كرها بل من عليهم بأن بصرهم وعرفهم وحذرهم وأمرهم ونهاهم لا جبلا لهم على ما أمرهم به فيكونوا كالملائكة ولا جبرا لهم على ما نهاهم عنه والله الحجة البالغة فلو شاء لهدىكم أجمعين والسلام على من اتبع الهدى^(١).

لقائه مع الإمام السجاد عليه السلام :

أتى عليه السلام يوما الحسن البصري وهو يقص عند الحجر فقال أترضى يا حسن نفسك للموت قال لا قال فعملك للحساب قال لا قال فثم دار للعمل غير هذه

(١) تحف العقول، ص ٢٣١.

الدار قال لا قال فله في أرضه معاذ غير هذا البيت قال لا قال فلم تشغل الناس عن الطواف^(١).

وروي أن زين العابدين عليه السلام مر بالحسن البصري وهو يعظ الناس بمنى فوقف عليه السلام عليه ثم قال : امسك أسألك عن الحال التي أنت عليها مقيم ، أترضاه لنفسك فيما بينك وبين الله إذا نزل بك غدا ؟

قال : لا.

قال : أفتحدث نفسك بالتحول والانتقال عن الحال التي لا ترضاه لنفسك إلى الحال التي ترضاه ؟

فأطرق مليا ثم قال : إني أقول ذلك بلا حقيقة.

قال : أفترجو نيبا بعد محمد صلى الله عليه وآله يكون لك معه سابقة ؟

قال : لا.

قال : أفترجو دارا غير الدار التي أنت فيها ترد إليها فتعمل فيها ؟

قال : لا.

قال : أفرأيت أحدا به مسكة عقل رضي لنفسه من نفسه بهذا ؟ إنك على حال لا ترضاه ولا تحدث نفسك بالانتقال إلى حال ترضاه على حقيقة ، ولا ترجو

(١) أمالي السيد المرتضى، ص ١١٣.

نبيا بعد محمد ، ولا دار غير الدار التي أنت فيها فترد إليها فتعمل فيها ، وأنت تعظ الناس^(١).

لقائه مع الإمام الباقر عليه السلام :

روي عن أبي حمزة الثمالي قال : أتى الحسن البصري أبا جعفر عليه السلام فقال :
جئتك لا سألك عن أشياء من كتاب الله .

فقال أبو جعفر : ألسنت فقيه أهل البصرة ؟

قال : قد يقال ذلك .

فقال له أبو جعفر عليه السلام : هل بالبصرة أحد تأخذ عنه ؟

قال : لا .

قال : فجميع أهل البصرة يأخذون عنك ؟

قال : نعم .

فقال أبو جعفر : سبحان الله لقد تقلدت عظيما من الأمر ، بلغني عنك أمر فما أدري أكذاك أنت ، أم يكذب عليك ؟

قال : ما هو ؟

(١) الاحتجاج، ج ٢، ص ٤٣.

قال : زعموا أنك تقول : إن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم.

قال : فسكت الحسن.

فقال : رأيت من قال الله له في كتابه : إنك آمن ، هل عليه خوف بعد هذا القول منه .

فقال الحسن : لا.

فقال أبو جعفر عليه السلام : إني أعرض عليك آية وأنها إليك خطابا ، ولا أحسبك إلا وقد فسرته على غير وجهه ، فإن كنت فعلت ذلك فقد هلكت وأهلك.

فقال له : ما هو؟

قال : رأيت حيث يقول : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾^(١) يا حسن بلغني أنك أفنيت الناس فقلت : هي مكة . فقال أبو جعفر عليه السلام : فهل يقطع على من حج مكة ، وهل يخاف أهل مكة ، وهل تذهب أموالهم ؟

قال : بلى قال : فمتى يكونون آمنين ؟ بل فينا ضرب الله الأمثال في القرآن ، فنحن القرى التي بارك الله فيها ، وذلك قول الله تعالى ، فمن أقر بفضلنا حيث أمرهم بأن يأتونا فقال : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي جعلنا بينهم وبين شيعتهم القرى التي باركنا فيها ، قرى ظاهرة ، والقرى

(١) سورة سبأ : ١٨ .

الظاهرة الرسل ، والنقلة عنا إلى شيعتنا ، وفقهاء شيعتنا ، إلى شيعتنا ، وقوله تعالى : ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ فالسير مثل للعلم ، سير به ليالي وأياما ، مثل لما يسير من العلم في الليالي والأيام عنا إليهم ، في الحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، آمنين فيها إذا أخذوا منه ، آمنين من الشك والضلال ، والنقلة من الحرام إلى الحلال ، لأنهم أخذوا العلم ممن وجب لهم أخذهم إياه عنهم ، بالمعرفة ، لأنهم أهل ميراث العلم من آدم إلى حيث انتهوا ، ذرية مصطفاه بعضها من بعض ، فلم ينته الاصطفاء إليكم ، بل إلينا انتهى ، ونحن تلك الذرية المصطفاه لا أنت ولا أشباهك يا حسن ، فلو قلت لك حين دعيت ما ليس لك ، وليس إليك يا جاهل أهل البصرة ! لم أقل فيك إلا ما علمته منك ، وظهر لي عنك ، وإياك أن تقول بالتفويض ، فإن الله ﷻ لم يفوض الأمر إلى خلفه وهنا منه وضعفا ، ولا أجبرهم على معاصيه ظلما^(١).

وعن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي جعفر : حديث بلغني عن الحسن البصري فإن كان حقا فإننا لله وإننا إليه راجعون ، قال : وما هو ؟ قلت : بلغني أن الحسن البصري كان يقول : لو غلا دماغه من حر الشمس ما استظل بجائط صيرفي ، ولو تفرث كبده عطشا لم يستسق من دار صيرفي ماءً ، وهو عملي وتجارتي وفيه نبت لحمي ودمي ، ومنه حجي وعمرتي ، فجلس ثم قال : كذب

(١) الاحتجاج، ج ٢، ص ٦٢.

الحسن خذ سواء وأعط سواء ، فإذا حضرت الصلاة فدع ما بيدك وانهض إلى الصلاة ، أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا صيارفة^(١).

وعن عبد الله سليمان قال سمعت أبا جعفر عليه السلام وعنده رجل من أهل البصرة يقال له عثمان الأعمى وهو يقول أن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم يؤذى ريح بطونهم أهل النار فقال أبو جعفر عليه السلام فهلك إذا مؤمن آل فرعون وما زال العلم مكتوما منذ بعث الله نوحا عليه السلام فليذهب الحسن يمينا وشمالا فوالله ما يوجد العلم إلا هيهنا^(٢).

وروي عن علي بن محمد بن قتيبة قال سئل أبو محمد الفضل بن شاذان عن الزهاد الثمانية فقال : الربيع بن خيثم ، وهرم بن حيان ، وأويس القرني ، وعامر بن عبد قيس ، فكانوا مع علي عليه السلام ومن أصحابه وكانوا زهادا أتقياء ، وأما أبو مسلم فإنه كان فاجرا مرائيا وكان صاحب معاوية ، وهو الذي كان يحث الناس على قتال علي عليه السلام وقال لعلي عليه السلام : أدفع إلينا المهاجرين والأنصار حتى تقتلهم بعثمان ، فأبى علي عليه السلام ذلك ، فقال أبو مسلم : الآن طاب الضراب ، وإنما كان وضع فخا ومصيدة ، وأما مسروق ، فإنه كان عشارا لمعاوية ، ومات في عمله ذلك بموضع أسفل من واسط على دجلة يقال له

^(١) الكافي، ج ٥، ص ١١٤.

^(٢) بصائر الدرجات، ص ٢٩.

الرصافة وقبره هناك ، والحسن كان يلقي كل أهل فرقة بما يهون ، ويتصنع للرئاسة ، وكان رئيس القدرية ، وأويس القرني مفضل عليهم كلهم^(١).

وذكر النجاشي في رجاله عند ترجمة الفضل بن شاذان أنه له كتاب الرد على الحسن البصري في التفضيل^(٢).

مكاشفة شيطانية للحسن البصري بينها أمير المؤمنين عليه السلام

روى الشيخ الطبرسي رحمته الله أن أمير المؤمنين عليه السلام مر بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال : يا حسن أسبغ الوضوء . فقال : يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناسا يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، يصلون الخمس ، ويسبغون الوضوء . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدونا . فقال : والله لأصدقنك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت علي سلاحي وأنا لا أشك في أن التخلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر ، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة ناداني مناد : (يا حسن إلى أين أرجع فإن القاتل والمقتول في النار) فرجعت ذعرا وجلست في بيتي ، فلما كان في اليوم الثاني لم أشك أن التخلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر ، فتحنطت ، وصببت علي سلاحي

(١) اختيار معرفة الرجال، ص ٣٥٣.

(٢) رجال النجاشي، ص ٣٠٧.

وخرجت أريد القتال ، حتى أنهيت إلى موضع من الخريبة فناداني مناد من خلفي : (يا حسن إلى أين مرة بعد أخرى فإن القاتل والمقتول في النار) قال علي عليه السلام : صدقك أفندري من ذلك المنادي ؟ قال : لا . قال عليه السلام : ذلك أخوك إبليس ، وصدقك أن القاتل والمقتول منهم في النار ، فقال الحسن البصري الآن عرفت يا أمير المؤمنين أن القوم هلكي^(١).

إن هذه من المكاشفات التي حدثت للحسن البصري وهو يجهل تفسيرها ومصدرها ، ولربما كان يعدها نورا من الفيض الأقدس ، أو كشفا شهوديا في فص قدوسي كما كان يعنون ابن عربي موضوعات فصوص الحكم بأمثال هذه العناوين.

ولا غرو في ذلك فهذا ابن عربي يثني على الحسن البصري أيما ثناء ويعده من الخواص وحملة الأسرار حيث يقول فيه : هذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو فغوره بعيد والتلف فيه قريب فإن من لا معرفة له بالحقائق ولا بامتداد الرقائق ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به وهو لم يذقه ربما قال : أنا من أهوى ومن أهوى أنا فلهذا نستره ونكتمه وقد كان الحسن البصري إذا أراد أن يتكلم في مثل هذه الأسرار التي لا ينبغي لمن ليس من طريقها أن يقف عليها دعا بفرقد السبخي ومالك بن

(١) الاحتجاج، ج١، ص ٢٥٠.

دينار ومن حضر من أهل الذوق وأغلق بابه دون الناس وقعد يتحدث معهم في مثل هذا الفن^(١).

صلوات الله على أمير المؤمنين لولاه ما عرف البصري كشفه الشيطاني، وحسبه ومريدوه نورا من كشف الأزل!!

وقد يُقال إن الحسن البصري كان صغير السن حال معاصرته لأمر المؤمنين عليه السلام فلا يمكن قبول هذا الخبر في حقه ؟!

والجواب عن ذلك :

توجد عدة لقاءات للحسن البصري مع أمير المؤمنين عليه السلام في المصادر الشيعية الأساسية وفي مصادر العامة أيضا ، فلا يصح تكذيب هذه المرويات لصغر سنه حال معاصرته للإمام عليه السلام - هذا فيما لو قلنا بصغر سنه لأن البصري كان له من العمر نحو عشرين سنة حالة استشهاد الأمير عليه السلام - مع أن الإخبار عن ولادته أيضا جاءنا من خلال رواية ؛ فما الضير إذن في تكذيب تاريخ السن المذكور وجعله وفق ما يقتضيه زمن المحاورة ؟! كما أن عددا ليس بالقليل من كتب الطبقات والسير تجاهلت سنة الولادة ، ولم تشر له بأي دلالة وتاريخ ، والكتب التي تطرقت له أوردته بصيغة واحدة وهي : (لستين بقيتا من خلافة عمر) مما يدل على أن تاريخ الولادة مجهول أو أنه لا يمكن الاعتبار به ، وتدل أيضا تلك الصيغة الفريدة على خبر واحد يتحدث عن الولادة ولا يوجد

(١) رسائل ابن العربي، ص ٥.

سواء، مضافاً لذلك كله وتنزلاً مع الصيغة المذكورة للتاريخ لا يوجد مانع
للعمر المحدد فيها يمكن الركون إليه في استحالة المحادثة.

ثم لا يوجد ما يدل دلالة واضحة على أن للحسن البصري شأنًا ما زمن
المحادثة واللقاء ، أو أنه من كبار الصوفية لكي يستكثر عظم شأنه في صغر سنه ،
كما أن هتافات إبليس اللعين ليست خاصة بعمر محدد أو بشأن مبجل .

وحتى لو قلنا بشأنه حال صغر سنه لا استحالة في البين ، إذ كم من صغير السن
عظيم الشأن ، مع أنه له نحو عشرين سنة ، فلم يرد استبعاد المحادثة لصغر
السن ، هذا كله تنزلاً مع السن المذكور.

وقد تقدم^(١) في (الاحتجاج) خبران في لقاء الحسن البصري بأمر المؤمنين عليه السلام
وخبر تقدم أيضاً رواه قطب الدين الراوندي.

وروى الشيخ المفيد رحمته الله في الأمالي عن الحسن البصري : قدم علينا أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب عليه السلام البصرة مر بي وأنا أتوضأ ، فقال : يا غلام أحسن
وضوءك يحسن الله إليك . ثم جازني فأقبلت أقفو إثره ، فحانت مني التفاته
فنظر إلي فقال : يا غلام ألك إلي حاجة ؟ قلت : نعم ، علمني كلاماً ينفعني
الله به . فقال : يا غلام من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من
الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عينه بما يرى من ثواب الله ﷻ . ألا أزيدك يا
غلام ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، قال : ثلاث خصال من كن فيه سلمت له

(١) تحت عنوان : (لقاءات الحسن البصري بالأئمة عليهم السلام وذمهم له).

الدنيا والآخرة ، من أمر بالمعروف وائتمر به ، ونهى عن المنكر وانتهى عنه ، وحافظ على حدود الله . يا غلام أيسرك أن تلقى الله يوم القيامة وهو عنك راض ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : كن في الدنيا زاهدا ، وفي الآخرة راغبا ، وعليك بالصدق في جميع أمورك فإن الله تعبدك وجميع خلقه بالصدق^(١).

وقد يكون لقاء البصري هذا بالأمير عليه السلام قبل خلافته ، مما يعني أن تلك الأخبار الواردة عنه عليه السلام في ذم البصري كانت متأخرة عن هذا الخبر ، بل تأخر تلك الأخبار مما يقطع به .

وفي مصادر العامة ذكر أبو حامد الغزالي أن أمير المؤمنين عليه السلام رأى الحسن البصري في مسجد البصرة وهو يعظ الناس^(٢).

(١) الأمالي / المجلس الرابع عشر.

(٢) انظر إحياء علوم الدين، ج١، ص٥٨.

مساوئ البصري تعدها الصوفية مزايا

إن من المزايا التي تعدها الصوفية للحسن البصري أنه كان حليف الهم والحزن؛ يقول القشيري : كان الحسن البصري لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة^(١).

وعن إبراهيم بن عيسى الشكري قال : ما رأيت أحدا أطول حزنا من الحسن، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة^(٢).

وعن علقمة بن مرثد : ما رأينا أحدا من الناس كان أطول حزنا منه ، ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة^(٣).

ويقول أبو نعيم الأصفهاني : ومنهم حليف الخوف والحزن أليف الهم والشجن عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن الفقيه الزاهد المتشمر العابد كان لفضول الدنيا وزيتها نابذا ولشهوة النفس ونخوتها واقذا^(٤). مع أن الهم والحزن الذي أصابه كان بسبب دعاء أمير المؤمنين عليه السلام عليه ، كما روى الراوندي رحمته الله : أن عليا عليه السلام رأى الحسن البصري يتوضأ في سقية ، فقال : أسبغ طهورك يا فتى . قال : لقد قتلت بالأمس رجالا كانوا يسبغون الوضوء . قال :

(١) الرسالة القشيرية، ص ٢٣٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ١٩٣.

(٢) حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٣٣.

(٣) حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٣٤.

(٤) حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٣١.

وإنك لحزين عليهم ؟ قال : نعم . قال : فأطال الله حزنك . قال أيوب السجستاني : فما رأينا الحسن قط إلا حزينا ، كأنه يرجع عن دفن حميم أو كأنه خربندج ضل حماره^(١).

ويتحدث ابن أبي الحديد عن الحسن البصري : روى عنه أن عليا عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة وكان ذا وسوسة فصب على أعضائه ماء كثيرا ، فقال له : أرقت ماء كثيرا يا حسن ، فقال : ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فلا زلت مسوءا . قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات^(٢).

كلام الحسن البصري يشبه كلام الأنبياء !

إن من المزايا التي تنسبها الصوفية للبصري هو تشبيه كلامه بكلام الأنبياء كما يصفه أبو حامد الغزالي : لقد كان الحسن البصري عليه السلام أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء^(٣).

(١) الخرائج والجرائح، ج٢، ص٦٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٩٥.

(٣) إحياء علوم الدين، ج١، ص١٣١.

ولكن هذا الكلام الذي يشبه كلام الأنبياء ﷺ لم يكن كلام الحسن البصري ، وإنما كان كلام أمير المؤمنين ﷺ لأنه كان يدون كلامه ويحدث به ، كما روى الطبرسي رحمه الله : لما افتتح أمير المؤمنين ﷺ اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه الألواح فكان كلما لفظ أمير المؤمنين ﷺ بكلمة كتبها فقال أمير المؤمنين ﷺ بأعلى صوته ما تصنع ؟ فقال نكتب آثاركم لنحدث بها بعدكم فقال أمير المؤمنين ﷺ أما إن لكل قوم سامري وهذا سامري هذه الأمة أما إنه لا يقول لا مساس ولكن يقول لا قتال^(١).

والفيض الكاشاني رحمه الله أيضا كان يصرح بسرقات البصري لكلام أمير المؤمنين ﷺ فيقول : كان منافقا مبغضا لأمر المؤمنين ﷺ كان يمنع الناس في مواعظه من امثال أمر أمير المؤمنين ﷺ والقتال معه على أن أكثر ما يتكلم به الحسن مما يعظ به في مواعظه ويأتي به في مجالسه في معرض الإفادة كان من كلام أمير المؤمنين ﷺ فإنه كان يجلس في مجالس خطبه ومواعظه وكان يكتبها ويحفظها ثم يسردها على الناس ويربها كأنه من كلام نفسه حتى قال علماء العامة : إن كلام الحسن يشبه كلام الأنبياء وإنما كان من كلام من كان يفتخر به الأنبياء^(٢).

(١) الاحتجاج، ج١، ص٢٥١.

(٢) المحجة البيضاء، ج١، ص٨٧.

ومن الكلام الذي تحدث به الحسن البصري ولم ينسبه لأمر المؤمنين عليه السلام هو قوله : ملابسهم بالاقتصاد ومشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى واستقاداتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا وإعطاؤهم الحق من أنفسهم ظمئت هواجرهم ونحلت أجسامهم واستخفوا بسخط المخلوقين لرضى الخالق لم يفرطوا في غضب ولم يحيفوا في جور ولم يجاوزوا حكم الله في القرآن شغلوا الألسن بالذكر بذلوا لله دمائهم حين استنصرهم وبذلوا لله أموالهم حين استقرضهم لم يكن خوفهم من المخلوقين حسنت أخلاقهم وهانت مؤنتهم وكفاهم اليسير من الدنيا إلى آخرتهم^(١).

وقد وردت هذه المضامين في وصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين في الخطبة المعروفة بخطبة المتقين .

ولربما عدم نسبة الكلام للأمر عليه السلام بسبب خوفه كما روى المزي أيضا : عن يونس بن عبيد قال سألت الحسن يا أبا سعيد إنك تقول قال رسول الله وإنك لم تدركه ؟ قال : يا ابن أخي لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك ، إني في زمان كما ترى - وكان في عمل

(١) تهذيب الكمال، ج١، ص١١٥.

الحجاج - كل شيء سمعته أقول : قال رسول الله فهو علي بن أبي طالب ،
غير أنني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً^(١).

ولكن مع هذا ابن الأثير روى بعض الأخبار التي نسبها الحسن البصري لأئمة
المؤمنين^(٢) عليه السلام.

إلحاد ابن أبي العوجاء بسبب الحسن البصري

إن من الأمثلة السيئة التي قدمها كبير الصوفية الحسن البصري للإسلام هو
الملحد الشهير ابن أبي العوجاء ، الذي كانت له مناظرات مع الإمام الصادق
عليه السلام حول وجود الخالق ﷻ ، وقد ذكر قسماً منها في أصول الكافي ، هذا ابن
أبي العوجاء كان من تلامذة الحسن البصري كما روى الشيخ الكليني والشيخ
الصدوق رحمهما الله حيث يقولان في ابن أبي العوجاء : كان من تلامذة الحسن
البصري فانحرف عن التوحيد فقليل له : تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما
لا أصل له ولا حقيقة ؟ فقال : إن صاحبي كان مغلطاً ، كان يقول طورا بالقدر

(١) تهذيب الكمال، ج ٦، ص ١٣٤.

(٢) انظر أسد الغابة، ج ٣، ص ٢٢١.

وطورا بالجبر وما أعلمه اعتقد مذهبا دام عليه وقدم مكة متمردا وإنكارا على من يحج وكان يكره العلماء مجالسته ومساءلته لخبث لسانه وفساد ضميره^(١).

وما زال الخط الصوفي الذي تبلور بشكل أكثر وأوسع في زمن ابن عربي وشارح فصوصه الكاشاني ، وتلميذ الكاشاني القيصري يجود علينا بأمثال هذه التحف العظيمة النصرة للإسلام والشديدة الخطب على أعدائه !!

خط يجود بالملحدين والمنحرفين وإذا أردت مثالا وشاهدا على ذلك غير بعيد ، لك أن تستذكر الحركة السلوكية وانحرافات الخطيرة التي انبثقت من هذه الأوساط ، ولذا روي مسندا عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه خاطب أبا هاشم الجعفري فقال : يا أبا هاشم سيأتي زمان على الناس وجوههم ضاحكة مستبشرة وقلوبهم مظلمة منكدر ، السنة فيهم بدعة والبدعة فيهم سنة ، المؤمن بينهم محقر والفاسق بينهم موقر ، أمراؤهم جاهلون جائرون وعلماؤهم في أبواب الظلمة سائرون ، أغنياؤهم يسرقون زاد الفقراء وأصاغرهم يتقدمون على الكبراء ، كل جاهل عندهم خير وكل محيل^(٢) عندهم فقير ، لا يميزون بين المخلص والمرتاب ولا يعرفون الضأن من الذئب ، علماؤهم شرار خلق الله على وجه الأرض لأنهم يميلون إلى الفلسفة والتصوف ، وإيم^(٣) الله إنهم من أهل العدول والتحرف ، يبالغون في حب مخالفينا ويضلون شيعتنا

(١) الكافي، ج ٨، ص ٣٧. من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) قد يكون المراد بالمحيل : هو المخادع والكذاب .

(٣) إيم الله من ألفاظ القسم ، كقولك لعمر الله وعهد الله ، وفيها لغات كثيرة ، وتفتح همزتها وتكسر ، وهمزتها وصل ، وقد تقطع . النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ١٠٦

وموالينا ، فإن نالوا منصبا لم يشبعوا من الرشاء ، وإن خذلوا عبدوا الله على الرياء ، ألا إنهم قطاع طريق المؤمنين والدعاة إلى نحلة الملحدين^(١).

في ظل الحسن البصري نشأت المعتزلة

كان واصل بن عطاء تلميذا للحسن البصري وبعد ذلك اعتزله وأنشأ مذهب الاعتزال ، كما ذكر الشهرستاني في الملل والنحل : دخل واحد على الحسن البصري فقال يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا فتفكر الحسن في ذلك وقبل إن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة^(٢).

(١) حديقة الشيعة، ص ٥٩٢.

(٢) الملل والنحل، ج ١، ص ٤٨.

ومن أعظم الفتن التي أحدثها مذهب الاعتزال هو فتنة خلق القرآن^(١) التي زهقت بسببها الأرواح وجلبت شتى المحن للمسلمين .

(١) قالت المعتزلة إن كلامه تعالى حادث لأن كل ما هو مركب يكون حادثا ، وبما أن كلامه تعالى مرتب من حروف يكون حادثا . وقالت الأشاعرة إن كلامه تعالى صفة له وكل ما هو صفة يكون قديما إذن كلامه قديم . وعلى هذا القول يلزم تعدد القدماء ، ولفقت الأشاعرة على قول المعتزلة (حدوث القرآن) يترتب عليه أن القرآن كغيره من المخلوقات لا يستحق القدسية . ومن الواضح لا ملازمة بين القول بحديث القرآن وعدم قدسيته ، أو قل لا يعني القول بحديث القرآن عدم قدسيته.

ومما يستدل به على خلق القرآن قوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ وإن كان لا يخلو من مناقشة في الدلالة على خلقه.

وأئمة أهل البيت عليهم السلام لم يتدخلوا بالصراعات الطاحنة بين الأشاعرة والمعتزلة في هذه الخصوصية إما لعدم الجدوى فيها ، أو لأنها من الصراعات السياسية التي تصب في مصلحة الحكم - حيث كان المأمون العباسي والمعتصم يقولان بقول المعتزلة إلى أن جاء المتوكل العباسي وقال بقول الأشاعرة - ولذا كان الإمام الصادق عليه السلام لا يجيب عند السؤال عن خلق القرآن ، روى علي بن سالم عن أبيه قال : سألت الصادق جعفر بن محمد فقلت له : يا ابن رسول الله ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله ، وقول الله ، وكتاب الله ، ووحى الله ، وتنزيله . وهو الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد. توحيد الصدوق، ص ٢٢٤.

وعن عبد الرحيم القصير قال : كتبت على يدي عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك ، اختلف الناس في أشياء قد كتبت بها إليك ، فأنت رأيت جعلني الله فداك أن

تشرح لي جميع ما كتبت به إليك ، اختلف الناس جعلت فداك بالعراق في المعرفة والجحود ، فأخبرني جعلت فداك أهما مخلوقان ؟ واختلفوا في القرآن ، فزعم قوم : أن القرآن كلام الله غير مخلوق وقال آخرون : كلم الله مخلوق ... فكان من ضمن ما أجاب به الإمام الصادق (عليه السلام) : سألت رحمك الله عن القرآن واختلف الناس قبلكم ، فإن القرآن كلام الله محدث غير مخلوق وغير أزلي مع الله تعالى ذكره ، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، كان الله (سبحانه) ولا شيء غير الله معروف ولا مجهول ، كان عز وجل ولا متكلم ولا مريد ولا متحرك ولا فاعل عز وجل ربنا ، فجميع هذه الصفات محدثة عند حدوث الفعل منه ، عز وجل ربنا ، والقرآن كلام الله غير مخلوق ، فيه خبر من كان قبلكم وخبر ما يكون بعدكم أنزل من عند الله على محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله). توحيد الصدوق، ص ٢٦٦.

وفسر الشيخ الصدوق (رحمته الله) قول الإمام (عليه السلام) (كلام الله غير مخلوق) بأنه غير مفترى حيث يقول : ومعنى ما فيه أنه غير مخلوق أي غير مكذوب ، ولا يعني به أنه غير محدث لأنه قال : محدث غير مخلوق وغير أزلي مع الله تعالى ذكره. توحيد الصدوق، ص ٢٢٩.

وعن سليمان بن جعفر الجعفري قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) : يا ابن رسول الله ، ما تقول في القرآن ؟ فقد اختلف فيه من قبلنا ، فقال قوم إنه مخلوق ، وقال قوم إنه غير مخلوق . فقال (عليه السلام) : أما إني لا أقول في ذلك ما يقولون ، ولكني أقول : إنه كلام الله. توحيد الصدوق، ص ٢٢٤.

ولكن مع عدم تدخل الأئمة (عليهم السلام) وإعراضهم عن الإجابة بشكل صريح نجد بعض الأحاديث التي تدل على خلق القرآن الكريم ، ولربما كانت هذه الأحاديث لخاصتهم ممن لا يكشفون سرهم ، أو أنها كانت بعد أن هدأت الفتنة فقد روى محمد بن عيسى بن عبيد اليقطيني أنه كتب علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) إلى بعض شيعته ببغداد :

ومن مذهب الاعتزال أنشأ أبو الحسن الأشعري - الذي كان معتزليا أربعين سنة وتلميذا لأبي علي الجبائي^(١) - مذهب الأشعرية ؛ يقول ابن عساكر : أخبرني الشيخ أبو المظفر أحمد بن أبي العباس الحسن بن محمد البسطامي الشعيري ببسطام قال أنا جدي لأمي الشيخ الزاهد أبو الفضل محمد بن علي بن أحمد بن الحسين بن سهل السهلقي البسطامي قال سمعت محمد بن علي بن أحمد بن الحسين الواعظ رحمه الله يقول سمعت أحمد بن الحسين المتكلم قال سمعت بعض أصحابنا يقول إن الشيخ أبا الحسن لما تبحر في كلام الإعتزال وبلغ غاية كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد فيها جوابا شافيا فتحير في ذلك فحكى عنه إنه قال وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقممت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني

بسم الله الرحمن الرحيم ، عصمنا الله وإياك من الفتنة ، فإن يفعل فقد أعظم بها نعمة ، وإن لا يفعل فهي الهلكة . نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة ، اشترك فيها السائل والمجيب ، فيتعاطى السائل ما ليس له ، ويتكلف المجيب ما ليس عليه ، وليس الخالق إلا الله عز وجل ، وما سواه مخلوق ، والقرآن كلام الله ، لا تجعل له اسما من عندك فتكون من الضالين. توحيد الصدوق، ص ٢٢٤.

وسئل الإمام العسكري عليه السلام : القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : للسائل : يا أبا هاشم، الله خلق كل شيء وما سواه مخلوق. مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ٥٢٥.

(١) روى ابن عساكر عن الحسن بن محمد : كان الأشعري تلميذ الجبائي يدرس عليه فيتعلم منه ويأخذ عنه لا يفارقه أربعين سنة. تبين كذب المفترى، ص ٩١.

الطريق المستقيم ونمت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر فقال رسول الله ﷺ عليك بسنتي فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار فأثبتته ونبتت ما سواه ورأيت ظهريا وذكر أبو القسم حجاج بن محمد الطرابلسي من أهل طرابلس المغرب قال سألت أبا بكر إسماعيل بن أبي محمد بن اسحق الأزدي القيرواني المعروف بابن عزرة عن أبي الحسن الأشعري فقلت له قيل لي عنه إنه كان معتزليا وإنه لما رجع عن ذلك أبقى للمعتزلة نكتا لم ينقضها فقال لي الأشعري شيخنا وإمامنا ومن عليه معولنا قام على مذاهب المعتزلة أربعين سنة وكان لهم إماما ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوما فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال معاشر الناس إنني إنما تغيت عنكم في هذه المدة لأنني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس فمنها كتاب اللمع وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب كشف الأسرار وهتك الأستار وغيرهما فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماما حتى نسب مذهبهم إليه^(١).

(١) تبين كذب المفترى، ص ٣٨.

مالك بن دينار

إن مالك بن دينار (ت: ١٢٣هـ) لم يكن من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويدل عليه أمران :

الأول : أنه روى في مناقب الخليفة الثاني كما في المستدرک على الصحيحين حيث روي عن مالك بن دينار قال : سمع صوت بجبل تبالة حين قتل عمر بن الخطاب : لييك على الإسلام من كان باكيا فقد أوشكوا هلكى وما قدم العهد وأدبرت الدنيا وأدبر خيرها وقد ملها من كان يوقن بالوعد . فنظروا فلم يروا شيئا^(١).

والثاني : هو أنه كان ضمن رواية العامة ووقع في سلسلة رواتهم كما روى الطبراني : عن مالك بن دينار عن الأحنف بن قيس قال : قال لي عمر بن الخطاب : يا أحنف من كثر ضحكك قلت هييته من مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه^(٢).

إن هذا الكلام هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام نسبة ابن دينار للخليفة الثاني ، كما كان الحسن البصري يحدث بكلام أمير المؤمنين ولا ينسبه إليه ، وتقدم ذكر

(١) المستدرک على الصحيحين، حديث: (٤٤٩٩).

(٢) المعجم الأوسط، حديث: (٢٣٤٩).

ذلك عند الحديث عن سيرة البصري وأحواله ، ولربما عدم نسبة مالك بن دينار لأمير المؤمنين عليه السلام بسبب خوفه من الأحكام كما صرح بذلك الحسن البصري ، أو أنه نسبته للخليفة الثاني تزلفاً إليه أو إلى ولاته.

وأيضاً روى الطبراني : عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أتيت ليلة أسري بي على سماء الدنيا فإذا فيها رجال تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء خطباء أمتك^(١).

ولا بأس بنقل شيء من منامات مالك بن دينار كما هي عادة الصوفية الاعتماد على المنامات :

روي عن علي بن مسلم حدثنا سيار حدثنا جعفر قال سمعت مالك بن دينار يقول رأى رجل في المنام كأن منادياً ينادي أخبروا الناس أن عامر بن عبد الله يلقي الله تعالى يوم يلقاه ووجهه مثل القمر ليلة البدر^(٢).

وعن بنت إبراهيم الأزدية قالت حدثني أمي قالت قال مالك بن دينار : رأيت مسلم بن يسار فسلمت عليه فلم يرد علي السلام فقلت لم لا ترد علي السلام قال أنا ميت فكيف أرد السلام فقلت ماذا لقيت يوم الموت قال قد لقيت أهوالاً وزلازل عظيمة شداًداً قلت وماذا كان بعد ذلك قال وما تراه

(١) المعجم الأوسط، حديث (٢٩٤٢).

(٢) حلية الأولياء، ج٢، ص٧٤.

يكون من الكريم قبل منا الحسنات وعفا لنا عن السيئات وضمن عنا التبعات
قالت فكان مالك يحدث بهذا وهو ييكي ويشهق ثم يغشى عليه فلبث بعد ذلك
أياما مريضا ثم مات في مرضه فكنا نرى أن قلبه انصدع^(١).

ومن أقواله المخالفة لأحكام الدين : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك
زوجته كأنها أرملة ويأوي إلى مزابل الكلاب^(٢).

فرقد السبخي

إن فرقد السبخي (ت: ١٣١هـ) وقع في عداد رواة العامة وهذا يدل على أنه لم
يكن من أتباع أهل البيت عليه السلام، مضافا إلى ذلك وقع في سلسلة ما روى عن أبي
بكر وأبي هريرة ، وأنس بن مالك ، أما أخباره عن أبي بكر فقد روي عنه
جملة من الأخبار أكتفي بخبرين منها على سبيل المثال : روى الترمذي : عن
فرقد السبخي عن مرة الطيب عن أبي بكر : عن النبي ﷺ قال لا يدخل الجنة
خب ولا منان ولا بنخيل^(٣).

والخبر الثاني : عن فرقد السبخي عن مرة الطيب عن أبي بكر قال : قال
رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة سيء الملكة فقال رجل يا رسول الله أليس

(١) حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٢) حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣) سنن الترمذي، حديث (١٩٦٣).

أخبرتنا أن هذه الأمة أكثر الأمم مملوكين وأيتاما قال بلى فأكرمهم كرامة أولادكم وأطعموهم مما تأكلون قالوا فما ينفعنا في الدنيا يا رسول الله قال فرس صالح ترتبطه تقاتل عليه في سبيل الله ومملوكك يكفيك فإذا صلى فهو أخوك فإذا صلى فهو أخوك^(١).

ومما رواه عن أبي هريرة : عن فرقد عن يزيد بن عبد الله بن الشخير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : أكذب الناس أو من أكذب الناس الصواغون والصباغون^(٢).

وفي روايته عن أنس بن مالك يقول الذهبي : قيل إنه روى عن أنس بن مالك^(٣).

ولكن السبخي وإن كان من رواة العامة إلا أنه غير مقبول الحديث عند أغلبهم يقول المزي : قال البخاري : في حديثه مناكير . وقال الترمذي : تكلم فيه يحيى بن سعيد وروى عنه الناس وقال النسائي : ليس بثقة . وقال يعقوب بن شيبة : رجل صالح ، ضعيف الحديث جدا . وقال أبو حاتم : ليس بقوي في الحديث . وقال أبو أحمد بن عدي : كان يعد من صالحى أهل البصرة . وليس هو كثير الحديث^(٤).

^(١) مسند أحمد، مسند أبي بكر، حديث : (٧٦) .

^(٢) مسند أحمد، حديث : (٧٩٠٧) .

^(٣) تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ٢٠١ .

^(٤) تهذيب الكمال، ج ٢٣، ص ١٦٧ .

ومن حكاياته ولقائه مع الحسن البصري : دعي الحسن البصري إلى طعام فنظر إلى فرقد السبخي وعليه جبة صوف فقال : يا فرقد لو شهدت الموقف لخرقت ثيابك مما ترى من عفو الله ﷻ^(١).

أبو هاشم الكوفي

إن أبا هاشم الكوفي (ت: ١٥٠هـ أو ١٥٢هـ) : لا يوجد ما يدل على تشييعه بل على العكس تماما كما يقول عنه صاحب (طرائق الحقائق) : كان أمويا وجبريا في الظاهر وباطنيا ودهريا في الباطن وكان مراده من وضع هذا المذهب أن يثير الاضطراب في الإسلام^(٢).

ويقول فيه حبيب الله الخوئي رحمه الله نقلا عن حديقة الشيعة للمقدس الأردبيلي رحمه الله: وكان غرض هذا الملعون من وضع مذهب التصوف هدم مذهب الإسلام^(٣).

وقد ورد الطعن عليه في الأخبار يقول الشيخ عباس القمي : عن قرب الإسناد للشيخ الأقدم علي بن بابويه القمي عن سعد بن عبد الله عن محمد بن عبد الجبار عن أبي محمد الحسن العسكري رحمه الله أنه قال : سئل أبو عبد الله ، يعني جعفر الصادق رحمه الله عن حال أبي هاشم الكوفي فقال رحمه الله : إنه كان فاسد

(١) تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ٢٠١.

(٢) طرائق الحقائق، ج ١، ص ١٠١.

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ١٤٠.

العقيدة جدا وهو الذي ابتدع مذهباً يقال له التصوف وجعله مفراً لعقيدته الخبيثة ، ورواه بسند آخر عنه عليه السلام وفيه : وجعله مفراً لنفسه الخبيثة وأكثر الملاحدة وجنة لعقائدهم الباطلة^(١).

سفيان الثوري

إن سفيان الثوري (ت: ١٥٥هـ) كان تلميذ أبي هاشم الكوفي وقد نقل عبد الرحمن الجامي قول الثوري فيه : ما علمت معنى الصوفي حتى رأيت أبا هاشم الصوفي^(٢).

وأيضاً قال الثوري فيه : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء^(٣).

وكان سفيان الثوري يفضل الشيخين على أمير المؤمنين عليه السلام كما روى ابن جرير الطبري قول أبي نعيم فيه : كان سفيان الثوري، يقدم الشيخين ، فقال له الرجل : جزاك الله عن السنة خيراً ومضى ، فقال أبو نعيم : أنظروا إلى هذا ابن الرعاء والله ليوم من علي أكثر من ملا الأرض مثلها وأنه لمولاهما^(٤).

^(١) سفينة البحار، ج ٥، ص ١٩٨.

^(٢) نفحات الأنس، ص ٦٧.

^(٣) نفحات الأنس، ص ٦٦.

^(٤) المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، ص ٢٨٥.

وما كان يرتضي أن يزيد حب أمير المؤمنين عليه السلام على حب الشيخين كما روي عن المسيب بن واضح ، قال سمعت عبد الوهاب الحلبي يقول سألت سفيان الثوري ونحن نطوف بالبית عن الرجل يحب أبا بكر و عمر ، إلا أنه يجد لعلي من الحب ما لا يجد لهما ، قال : هذا رجل به داء ينبغي أن يسقى دواء^(١).

وروى حديثا في فضل عمر بن العاص كما رواه أبو نعيم : حدثنا سفيان الثوري عن إسحاق بن يحيى ابن طلحة ، عن عمه موسى بن طلحة عن طلحة بن عبد الله أنه سمعه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في عمر بن العاص (إنه لرشيد)^(٢).

ويقول ابن جرير الطبري رحمه الله في سفيان الثوري : كان في شرطة هشام بن عبد الملك وهو ممن شهد قتل زيد بن علي عليه السلام فلا يخلو من أن يكون ممن قتله أو خذله^(٣).

وقال العلامة المجلسي رحمه الله : الكذابون المتصنعون الذين كانوا في أعصار الأئمة عليهم السلام وكانوا يصدون الناس عن الرجوع إليهم كالحسن البصري وسفيان الثوري وأبي حنيفة وأضرابهم^(٤).

(١) حلية الأولياء، ٧، ص ٢٢.

(٢) حلية الأولياء، ج ٧، ص ٩١.

(٣) المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، ص ١٨٤.

(٤) مرآة العقول، ج ١٠، ص ١١٩.

والعلامة الحلبي رحمه الله يقول فيه : سفيان الثوري : ليس من أصحابنا^(١).

ويقول ابن تيمية في الثوري : إن المعروف في العراق أن الجهر بالبسملة كان من شعار الرافضة وأن القنوت في الفجر كان من شعار القدرية حتى إن سفيان الثوري وغيره من الأئمة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة لأنه كان عندهم من شعار الرافضة^(٢).

والثوري له جرأة وتطاول على الإمام الصادق عليه السلام - مما يؤيد كونه من العامة مضافا للشواهد التي تقدمت - روي في ذلك عدة روايات أذكر شطرا منها :

دخل سفيان الثوري على الإمام الصادق عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنها غرقى البيض^(٣) فقال له : إن هذا اللباس ليس من لباسك ، فقال له : اسمع مني وع ما أقول لك فإنه خير لك عاجلا وآجلا إن أنت مت على السنة والحق ولم تمت على بدعة أخبرك أن رسول الله ﷺ كان في زمان مقفر جذب فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها بها أبرارها لا فجارها ومؤمنوها لا منافقوها ومسلموها لا كفارها فما أنكرت يا ثوري فوالله إنني لمع ما ترى ما أتى علي

(١) خلاصة الأقوال، ج١، ص٤٦٨ وأيضاً التستري في قاموس الرجال ج ٥، ص١٤٣.

(٢) منهاج السنة، ج٤، ص١٥١.

(٣) الغرقى : قشر البيض الذي تحت القيص . لسان العرب، ج١، ص١١٩. والمراد هو توصيف الثياب البيضاء الرقيقة.

مذ عقلت صباح ولا مساء والله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعاً إلا ووضعت^(١).

ومر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أبا عبد الله عليه السلام وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان فقال : والله لآتينه ولأوبخنه فدنا منه ، فقال : يا ابن رسول الله ما لبس رسول الله صلى الله عليه وآله مثل هذا اللباس ولا علي عليه السلام ولا أحد من آبائك فقال له أبو عبد الله عليه السلام : كان رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتره واقتداره وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٢) ونحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله غير أني يا ثوري ما ترى علي من ثوب إنما ألبسه للناس ثم اجتذب يد سفيان فجرها إليه ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا فقال : هذا ألبسه لنفسي وما رأيته للناس ، ثم جذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل ذلك ثوب لين فقال : لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسرها^(٣).

وعن عبد الحميد بن سعيد : دخل سفيان الثوري على الإمام الصادق عليه السلام : فقال أصلحك الله بلغني أنك صنعت أشياء خالفت فيها النبي صلى الله عليه وآله قال وما هي قال بلغني أنك أحرمت من الجحفة وأحرم رسول الله صلى الله عليه وآله من الشجرة وبلغني

(١) الكافي، ج ٥، ص ٦٥.

(٢) سورة الأعراف : ٣٢ .

(٣) الكافي، ج ٦، ص ٤٤٣.

انك لم تستلم الحجر في طواف الفريضة وقد استلمه رسول الله ﷺ وبلغني أنك تركت المنحر ونحرت في دارك قال قد فعلت . قال فقال وما دعاك إلى ذلك قال فقال إن رسول الله ﷺ وقت الجحفة للمريض والضعيف فكنت قريب العهد بالمرض فأحببت أن اخذ برخص الله وأما استلام الحجر فكان رسول الله ﷺ يفرج له وأنا لا يفرج لي وأما تركي المنحر ونحري في داري فإن رسول الله ﷺ قال مكة كلها منحر فحيث نحرت أجزأك^(١).

ومن أقوال سفيان الثوري : عليكم بدين العجائز^(٢).

إن كل ما تقدم كان في سيرة أوائل الصوفية واثبات أنهم من العامة من خلال عدة شواهد ، فإذا ثبت أنهم من العامة يتضح أن التصوف نشأ في أوساط العامة ولا محيص أن نقول إنه عامي المنشأ .

ومضافا إلى ذلك توجد روايات عن الأئمة عليهم السلام تدل على أن أصل التصوف نشأ عند العامة كالحديث الذي يشير إلى أن أبا هاشم الكوفي هو الذي أنشأ التصوف - وعليه يكون أصله كان فيهم بعد ما ثبت أن أبا هاشم من العامة كما تقدم سابقا - فقد روى المحدث النوري رحمته الله في أبي هاشم بالأسانيد عن أبي جعفر الصدوق محمد ، عن والده أبي الحسن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه ، عن سعد بن عبد الله ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن الإمام الحسن

(١) الأصول الستة عشر، ص ١٦٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٣٦.

العسكري عليه السلام أنه قال : سئل أبو عبد الله - يعني جعفر الصادق عليه السلام - عن حال أبي هاشم الكوفي فقال عليه السلام : إنه كان فاسد العقيدة جدا ، وهو الذي ابتدع مذهبا يقال له : التصوف ، وجعله مفرا لعقيدته الخبيثة . ورواه بسند آخر عنه عليه السلام ، وفيه : وجعله مفرا لنفسه الخبيثة ، وأكثر الملاحدة ، وجنة لعقائدهم الباطلة^(١).

وأیضا كالحديث الذي يدل بدلالة واضحة وصريحة على أن أصل الصوفية هم من المخالفين إذ ورد فيه (والصوفية كلهم من مخالفينا) وإليك الخبر كاملا : نقل الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب أنه قال : كنت مع الهادي علي بن محمد عليه السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وآله فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري كان رجلا بليغا وكانت له منزلة عنده عليه السلام ثم دخل المسجد جماعة من الصوفية وجلسوا في ناحية مستديرا وأخذوا بالتهليل فقال عليه السلام لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخداعين فإنهم خلفاء الشيطان ومخربوا قواعد الدين يتزهدون لراحة الأجسام ويتهجدون لصيد الأنعام يتجوعون عمرا حتى يدينخوا للإيكاف حمرا^(٢) لا يهللون إلا لغرور الناس ولا

(١) خاتمة المستدرک، ج ٣ ص ٢٨٥ نقلا عن حديقة الشيعة.

(٢) داخ يديخ دینجا وديخه هو : ذلله . لسان العرب، ج ٣، ص ١٦.

الإكاف والأكاف من المراكب شبه الرحال والأفتاب وزعم يعقوب أن همزته بدل من واو وكاف ووكاف والجمع أكفة وأكف كإزار وآزرة وأزر غيره أكاف الحمار وإكافه ووكافه ووكافه والجمع أكف وقيل في جمعه وكف وأنشد في الأكاف لراجز إن لنا أحمرة عجافا

يقللون الغذاء إلا لملأ العساس^(١) واختلاس قلوب الدفناس^(٢) ، يكلمون الناس باملائهم في الحب ويطرحون بإذلالهم في الجب^(٣) أو رادهم الرقص والتصدية^(٤) ، وأذكارهم الترنم والتغنية فلا يتبعهم إلا السفهاء ولا يعتقدهم إلا الحمقى فمن ذهب إلى زيارة أحدهم حيا وميتا فكأنما ذهب إلى زيارة الشيطان وعبادة الأوثان^(٥) ومن أعان أحدا منهم فكأنما أعان يزيد ومعاوية وأبا سفيان فقال له رجل من أصحابه وإن كان معترفا بحقوقكم ؟ قال فنظر إليه شبه

يأكلن كل ليلة أكافا أي يأكلن ثمن أكاف أي يباع أكاف ويُطعمه بثمنه ومثله نطعمها إذا شئت أولادها أي ثمن أولادها ومنه المثل تجوع الحرة ولا تأكل ثديها أي أجرة ثديها وآكف الدابة وضع عليها الإكاف كأوكفها أي شد عليها الإكاف . لسان العرب، ج٩، ص٨ . ويقول أبو الفيض الزبيدي : الإكاف . قال شيخنا : ظاهره أن الإكاف يكون للإبل ويأتي له في أكف أنه خاص بالحمر وهو الذي في أكثر الدواوين كما سيأتي هناك وبالتحريك أكثر في الاستعمال . وفي النهاية في حديث عائشة لا تمنع المرأة نفسها من زوجها وإن كانت على ظهر قتب . القتب للجمل كالإكاف لغيره . ومعناه الحث لهن على مطاوعة أزواجهن وأنه لا يسعهن الامتناع في هذه الحال فكيف في غيرها . وقيل : إن نساء العرب كن إذا أردن الولادة جلسن على قتب ويقلن إنه أسلس لخروج الولد فأرادت تلك الحالة . قال أبو عبيد : كنا نرى أن المعنى : وهي تسير على ظهر البعير فجاء التفسير بعد ذلك القتب للبعير كما في المصباح والمحكم . والإكاف للحمير . وفي الخلاصة أنه عام في الحمير والبغال والإبل . تاج العروس، ج٢، ص٣٠٣ .

(١) العَس : القدح الضخم . العين، ج١، ص٧٤ .

(٢) الدَفْنَس : الأحمق الدنيء وفي بعض الأصول : البذي كالدفناس . تاج العروس، ج٨، ص٢٨٨ .

(٣) كناية عن إيقاعهم في الضلال .

(٤) التصدية : التصفيق والصوت . لسان العرب، ج٣، ص٢٤٥ .

(٥) الوثن : الصنم ، والجمع وثن . الصحاح في اللغة، ج٦، ص٢٢١٢ .

المنغضب وقال دع ذا عنك من اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا أما تدري أنهم أخس طوائف الصوفية والصوفية كلهم مخالفونا وطريقتهم مغايرة لطريقتنا وإن هم إلا نصارى أو مجوس هذه الأمة أولئك الذين يجهدون في إطفاء نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون^(١).

كما أن صوفية العامة يقرون أن أصل التصوف نشأ فيهم ولذا يقول القشيري في رسالته المشهورة : انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة^(٢).

^(١) (الاثنا عشرية، ص ٣٧، نقلا عن حديقة الشيعة.

^(٢) (الرسالة القشيرية، ص ١٧.

نسبة التصوف إلى التشيع

إن الذين يرون أصل التصوف يعود إلى التشيع يمكن تصنيفهم إلى صنفين رئيسيين :

الأول : هم صوفية الشيعة والمتأثرون بهم من الشيعة ينسبون جذور التصوف إلى التشيع إضفاءً للشرعية عليه ، وتخفيفاً لوطأة النقد عليهم من الشيعة ، كما ذهب لذلك حيدر الآملي في كتابه (نص النصوص) الذي تقدم الكلام فيه سابقاً^(١) ، والسيد محمد حسين الطهراني في كتبه ، وغيرهما ممن ينتهجون المنهج الصوفي ، الذي تجسد في فكر ابن عربي من بعد عصره ، كما أن صوفية العامة ينسبون أصل التصوف إليهم وينفون أصوله عن الشيعة ؛ كما تقدم قول القشيري : انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة^(٢).

الثاني : هم أعداء التشيع من المؤلفين والباحثين وتجدهم في كتبهم يجترون الشواهد اجترار العمى ، وكأنهم لا يبصرون حينما يستدلون ويستشهدون على زعمهم ، وقد تأثر قسم منهم بآبن تيمية الذي نسب التصوف إلى التشيع بقوله : إن أول من عُرف بالصوفي هو أبو هاشم الشيعي الكوفي (ت: ١٥٠هـ) بالشام

(١) انظر كلام السيد حيدر الآملي الذي مطلعته (اعلم أنه قد صح وثبت بحكم النقل عند مشايخ الصوفية والخواص من أهل الله ...) تحت عنوان : (الحسن البصري) .

(٢) الرسالة القشيرية، ص ١٧.

بعد أن انتقل إليها ، وكان معاصرا لسفيان الثوري (ت: ١٥٥هـ). وكان معاصرا لجعفر الصادق وينسب إلى الشيعة الأوائل ، ويسميه الشيعة مخترع الصوفية^(١).

وبعضهم نسب إلى ابن تيمية تكملةً لكلامه المتقدم في أبي هاشم : وهو الذي بنى زاوية في مدينة الرملة بفلسطين وكان أبو هاشم حلوليا دهريا يقول بالحلول والاتحاد .

وقد تقدم الكلام في أبي هاشم وثبت أنه من المخالفين ووجوده في الكوفة لا يدل على تشيعه ، بل يمكن القول إن شدة خلافه للتشيع أضطره للخروج من الكوفة إلى الشام حتى توفي فيها ، مضافا إلى ذلك لم يكن هو أول الصوفية وإنما تقدم على زمانه الحسن البصري ومالك بن دينار وفرقد السبخي .

وبعضهم نسب التصوف إلى التشيع اشتباها ، وسبب اللبس الذي حصل لديهم يعود إلى أربعة أسباب أساسية :

السبب الأول : من انساق وصدق مزاعم الصوفية التي تقول إن أصل طريقة التصوف ترجع إلى أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام كما ذكر ذلك في بعض مصادر وطبقات الصوفية الأساسية ، وهذه هي طريقة المبتدعين ينسبون طرقهم ومختلقاتهم إلى ركن وثيق ليطمئن إليهم .

السبب الثاني : قد اشتبه بعضهم في أول من سمي صوفيا ، وقالوا أول من سمي هو جابر بن حيان ولكونه شيعيا نسبوا التصوف للتشيع ، مع أن المدار

(١) الموسوعة الصوفية، ص ١٤.

لم يكن على أول من سمي بهذه التسمية ، وإنما على من بدأ باعتقاد التصوف وإذاعته ، وقد تقدم أن أول من بدأ بإظهار أفكاره - والتي ينعتها ابن عربي بالأسرار - هو الحسن البصري الذي تقدم زمانا على جابر بن حيان ، وأيضا تقدم في خبر الإمام الصادق عليه السلام المروي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن أبا هاشم هو الذي ابتدع التصوف وكما جاء في نص الخبر المتقدم الذكر في أبي هاشم : (وهو الذي ابتدع مذهباً يقال له التصوف) وهذا أبو هاشم أيضا متقدما زمانا على جابر بن حيان ؛ فلا يعبأ بأول من سمي صوفيا ونسبت التصوف إليه ، هذا فيما قبلنا أن أول من سمي بهذه التسمية هو جابر بن حيان، ولا يمكن القبول بذلك بعد ظهور هذه التسمية في الأحاديث منذ زمن أبي هاشم الكوفي وقول الإمام فيه (ابتدع مذهباً يقال له التصوف).

السبب الثالث : إن بعض من اشتبه ونسب أصل التصوف للشيعة لأنه لحظ الصوفية المتأخرين الذين لم يثبت تشيعهم بالمعنى الأعم ، مثل سفيان الثوري الذي يراه بعضهم من فرق الزيدية ، وبعضهم يراه من العامة ، وهذا القول الثاني هو الصحيح لما تقدم من الاستدلال عليه ، وحتى لو ثبت أن سفيان من الزيدية لم يكن هو من الصوفية الأوائل ، وإنما كان تلميذا عند أبي هاشم الكوفي وسبقه في التصوف الحسن البصري ومالك بن دينار وفرقد السبخي.

السبب الرابع : ذهب بعض المستشرقين الباحثين في التصوف الإسلامي إلى أن أول من سمي بالصوفي هو عبد الكريم المعروف بـ (عبدك الصوفي) ولكونه نسب عبد الكريم إلى التشيع قلدوا هذا المستشرق في قوله ، وقالوا : إن أصل

التصوف كان شيعيا ! في حين إن هذا عبد الكريم (ت:٢١٠) لم يكن من أوائل الصوفية الذين جذروا للتصوف كالحسن البصري وغيره ممن تقدم ذكره ، فلا تصل النوبة على كونه من الشيعة أو من المخالفين حيث لم يكن مدار التصوف على المتأخرين من الصوفية.

مراحل دخول التصوف إلى التشيع

إن مراحل دخول التصوف إلى التشيع - ويمكن التعبير عنها مراحل دخول العرفان الصوفي العامي إلى التشيع فلا فرق - تنقسم إلى مرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى : هي مرحلة النواة والجذور الأساسية وقد كانت على يد الحسين بن منصور الحلاج (ت: ٣٠٩هـ) وتلامذته.

المرحلة الثانية : وهي مرحلة الازدهار والنضوج للتصوف في العالم الشيعي ، وقد تجسدت في مكابدة ومحاولة السيد حيدر الآملي الذي هو من أعلام القرن الثامن الهجري ، ومن بعده جاء ملا صدرا في القرن الحادي عشر الهجري وسعى لإكمال ومواصلة خطى الآملي ، ولكن كل منهما وإن كان ضمن دائرة أتباع أهل البيت عليه السلام إلا أنهما لم يأتيا بشيء جديد على ما جاء به وأصل له ابن عربي ، وهذا أمر واضح في أوساط العرفان الشيعي ، وقد ذكرت كلام أكابر هذا الاتجاه التي تدل على ذلك تحت عنوان : (كل ما لدى ملا صدرا من محيي الدين) .

ولا يخفى أيضا أن كل المتأثرين بالعرفان الصوفي في العالم الشيعي أصبح تبعا لهؤلاء الثلاثة أقصد ابن عربي وحيدر الآملي وملا صدرا.

الحلاج

إن المرحلة الأولى في دخول التصوف إلى التشيع كانت بسبب الحسين بن منصور الحلاج (ت: ٣٠٩هـ) وقبل بيان السبب في ذلك وكيفيته لنعرف معنى الحلاج لغة وسبب التسمية به :

يقول ابن منظور : قطن حليج مندوف مستخرج الحب وصانع ذلك الحلاج وحرفته الحلاجة. لسان العرب

وسبب تسمية الحسين بن منصور بالحلاج فيها ثلاثة أقول :

القول الأول : لأنه دخل واسط فتقدم إلى حلاج وبعثه في شغل له ، فقال له الحلاج أنا مشغول بصنعتي ، فقال : أذهب أنت في شغلي حتى أعينك في شغلك، فذهب الرجل فلما رجع وجد كل قطن في حانوته محلوجا ، فسمي بذلك الحلاج . والجامي (ت: ٨٩٨هـ) في نفحات الأنس رجح هذا القول.

القول الثاني : إنه كان يتكلم في ابتداء أمره قبل أن ينسب إلى ما نسب إليه على الأسرار، ويكشف عن أسرار المريدين ويخبر عنها فسمي بذلك حلاج الأسرار فغلب عليه اسم الحلاج . وهذا القول ينسجم مع مبتنيات أصحابه والمتأثرين به ممن كان في نظرهم محل مدح وثناء.

القول الثالث : إن أباه كان حلاجاً فنسب إليه.

وقد كان الحلاج من العامة إذ يشهد بذلك قوله : ظهري حمى ودمي حرام وما يحل لكم أن تتأولوا علي بما يبيحه ، واعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة، والزبير ، وسعد ، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبي عبيدة بن الجراح، ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين ، فالله الله في دمي^(١).

ويقول الشيخ المفيد رحمه الله في الحلاج : كان الحلاج يتخصص بإظهار التشيع^(٢).

مما يعني أنه لم يكن شيعيا وإنما يتظاهر بالتشيع .

هذا في إثبات كونه من العامة أما ما يدل على كونه من الصوفية فيدل عليه عدة أمور ، وإن كان الحلاج أمره واضح وظاهر في التصوف ، ولا ضير في الإشارة إلى تصوفه وإثبات ذلك من خلال أمور :

الأمر الأول : كتب التراجم والطبقات تشير إلى تصوفه :

يقول ابن النديم : قرأت بخط أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر الحسين بن منصور الحلاج وكان رجلا محتالا مشعبذا يتعاطى مذاهب الصوفية يتحلى ألفاظهم ويدعي كل علم وكان صفرا من ذلك^(٣).

(١) الطواسين، ص ٢٥١. تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٣٣.

(٢) تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ١٣٤.

(٣) الفهرست، ص ٢٤١.

وعده الهجويري (ت: ٤٦٥هـ) من الصوفية فيقول : ومنهم المستغرق في المعنى،
 والمستهلك في الدعوى ، أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج كان من
 الغارقين في حقائق التصوف له وجد شديد وروحانية عالية . وقد اختلف
 أقوال المشايخ فيه : فالبعض يرفضونه ، والبعض يقبلونه ، فمن بين القسم
 الأول عمرو بن عثمان المكي وأبو يعقوب النهرجوري ، وأبو يعقوب الأقطع ،
 وعلي بن سهل الأصفهاني وآخرون . وقد قبله ابن عطاء ، ومحمد بن خفيف ،
 وأبو القاسم النصرآبادي وكثير من أهل العصر . وآخرون قد توقفوا في الحكم
 عليه ، مثل : الجنيد والشلبي والجريري والحصري . والبعض يتهمة بالسحر
 وما يتعلق به . وفي أيامنا هذه يجله الشيخ الأكبر أبو سعيد بن أبي الخير ،
 والشيخ أبو القاسم الجرجاني ، وأبو العباس الشقاني ، وينظرون إليه
 بالإكبار^(١).

ويقول الذهبي : الحلاج هو الحسين بن منصور بن محمي أبو عبد الله ، ويقال
 أبو مغيث الفارسي البضاوي الصوفي^(٢).

وعده الجامي ضمن طبقات الصوفية إذ يقول : الحسن بن منصور الحلاج
 البضاوي من الطبقة الثانية^(٣).

(١) كشف المحجوب، ص ١٧٩.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ١٩٤.

(٣) نفحات الأنس، ص ٢٢٥.

وعده الشعراني في الطبقات الكبرى من الصوفية فيقول : ومنهم أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج^(١).

ويقول العلامة النوري رحمته الله : الحسين بن منصور الحلاج الصوفي ، كان جماعة يستشفون ببوله ، وقيل : إنه ادعى الربوبية ، ووجد له كتاب فيه : إذا صام الإنسان ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر وأخذ وريقات هندباء فأفطر عليه أغناه عن صوم رمضان ، ومن صلى في ليلة ركعتين ، من أول الليل إلى الغداة أغنته عن الصلاة بعد ذلك ، ومن تصدق بجميع ما يملك في يوم واحد أغناه عن الحج ، وإذا أتى قبور الشهداء بمقابر قریش ، فأقام فيها عشرة أيام يصلى ويدعو ، ويصوم ولا يفطر إلا على قليل من خبز الشعير والملح ، أغناه ذلك عن العبادة^(٢).

الأمر الثاني : الذي يدل على تصوف الحلاج هو اسم كتابه (موايد العارفين) حيث ذكر ابن النديم ضمن الكتب التي نسبها للحلاج : كتاب موايد العارفين^(٣) إذ إن العارفين من عناوين ومسميات الصوفية .

وأيضاً الكتاب الآخر للحلاج وهو (الطواسين) يدل ما جاء فيه من فقرات وكلمات على تصوفه.

(١) الطبقات الكبرى، ج١، ص١٩٥.

(٢) خاتمة المستدرک، ج١، ص٣٨٤.

(٣) الفهرست، ص٢٤١.

الأمر الثالث : الذي يدل على تصوفه أشعاره ، يقول الخطيب البغدادي : إن للحلاج حسن عبارة ، وحلاوة منطق ، وشعر على طريقة التصوف^(١).

ومن أشعاره التي ذكرها الخطيب :

سبحان من أظهر ناسوته	سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرا	في صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه	كلحظة الحاجب بالحاجب ^(٢)

وديوان الحلاج حافل بأشعاره التي تدل على تصوفه والتي منها :

تفكرتُ في الأديان جداً محققاً	فألفيتها أصلاً له شعب جما
فلا تطلبن للمرء ديناً فإنه	يصد عن الوصل الوثيق وإنما
يطالبه أصل يعبر عنده	جميع المعالي والمعاني فيفهما ^(٣)

وهذه الأبيات واضحة في دلالتها على وحدة الأديان ، التي هي متفرعة عن وحدة الوجود وهي من متبنيات التصوف بلا كلام ولا إشكال.

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٢.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٦.

(٣) ديوان الحلاج، ص ٥٥.

الأمر الرابع : أقواله وكلماته تدل عل تصوفه ، يقول أبو حامد الغزالي : قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال:هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك^(١).

وروى الهجويري (ت:٤٦٥هـ) عن إبراهيم بن فاتك : إن الحسين بن منصور الحلاج أجاب من سأله من الصوفي ؟ قائلا : إنه وحداني الذات^(٢).

ومن أقوال الحلاج التي نقلها الهجويري : (أول قدم في التوحيد فناء التفريد) لأن التفريد هو النطق بأن الواحد انفصل عن الآفات بينما التوحيد هو إثبات وحدة الشيء . لذلك ففي الفردانية يمكن إثبات شيء غيره والوحدانية ربما لا تكون لشيء غيره ، لذلك فالقدم في التوحيد هو إنكار شريك له ونفى المزاج عن المنهاج لأن المزاج في طريق الله هو بحثك عن المنهاج بلا سراج^(٣).

ومن الأمور غير القابلة للتشكيك أن مصطلح الفناء هو من مصطلحات الصوفية.

(١) إحياء علوم الدين، ج١٢، ص٥٦.

(٢) كشف المحجوب، ص ٨٨.

(٣) كشف المحجوب، ص ٣١١.

والقشيري في رسالته عدة من مشايخ الصوفية ، ونقل من كلماته في التصوف حيث يقول : وأما أقاويل المشايخ في الحرية فقال الحسين بن منصور : من أراد الحرية فليصل العبودية^(١).

وذكر القشيري تعريف الحلاج للتصوف : عن عبد الرحمن بن محمد الفارسي يقول : سمعت أبا الفاتك يقول : سمعت الحسين بن منصور وقد سئل عن الصوفي فقال : وحداني الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا^(٢).

وأیضا ذكر تعريف الحلاج للصوفي : وقال : علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة^(٣).

ومن أقول الحلاج التي ذكرها : قال الحسين بن منصور إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله إليه بخواطره وحرس سره أن يسبح فيه غير خاطر الحق^(٤).

^(١) الرسالة القشيرية، ص ٣٢٩.

^(٢) الرسالة القشيرية، ص ٤٠٠.

^(٣) الرسالة القشيرية، ص ٤٤١.

^(٤) الرسالة القشيرية، ص ٤٤١.

سبب دخول التصوف إلى التشيع على يد الحلاج

يعتبر الحلاج أول من جذر للعرفان الصوفي في التشيع ، ويمثل عصره النواة الأولى في دخول التصوف ضمن أتباع أهل البيت عليه السلام ، والسبب في ذلك يكمن في سبعة أمور رئيسية يكمن بيانها وتفصيلها بما يلي :

الأمر الأول : هو تظاهره بالتشيع كما يقول الشيخ المفيد رحمته الله : الحلاجية ضرب من أصحاب التصوف ، وهم أصحاب الإباحة والقول بالحلل ، وكان الحلاج يتخصص بإظهار التشيع وإن كان ظاهر أمره التصوف ، وهم قوم ملحدة وزنادقة^(١) يوهون بمظاهرة كل فرقة بدينهم ويدعون للحلاج الأباطيل ، ويجرون في ذلك مجرى المجوس في دعواهم لزردشت المعجزات ، ومجرى النصارى في دعواهم لرهبانهم الآيات والبيئات^(٢) ، والمجوس والنصارى أقرب إلى العمل بالعبادات منهم وهم أبعد من الشرائع والعمل بها من النصارى والمجوس^(٣).

(١) يقول الهجویری (ت: ٤٦٥هـ) : قد رأيت في بغداد وحواليها كثيرا من أهل الزندقة يدعون الانتساب للحلاج ، ويجعلون أقواله دليلا على زندقته ، ويسمون أنفسهم الحلاجية. كشف المحجوب، ص ١٨١.

(٢) وهذا يعني أن الشيخ المفيد رحمته الله يرى أصول التصوف من المجوس والنصارى وقوله : (يجرون في ذلك مجرى المجوس في دعواهم لزردشت المعجزات ، ومجرى النصارى في دعواهم لرهبانهم الآيات والبيئات) واضح الدلالة في ذلك .

(٣) تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ١٣٤.

موضع الشاهد هو قوله ﷺ : (وكان الحلاج يتخصص بإظهار التشيع)

ويقول ابن النديم عن الحلاج : يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة^(١).

وقد كان لتظاهره بالتشيع الدور الكبير الذي جعله ينفذ إلى أتباع أهل البيت ﷺ وينشر عقائده ضمن أوساطهم مما جعله يستقطب عددا منهم ؛ ولذا كان له عدد من الأتباع والمريدين ، وجعل له الوقع الكبير في ضرب أوتاد التصوف بالتشيع ، وتأثرت به جماعة أشد التأثير حتى إنهم أخذوا يستشفون في بوله ، يقول ابن الطقطقي (ت: ٧٠٩هـ) : فشغف الناس به وتكلم بكلام الصوفية ، وكان يخالطه بما لا يجوز ذكره من الحلول المحض ، وكثر شغف الناس به حتى كانت العامة تستشفي ببوله^(٢) ، وكان يقول لأصحابه أنتم موسى وعيسى ومحمد وآدم انتقلت أرواحهم إليكم^(٣).

وبعد أن كثر أتباعه وأصبحوا يعرفون (بالحلاجية) استدعى هذا الأمر الشيخ المفيد رحمه الله أن يصنف كتاباً في الرد على الحلاج وأصحابه ، ذكره النجاشي رحمه الله في

(١) الفهرست، ص ٢٤١.

(٢) في بعض نسخ (الفخري في الآداب السلطانية) حذفت عبارة : (كانت العامة تستشفي ببوله) .

(٣) الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٥٥.

رجاله عند تعداد مصنفات الشيخ المفيد رحمته الله حيث يقول : كتاب الرد على أصحاب الحلاج^(١).

وأيضاً الشيخ الصدوق رحمته الله طعن على الحلاجية وبين عقائدهم الباطلة فيقول : علامة الحلاجية من الغلاة دعوى التجلي بالعبادة مع تدينهم بترك الصلاة وجميع الفرائض ، ودعوى المعرفة بأسماء الله العظمى ، ودعوى إتباع الجن لهم ، وأن الولي إذا خلص وعرف مذهبهم فهو عندهم أفضل من الأنبياء عليهم السلام ومن علاماتهم أيضاً دعوى علم الكيمياء ولا يعلمون منه إلا الدغل وتنفيق^(٢) الشبه والرصاص على المسلمين^(٣).

والشيخ الطوسي رحمته الله ذكره في عداد المذمومين والملعونين في باب (ذكر المذمومين الذين ادعوا النيابة والسفارة كذبا وافتراءً) فيقول رحمته الله : ومنهم الحسين بن منصور الحلاج . أخبرنا الحسين بن إبراهيم عن أبي العباس أحمد بن علي بن نوح عن أبي نصر هبة الله بن محمد الكاتب ابن بنت أم كلثوم بنت أبي جعفر العمري قال : لما أراد الله تعالى أن يكشف أمر الحلاج ويظهر فضيحته ويخزيه وقع له أن أبا سهل إسماعيل بن علي النوبختي رحمته الله ممن تجوز عليه مخرقته^(٤) وتتم عليه حيلته ، فوجه إليه يستدعيه وظن أن أبا سهل كغيره من الضعفاء في

(١) رجال النجاشي، ص ٤٠١.

(٢) أي غش المسلمين وبيع الأمور المغشوشة عليهم .

(٣) الاعتقادات، ص ١٠١.

(٤) أي تنطلي عليه حيلته .

هذا الأمر بفرط جهله ، وقدر أن يستجره إليه فيتمخرق ويتسوف بانقياده على غيره فيستتب له ما قصد إليه من الحيلة والبهرجة على الضعفة لقدر أبي سهل في أنفس الناس ومحله من العلم والأدب أيضا عندهم ويقول له في مراسلته إياه: إني وكيل صاحب الزمان عليه السلام وبهذا أولا كان يستجر الجاهل ثم يعلو منه إلى غيره وقد أمرت بمراسلتك وإظهار ما تريده من النصرة لك لتقوي نفسك ولا ترتاب بهذا الأمر . فأرسل إليه أبو سهل عليه السلام يقول له :

إني أسألك أمرا يسيرا يخف مثله عليك في جنب ما ظهر على يدك من الدلائل والبراهين ، وهو أنني رجل أحب الجواري وأصبو إليهن ولي منهن عدة أتحظاهن والشيب يبعدي عنهن وأحتاج أن أخضبه في كل جمعة وأتحمل منه مشقة شديدة لأستر عنهن ذلك ، وإلا انكشف أمري عندهن فصار القرب بعدا والوصال هجرا ، وأريد أن تغنيني عن الخضاب وتكفيني مؤنته وتجعل لحيتي سوداء فإني طوع يدك وصائر إليك وقائل بقولك وداع إلى مذهبك مع ما لي في ذلك من البصيرة ولك من المعونة . فلما سمع ذلك الحلاج من قوله وجوابه علم أنه قد أخطأ في مراسلته وجهل في الخروج إليه بمذهبه وأمسك عنه ولم يرد إليه جوابا ، ولم يرسل إليه رسولا وصيره أبو سهل عليه السلام أحدوثة وضحكة ويطنز^(١) به عند كل أحد وشهر أمره عند الصغير والكبير وكان هذا الفعل سببا لكشف أمره وتنفير الجماعة عنه^(٢) .

(١) طنز يطنز طنزا : كلمه باستهزاء. لسان العرب، ج ٥، ص ٣٦٩.

(٢) الغيبة، ص ٤٠١.

ويقول الشيخ الطوسي رحمته الله : أخبرني جماعة عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه أن ابن الحلاج صار إلى قم وكاتب قرابة أبي الحسن (هو علي بن الحسين بن بابويه والد الصدوق) يستدعيه ويستدعي أبا الحسن أيضا ويقول : أنا رسول الإمام ووكيله ، قال : فلما وقعت المكاتبة في يد أبي رضي الله عنه خرقها وقال لموصلها إليه : ما أفرغك للجبهالات؟! فقال له الرجل - وأظن أنه قال : إنه ابن عمته أو ابن عمه - فإن الرجل قد استدعانا فلم خرقت مكاتبتة وضحكوا منه وهزئوا به ثم نهض إلى دكانه ومعه جماعة من أصحابه وغلمانهم . قال : فلما دخل إلى الدار التي كان فيها دكانه نهض له من كان هناك جالسا غير رجل رآه جالسا في الموضع فلم ينهض له ولم يعرفه أبي فلما جلس وأخرج حسابه ودواته كما يكون التجار أقبل على بعض من كان حاضرا فسأله عنه فأخبره فسمعه الرجل يسأل عنه فأقبل عليه وقال له : تسأل عني وأنا حاضر؟ فقال له أبي : أكبرتك أيها الرجل وأعظمت قدرك أن أسألك ، فقال له : تخرق رقعتي وأنا أشاهدك تخرقها؟ فقال له أبي : فأنت الرجل إذن . ثم قال : يا غلام برجله وبقفاه ، فخرج من الدار العدو لله ولرسوله ، ثم قال له : أتدعي المعجزات عليك لعنة الله ، أو كما قال فأخرج بقفاه فما رأيناه بعدها بقم^(١).

والشيخ الطبرسي رحمته الله روى توقيع صاحب الأمر عليه السلام في لعنه والبراءة منه حيث يقول : أبو طاهر محمد بن علي بن بلال والحسين بن منصور الحلاج ومحمد بن

(١) الغيبة، ص ٤٠١ .

علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقي لعنهم الله فخرج التوقيع بلعنهم والبراءة منهم جميعا على يد الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح^(١).

أي أن التوقيع المبارك صدر عن طريق السفير الثالث رضوان الله عليه.

الأمر الثاني : مما أسعف ودعم الحلاج في أن يفشي تصوفه بالتشيع أنه كانت لديه مصنفات كثيرة تربو عن ثلاثين مصنفا عدها ابن النديم في الفهرست ، وفي عداد ما عده : (طاسين الأزل) (الجوهر الأكبر) (الأزلية) (الأسماء الكلية) (الأبد والمأبود) (سر العالم) (كيد الشيطان وأمر السلطان) (سر العالم والمبعوث) (السياسة والخلفاء والأمراء) (علم البقاء والفناء) (نور النور) (المتجليات) (الهياكل) (موايد العارفين) (خلق خلائق القرآن) (الكيفية والحقيقة)^(٢).

ويقول الهجويري (ت: ٤٦٥هـ) : والحلاج صاحب تأليف باهرة ، وأقوال مهذبة وعبارات رمزية في الأصول والفروع . رأيت خمسين تصنيفا له في بغداد ونواحيها ، ورأيت بعضها في خوزستان وفارس وخراسان^(٣).

وهذه المصنفات الكثيرة كان لها دور كبير في اختراق التشيع ، وإيجاد جماعة موالية له فيهم ، بل كان لها الدور الجسيم في نشر عقائده بصورة خاصة والتصوف بصورة عامة.

(١) الاحتجاج ج ٢ ص ٢٩٠.

(٢) الفهرست، ص ٣٨.

(٣) كشف المحجوب، ص ١٨٠.

الأمر الثالث : الذي جعل الحلاج يدخل التصوف للتشيع أن له تلاميذ ينشرون أفكاره وعقائده الباطلة مما ساعد في انتشار دعواه ، يقول السيد الأمين رحمه الله عن الحلاج : له عدة تلاميذ في الكلام والأدب نشروا عقائده وآراءه بعده بين الإمامية وطلبة العلم والأدب المذكور في كتب التاريخ والأدب أسماء ستة منهم :

١ - ولده علي بن إسماعيل .

٢ - أبو الحسين علي بن عبد الله بن وصيف الناشي الأصغر المتكلم الشاعر المعروف كان في الكلام تلميذ أبي سهل إسماعيل النوبختي أقول ونص عليه ابن خلكان كما مر .

٣ - أبو الجيش المظفر بن محمد بن أحمد البلخي .

الأمر الرابع : إن الحلاج له أعوان وأتباع يثون دعواه ويستغنون عامة الناس بأساليب الخدع والاحتيايل ، روى الخطيب البغدادي عن زنجي الكاتب : حضرت مجلس حامد وقد أحضر سبط خياز لطيف حمل من دار محمد بن علي القنائي أكبر ظني ، فتقدم بفتحه ففتح فإذا فيه قدر جافة خضر وقوارير فيها شيء يشبه لون الزئبق وكسر خبز جافة وكان السمرى حاضرا جالسا بالقرب من أبي فعجب من تلك القدر وتصيرها في سبط مختوم ومن تلك القوارير ، وعندنا أنها أدهان ومن كسر الخبز وسأل أبي السمرى عن ذلك فدافعه عن الجواب واستعفاه منه وألح عليه في السؤال فعرفه أن تلك القدر

رجيع الحلاج ، وأنه يستشفى به وأن الذي في القوارير بوله ، فعرف حامد ما قاله فعجب منه وعجب من كان في المجلس ، واتصل القول في الطعن على الحلاج ، وأقبل أبي يعيد ذكر تلك الكسر ويتعجب منها ، ومن احتفاظهم بها حتى غاظ السمري ذلك فقال له : هو ذا أسمع ما تقول وأرى تعجبك من هذه الكسر وهي بين يديك فكل منها ما شئت ثم انظر كيف يكون قلبك للحلاج بعد أكلك ما تأكله منها ، فتهيب أبي أن يأكلها وتخوف أن يكون فيها سم وأحضر حامد الحلاج وسأله عما كان في السفت وعن احتفاظ أصحابه برجيعة وبوله ؟ فذكر أنه شيء ما علم به ولا عرفه^(١).

وأتباع الحلاج يصدقونه بكل ما يقول ويقنعون من يستدرجونهم بأفكاره إلى درجة الجنون ، حتى إن بعد مقتله لم يصدق مريدوه أنه قد قُتل ، وكانوا ينتظرون رجوعه بعد أربعين يوما ، روى الخطيب البغدادي : وأقبل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوما ، واتفق أن زادت دجلة في تلك السنة زيادة فيها فضل فادعى أصحابه أن ذلك بسببه ، ولأن الرماد خالط الماء ، وزعم بعض أصحاب الحلاج أن المضروب عدو للحلاج ألقى شبهه عليه ، وادعى بعضهم أنهم رأوه في ذلك اليوم بعد الذي عاينوه من أمره والحال الذي جرت عليه وهو راكب حمارا في طريق النهروان ففرحوا به وقال لعلكم مثل هؤلاء البقر الذين ظنوا أنني أنا هو المضروب والمقتول ، وزعم بعضهم أن دابة حولت في صورته وكان نصر الحاجب بعد ذلك يظهر الترتي له ويقول إنه

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٣٢.

مظلوم وإنه رجل من العباد ، وأحضر جماعة من الوراقين وأحلفوا على أن لا يبيعوا شيئاً من كتب الحلاج ولا يشتروها^(١). ١

الأمر الخامس : إن من الأمور التي دعت الحلاج أن ييث دعواه بالتشيع هو تظاهره بمعرفة الأسرار ومعرفة بواطن الأشخاص ، وكثير من الناس من يصدق أمثال هذه الدعاوى وينجذب إليها ، وسرعان ما يكبر مدعيها ويصدقهم بما يدعون ، يقول الخطيب البغدادي متحدثاً عن الحلاج : كان يتكلم على أسرار الناس وما في قلوبهم ويخبر عنها فسمي بذلك حلاج الأسرار، فصار الحلاج لقبه^(٢).

وقد يكون أنه تعلم الدجل والشعوذة في الهند والصين لأنه قصدهما مدة من الزمن كما يقول الخطيب البغدادي : إنه قصد إلى الهند ثم قصد خراسان ثانياً ودخل ما وراء النهر ، وتركستان ، وإلى ماصين ، ودعا الخلق إلى الله تعالى ، وصنف لهم كتباً لم تقع إلي إلا أنه لما رجع كانوا يكاتبونه من الهند ، بالمغيث ، ومن بلاد ماصين وتركستان ، بالمقيت ، ومن خراسان ، بالمميز ، ومن فارس ، بأبي عبد الله الزاهد ، ومن خوزستان ، بالشيخ حلاج الأسرار ، وكان ببغداد قوم يسمونه المصطلم ، وبالبصرة قوم يسمونه المحير.... فكان يقول قوم : إنه ساحر ، وقوم يقولون : مجنون ، وقوم يقولون : له الكرامات^(٣).

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٣٥.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٣.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٣.

بل روى الخطيب خبرا يدل على تصريح الحلاج بتعلمه السحر في الهند : عن أبي الحسن بن أبي توبة يقول سمعت علي بن أحمد الحاسب قال سمعت والدي يقول : وجهني المعتضد إلى الهند لأمر أتعرفها ليقف عليها ، وكان معي في السفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور ، وكان حسن العشرة طيب الصحبة ، فلما خرجنا من المركب ونحن على الساحل والحمالون ينقلون الثياب من المركب إلى الشط فقلت له : أيش جئت إلى هاهنا ؟ قال : جئت لأتعلم السحر ، وأدعو الخلق إلى الله تعالى قال : وكان على الشط كوخ وفيه شيخ كبير فسأله الحسين بن منصور : هل عندكم من يعرف شيئا من السحر؟ قال : فأخرج الشيخ كبة غزل وناول طرفه الحسين بن منصور ثم رمى الكبة في الهواء فصارت طاقة واحدة ثم صعد عليها ونزل ! وقال للحسين بن منصور: مثل هذا تريد ؟ ثم فارقتني ولم أره بعد ذلك إلا ببغداد^(١).

وروى الخطيب خبرا آخر في اعتراف الحلاج بتعلمه السحر في الهند : أخبرنا إسماعيل بن أحمد الحيري قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال : قال المزين رأيت الحسين بن منصور في بعض أسفاره فقلت له : على أين ؟ فقال إلى الهند أتعلم السحر أدعوه به الخلق إلى الله ﷻ^(٢).

وروي عن عبد الرحمن سمعت أبا علي الهمداني يقول سألت إبراهيم بن شيان عن الحلاج فقال : من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوى الفاسدة

^(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٨.

^(٢) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٩.

فليُنظر إلى الحلاج وإلى ما صار إليه ! قال : وقال إبراهيم : ما زالت الدعاوى والمعارضات مشؤومة على أربابها مذ قال إبليس أنا خير منه^(١).

الأمر السادس : ومن الأمور التي دعت إلى ترويج معتقداته وبثها في التشيع هو أشعاره ، لأن عصره من العصور الذي كان الشعر فيه مادة إعلامية لا ترقى إليها أي وسيلة أخرى ، من حيث سرعة تناقله وانتشاره ، ومخاطبة جميع أفراد المجتمع ، لأنه اللغة التي يفهمها جميع أفرادها ، ولم يكن بحاجة إلى شرح وقاموس لبيان مفرداته ومعرفة معانيها ، فكان القناة الإعلامية الأساسية والرئيسة التي يتطلع من خلالها إلى السلوكيات الفردية والاجتماعية والأفكار والمعتقدات . والسبب في ذلك يعود لقلّة وسائل ومصادر المعرفة لديهم ؛ ولذا كان للشعر هذا الدور الأساس والفعال خصوصاً فيما إذا لحظنا ما للشعر من خاصية التأثير العاطفي والنفوذ للنفوس والتفاعل معها ، ومن هنا ذاع صيت الحلاج وانتشرت عقائده الفاسدة في أشعاره فجالت البلدان وطافت الأقطار.

وللحلاج أشعر كثيرة جُمع أغلبها في ديوانه ومن ضمنها تلك الأشعار التي جسدت فكرة وحدة الأديان التي يقول فيها :

تفكرتُ في الأديان جداً محققاً	فألفيتها أصلاً له شعب جما
فلا تطلبين للمرء ديناً فإنه	يصد عن الوصل الوثيق وإنما

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٩.

يطالبه أصل يعبر عنده جميع المعالي والمعاني فيفهما^(١)

والخطيب البغدادي في تاريخه^(٢) ذكر بعض أشعاره لا بأس بنقل شطرا منها :

جبلت روحك في روحي كما يجبل العنبر بالمسك التثاق
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا لا نفترق

ومنها :

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال

ومنها :

قد تحققتك في سري فخاطبك لساني فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ العيان فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دان

^(١) ديوان الحلاج، ص ٥٥.

^(٢) انظر تاريخ، بغداد، ج ٨، ص ١١٤ وما بعدها .

ومنها :

دلال يا محمد مستعار	دلال بعد أن شاب العذار
ملكك وحرمة الخلوات قلبا	لعبت به وقر به القرار
فلا عين يؤرقها اشتياق	ولا قلب يقلقله اذكار
نزلت بمنزل الأعداء مني	وبنت فما تزور ولا تزار
كما ذهب الحمار بأم عمرو	فما رجعت ولا رجع الحمار

ومنها :

أريدك لا أريدك للشواب	ولكنني أريدك للعقاب
وكل ما ربي قد نلت منها	سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

وعن القناد قال أنشدني الحسين بن منصور الحلاج :

متى سهرت عيني لغيرك أو بكت	فلا أعطيت ما منيت وتمنت
وإن أضمرت نفسي سواك فلا رعت	رياض المنى من وجتتيك وجنت

ومنها :

لئن أمسيت في ثوبي عديم	لقد بليا على حر كريم
------------------------	----------------------

فلا يحزنك أن أبصرت حالا مغيرة عن الحال القديم
فلي نفس ستتلف أو سترقى لعمرك بي إلى أمر جسيم

ومنها :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

الأمر السابع : الذي جعل الحلاج يضرب تصوفه بالتشيع أنه كان صاحب
حيل ودجل يستهوي عامة الناس ويستقطبهم بها.

يقول ابن النديم (ت: ٤٣٨هـ) : قرأت بخط أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن
أبي طاهر الحسين بن منصور الحلاج وكان رجلا محتالا مشعبذا يتعاطى
مذاهب الصوفية يتحلى ألفاظهم ويدعي كل علم وكان صفرا من ذلك وكان
يعرف شيئا من صناعة الكيمياء وكان جاهلا مقداما مدهورا جسورا على
السلطين مرتكبا للعظائم يروم انقلاب الدول ويدعي عند أصحابه الإلهية
ويقول بالحلول ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة وفي
تضاعيف ذلك يدعي أن الإلهية قد حلت فيه وأنه هو هو تعالى الله جل
وتقدس عما يقول هؤلاء علوا كبيرا قال وكان يتنقل في البلدان ولما قبض عليه
سلم إلى أبي الحسن علي بن عيسى فناظره فوجده صفرا من القرآن وعلومه

ومن الفقه والحديث والشعر وعلوم العرب فقال له علي بن عيسى تعلمك
لظهورك وفروضك أجدى عليك من رسائل لا تدري أنت ما تقول فيها كم
تكتب ويملك إلى الناس ينزل ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته ما
أحوجك إلى أدب وأمر به فصلب ... وروى عنه أنه في أول أمره كان يدعو
إلى الرضا من آل محمد فسعي به وأخذ بالجبل فضرب بالسوط ويقال أنه دعا
أبا سهل النوبختي فقال لرسوله أنا رأس مذهب وخلفي ألوف من الناس
يتبعونه بأتباعي له فأنت لي في مقدم رأسي شعرا فإن الشعر منه قد ذهب ما
أريد منه غير هذا فلم يعد إليه الرسول وحرك يوما يده فانتشر على قوم مسك
وحرك مرة أخرى يده فشر دراهم فقال له بعض من يفهم ممن حضر أرى
دراهم معروفة ولكني أومن بك وخلقني إن أعطيتني درهما عليه اسمك واسم
أبيك فقال وكيف وهذا لم يصنع قال من أحضر ما ليس بحاضر صنع ما ليس
بمصنوع ودفع إلى نصر الحاجب واستغواه . وكان في كتبه إني مغرق قوم نوح
ومهلك عاد وثمود فلما شاع أمره وذاع وعرف السلطان خبره على صحته وقع
بضره ألف سوط وقطع يديه ثم أحرقه بالنار في آخر سنة تسع وثلاثمائة^(١).

وروى الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) : أخبرنا محمد بن علي بن الفتح قال
أخبرنا محمد بن الحسين النيسابوري قال سمعت أبا العباس الرزاز يقول قال

(١) الفهرست، ص ٢٤١.

لي بعض أصحابنا قلت لأبي العباس بن عطاء : ما تقول في الحسين بن منصور؟ فقال ذاك مخدوم من الجن^(١).

وأيضاً روى عن إبراهيم بن مخلد قال أخبرنا إسماعيل بن علي الخطبي في تاريخه قال وظهر أمر رجل يعرف بالحلاج يقال له الحسين بن منصور ، وكان في حبس السلطان بسعاية وقعت به في وزارة علي بن عيسى الأولى وذكر عنه ضروب من الزندقة ووضع الحيل على تضليل الناس من جهات تشبه الشعوذة والسحر وادعاء النبوة^(٢).

ومن جملة ما رواه الخطيب عن الحلاج : قدم بغداد فخالط الصوفية وصحب من مشيختهم الجنيد بن محمد وغيره والصوفية مختلفون فيه فأكثرهم نفى أن يكون منهم وقالوا أنه مشعبد زنديق وقبله بعضهم حتى قال محمد بن حفيف إنه عالم رباني ومن نفاه عن الصوفية نسبه إلى الشعبة في فعله ، وإلى الزندقة في عقده وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه ويغلون فيه^(٣).

وابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) له كتاب جمع فيه حيل الحلاج ودجله إذ يقول : قد جمعت في أخبار الحلاج كتاباً بينت فيه حيله ومخاريقه وما قال العلماء فيه والله المعين على قمع الجهال^(٤).

^(١) (تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٩.

^(٢) (تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٤.

^(٣) (تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١١٢.

^(٤) (تليس إبليس، ص ١٦٧.

ويقول ابن الطقطقي (ت: ٧٠٩هـ) : كان الحلاج يلبس الصوف والمسوح^(١) تارة والثياب المصبغة تارة ، والعمامة الكبيرة والدراعة تارة والقباء وزى الجند تارة. وطاف بالبلاد ثم قدم في آخر الأمر بغداد وبنى بها دارا واختلفت آراء الناس واعتقاداتهم فيه ، وظهر منه تخليط ، وتنقل من مذهب إلى مذهب ، واستغوى العامة بمخاريق كان يعتملها ، منها : أنه كان يحفر في بعض قوارع الطرقات موضعا ويضع فيه زقا فيه ماء ، ثم يحفر في موضع آخر ويضع فيه طعاما ثم يمر بذلك الموضع ومعه أصحابه فيحتاجون هناك إلى ماء يشربونه ويتوضئون به فيأتي هو إلى ذلك الموضع الذي قد حفره وينبش فيه بعكاز ، فيخرج الماء فيشربون ويتوضئون ثم يفعل كذلك في الموضع الآخر عند جوعهم فيخرج الطعام من بطن الأرض ، يوهمهم أن ذلك من كرامات الأولياء . وكذلك كان يصنع بالفواكه يدخرها ويحفظها ، ويخرجها في غير وقتها . فشغف الناس به وتكلم بكلام الصوفية وكان يخلطه بما لا يجوز ذكره من الحلول^(٢).

(١) المسوح : الخشن من الثياب .

(٢) الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٥٤.

نماذج من حيل ودجل الحلاج

لا بأس بذكر نماذج أخرى من دجل وحيل الحلاج تتمة لما سبق :

١- عن أبي الحسن أحمد بن يوسف الأزرق أن الحسين بن منصور الحلاج لما قدم بغداد يدعو استغوى كثيرا من الناس والرؤساء وكان طمعه في الرافضة أقوى لدخوله من طريقهم فراسل أبا سهل ابن نوبخت يستغويه وكان أبو سهل من بينهم مثقفا فهما فطنا فقال أبو سهل لرسوله : هذه المعجزات التي يظهرها قد تأتي فيها الحيل ولكن أنا رجل غزل ولا لذة لي أكبر من النساء وخلوتي بهن ، وأنا مبتلى بالصلع حتى أني أطول شعر قحفي وأخذ به إلى جيني وأشده بالعمامة واحتال فيه بحيل ومبتلى بالخضاب لستر المشيب فإن جعل لي شعرا ورد لحيتي سوداء بلا خضاب آمنت بما يدعوني إليه كائنا ما كان إن شاء قلت إنه باب الإمام وإن شاء الإمام ، وإن شاء قلت إنه النبي وإن شاء قلت إنه الله قال : فلما سمع الحلاج جوابه أيس منه وكف عنه^(١).

٢- عن علي بن أبي علي المعدل عن أبي الحسن أحمد بن يوسف الأزرق قال حدثني غير واحد من الثقات من أصحابنا أن الحسين بن منصور الحلاج كان قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ، ووافقه على حيلة يعملها ، فخرج الرجل فأقام عندهم سنين يظهر النسك والعبادة ، وإقراء القرآن والصوم ، فغلب على البلد حتى إذا علم أنه قد تمكن أظهر أنه قد عمي ،

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٢.

فكان يقاد إلى مسجده ، ويتعمى على كل أحد شهورا ، ثم أظهر أنه قد زمن ، فكان يحبو أو يحمل إلى المسجد حتى مضت سنة على ذلك ، وتقرر في النفوس زمانته وعماه ، فقال لهم بعد ذلك : إني رأيت في النوم كأن النبي ﷺ يقول لي: إنه يطرق هذا البلد عبد لله صالح مجاب الدعوة تكون عافيتك على يده وبدعائه ، فاطلبوا لي كل من يجتاز من الفقراء أو من الصوفية فلعل الله أن يفرج عني على يد ذلك العبد وبدعائه كما وعدني رسول الله ﷺ فتعلقت النفوس إلى ورود العبد الصالح وتطلعت القلوب ومضى الأجل الذي كان بينه وبين العلاج فقدم البلد فلبس الثياب الصوف الرقاق وتفرد في الجامع بالدعاء والصلاة ، وتنهبوا على خبره فقالوا للأعمى ، فقال : احملوني إليه فلما حصل عنده وعلم أنه العلاج . قال له : يا عبد الله إني رأيت في المنام كيت وكيت ، فتدعو الله لي ، فقال : ومن أنا وما محلي . فما زال به حتى دعا له ثم مسح يده عليه فقام المتزامن صحيحا مبصرا فانقلب البلد ، وكثر الناس على العلاج فتركهم وخرج من البلد وأقام المتعمى المتزامن فيه شهورا . ثم قال لهم : إن من حق نعمة الله عندي ورده جوارحي على أن أنفرد بالعبادة انفرادا أكثر من هذا وأن يكون مقامي في الثغر وقد عملت علي الخروج إلى طرسوس فمن كانت له حاجة تحمليتها وإلا فأنا أستودعكم الله قال : فأخرج هذا ألف درهم فأعطاه وقال : اغز بها عني ، وأعطاه هذا مائة دينار ، وقال : أخرج بها غزاة

من هناك ، وأعطاه هذا مالا ، وهذا مالا حتى اجتمع ألوف دنانير ودراهم فلحق بالحلاج فقاسمه عليها^(١).

٣- يقول الخطيب البغدادي : أخبرني جماعة من أصحابنا أنه لما افتتن الناس بالأهواز وكورها بالحلاج وما يخرج له من الأطعمة والأشربة في غير حينها والدرهم التي سماها دراهم القدرة حدث أبو علي بذلك ، فقال لهم : هذه الأشياء محفوظة في منازل يمكن الحيل فيها ولكن أدخلوه بيتا من بيوتكم لا من منزله هو وكلفوه أن يخرج منه جرزتين^(٢) شوكا فإن فعل فصدقوه فبلغ الحلاج قوله وأن قوما قد عملوا على ذلك فخرج عن الأهواز^(٣).

٤ - عن أبي سعيد السجزي قال أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبيد الله الصوفي الشيرازي قال سمعت علي بن الحسن الفارسي بالموصل يقول سمعت أبا بكر بن سعدان يقول قال لي الحسين بن منصور : تؤمن بي حتى أبعث إليك بعصفورة تطرح من ذرقها وزن حبة على كذا منا نحاس فيصير ذهباً ؟ قال : فقلت له : بل أنت تؤمن بي حتى أبعث إليك بفيل يستلقي فتصير قوائمه في السماء فإذا أردت أن تخفيه أخفيته في إحدى عينيك قال فبهت وسكت^(٤).

(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٠.

(٢) الجزر : نبات ، الواحدة جزرة . العين، ج ٦، ص ٦٣.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٢.

(٤) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٣.

٥ - يقول الخطيب البغدادي : بلغنا أنه أقام ببغداد في أيام المقتدر بالله زمانا يصحب الصوفية ويتنسب إليهم والوزير إذ ذاك حامد بن العباس فانتهى إليه أن الحلاج قد موه على جماعة من الحشم والحجاب في دار السلطان وعلى غلمان نصر القشوري الحاجب وأسبابه بأنه يحيي الموتى ، وأن الجن يخدمونه ويحضرون ما يختاره ويشتهي وأظهر أنه قد أحيا عدة من الطير وأظهر أبو علي الأوارجي لعلي بن عيسى أن محمد بن علي القنائي وكان أحد الكتاب يعبد الحلاج ويدعو الناس إلى طاعته^(١).

٦ - عن زنجي الكاتب عن أبيه وهو المعروف بزنجي مما أسوقه من أخبار الحلاج إلى حين مقتله وكان زنجي يلزم مجلس حامد بن العباس ويرى الحلاج ويسمع مناظرات أصحابه ، قال زنجي : كان أول ما انكشف من أمره في أيام وزارة حامد بن العباس أن رجلا شيخا حسن السميت يعرف بالدباس تنصح فيه ، وذكر انتشار أصحابه وتفرق دعااته في النواحي وأنه كان ممن استجاب له ، ثم تبين مخرقته ففارقه وخرج عن جملته وتقرب إلى الله بكشف أمره^(٢).

٧ - وقال ابن الجوزي : قد رونا عن الحلاج انه كان يدفن شيئا من الخبز والحلواء والشواء في موضع من البرية ويطلع بعض أصحابه على ذلك ، فإذا أصبح قال لأصحابه : إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة فيقوم ويمشي والناس معه ، فإذا جاءوا إلى ذلك المكان قال له صاحبه الذي أطلعه على

^(١) (تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٩.

^(٢) (تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٩.

ذلك:نشتهي الآن كذا وكذا ، فيتركهم الحلاج وينزوي عنهم إلى ذلك المكان ،
فيصلي ركعتين ويأتيهم بذلك ، وما زال يخرق إلى وقت صلبه^(١).

٨ - وروى الذهبي (ت:٧٤٨هـ) : يروى أن رجلا قال للحلاج أريد تفاحة
ولم يكن وقته فأومأ بيده إلى الهواء فأعطاهم تفاحة وقال هذه من الجنة فقيل له
فاكهة الجنة غير متغيرة وهذه فيها دودة فقال لأنها خرجت من دار البقاء إلى
الفناء فحل بها جزء من البلاء^(٢).

٩ - عن عمر بن حيويه : لما أخرج حسين الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس
ولم أزل أزاحم حتى رأيته فقال لأصحابه : لا يهولنكم هذا فإني عائد إليكم
بعد ثلاثين يوما ثم قتل^(٣).

وقد تقدم في الأمر الأول^(٤) ذكر كلام الشيخ الصدوق والمفيد والطوسي
والطبرسي والنوري رضوان الله عليهم في الحلاج ، وذكر نماذج من حيله
وكيف أنه ادعى النيابة للإمام المهدي عليه السلام وصدور التوقيع المبارك بلعنه والبراءة
منه.

^(١) (تلبيس إبليس، ص ٣٧٢.

^(٢) (سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٢٠٠.

^(٣) (تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٨.

^(٤) (انظر الأمر الأول من الأمور السبعة التي جعلت الحلاج يثبت تصوفه بالتشيع .

ثلة من عرفاء الشيعة الذين أثنوا على الحلّاج

إن دجل الحلّاج وحيله أمر معروف في مصادر الخاصة والعامة ومن شك في أمره يكفيّه أن يضع نصب عينيه ويلحظ أمره في (الحلاجية) التي كانت أصحاب الحلول والإباحة وغيرها من البدعة والعقائد الباطنة ، وما كانت (الحلاجية) إلا عبارة عن أثر من آثاره تشكّلت في ظل حيله وبدعه.

وقد أجمع علماء الإمامية رضوان الله عليهم من المتقدمين والمتأخرين على ذمه والطعن فيه كالشيخ الصدوق والمفيد والطوسي والطبرسي (رضوان الله عليهم) وذكرت أقوالهم^(١) وما نقلوه من زلّله وبدعه في الدين ، وكيف أنه ادعى النيابة للإمام وصدور التوقيع المبارك بلعنه والبراءة منه.

وعلى هذا ماذا يكون خبر فيمن يمدح الحلّاج ويراه من أصحاب السر ويحسب أنه لا جرم له سوى جرمه في إذاعة الأسرار ولا مؤاخذه عليه إلا في الإذاعة دون غيرها؟! مثل الخواجة نصير الدين الطوسي والسيد علي القاضي وهاشم الحداد والطهراني رحمهم الله وكمال الحيدري؟!

فمثلاً الخواجة نصير الدين الطوسي رحمه الله يعتذر للحلاج ويدافع عنه فيقول : ليس المراد من الاتحاد ما توهمه جماعة قاصروا النظر أنه هو أن يتحد العبد بالله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(٢) بل هو ألا ينظر إلا إليه من غير

^(١) انظر الأمر الأول من الأمور السبعة التي جعلت الحلّاج يثبت تصوفه بالتشيع .

^(٢) سورة الإسراء : ٤٣ .

أن يتكلف ويقول كل ما عداه قائم به فيكون الكل واحدا بل من حيث إنه إذا صار بصيرا بنور تجليه ، لا يُبصر إلا ذاته تعالى لا الرائي ولا المرئي به ودعا الحسين بن منصور الحلاج قال :

بيني وبينك إني يُنازعني فارفع بلطفك إني من البين

فاستجاب الله دعوته ورفع إنيته حتى استطاع أن يقول : (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) وفي هذا المقام يتضح أن من قال : (أنا الحق) ومن قال : (سبحاني ما أعظم شأني) لم يدع الإلهوية ، بل ادعى نفي إنيته وإثبات إنية غيره وهو المطلوب^(١).

والخوانساري رحمه الله لم يرتضِ دفاع الخواجة عن الحلاج فيقول : ومن جملة المعتذرين عن هفواته الباطلة من علماء الطائفة هو الخواجة نصير الملة والدين الطوسي^(٢).

لا أدري لما الدفاع عن هكذا شخصية مثل الحلاج والتبرير له ، ثم ما هو الدليل على هذا التوجيه والتأويل لكلامه؟!

والخواجة رحمه الله لم يذكر دليله على التأويل واكتفى فقط باتهام نقاد الحلاج بقصر النظر وأخذ يشني على الحلاج بلا حرج ولا تخرج.

(١) أوصاف الأشراف، ص ٦٥.

(٢) روضات الجنات، ج ٣، ص ١٠٩.

ولا غرو أن يثني الخواجة عليه السلام على الحلاج وهو من المتأثرين بالتصوف ويكفي ملاحظة ذلك من خلال كتابه (أوصاف الأشراف) وكيف أنه يردد مصطلحاتهم مثل (الطريقة) (الفناء) (البقاء) وغيرها.

نعم قد تأثر الخواجة عليه السلام بالتصوف والفلسفة وروج لهما أكثر من تأثره بالفقه والحديث ، ولذا ينقل السيد الأمين عليه السلام عن البداية والنهاية : عين الخواجة نصير الدين الطوسي لكل من الفلاسفة ثلاثة دراهم يوميا ولكل من الأطباء درهمين ولكل من الفقهاء درهما واحدا ولكل من المحدثين نصف درهم ، لذلك أقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب أكثر من إقبالهم على معاهد الفقه والحديث بينما كانت تلك العلوم من قبل تدرس سرا آه وهكذا اجتمع حوله العدد الوافر من الطلاب وأقبل العلماء من كل ناحية إلى تلك الديار^(١).

ويكفي أن نلاحظ في هذا الجانب أيضا أن الخواجة في كتابه (تلخيص المحصل) المعروف بنقد المحصل ، لأن الفخر الرازي نقد الشيعة في كتاب اسماء (المحصل) وشنع على الشيعة في عقيدة البداء فرده الخواجة في (تلخيص المحصل) بقوله : إنهم (أي الشيعة) لا يقولون بالبداء وإنما القول بالبداء ما كان إلا في رواية^(٢).

(١) أعيان الشيعة، ج ٩، ص ٤١٩.

(٢) تلخيص المحصل، ص ٤٥٧.

وهذا قول عجيب من الخواجة لأنه يوجد لدينا فقط في أصول الكافي في باب (البداء) ستة عشر حديثا في البداء ومن هنا وصف العلامة المجلسي الخواجة بـ: عدم إحاطته كثيرا بالأخبار^(١).

ويقول السيد القاضي رحمته الله : إن أساس مطالب منصور الحلاج هي نفس مطالب سائر العرفاء ، وليس لديه شيء آخر دونهم لكنه كان مفشيا للأسرار الإلهية فأوقع جمعا من الناس في الفتنة والفساد فرقي برأسه إلى المشنقة^(٢).

بمعنى أن مؤاخذة السيد القاضي رحمته الله على الحلاج هي من جهة إفشاء الأسرار وليس لشيء آخر.

وينقل السيد الطهراني رحمته الله رأي السيد هاشم الحداد رحمته الله في الحلاج : كان سماحة الحاج السيد هاشم يرفض طريقة الحلاج ويقول : إن هناك مطالب فيما نقل عنه تدل على نقصانه^(٣).

بمعنى أن السيد الحداد رحمته الله كان يعد الحلاج من أصحاب المقامات العالية إلا أنه غير كامل.

(١) بحار الأنوار، ج٤، ص١٢٣.

(٢) الروح المجرد ص٤٧٠.

(٣) الروح المجرد، ص٤٤٠.

ويقول الطهراني رحمه الله : الجميع يتفقون على أن جرم الحسين بن منصور الحلاج كان كشف الأسرار الإلهية ، وهو جرم عظيم^(١).

مما يعني أن جرم الحلاج الوحيد في نظر السيد القاضي والطهراني (رحمهما الله) هو إذاعة الأسرار ليس إلا ، بل إن جميع المتأثرين بالتصوف يرون أن جرمه الوحيد هو إذاعة الأسرار كما في قول الطهراني المتقدم.

والشيخ جوادى آملی يؤيد ويترحم على مهدي القمشي عندما قال أن ذنب الحلاج هو إفشاء الأسرار ، يقول الشيخ الآملی : رحم الله الأستاذ محيي الدين مهدي الإلهي القمشي الذي كان يقول عن الحلاج في شعره :

قل بأنهم صلبوا ذلك الصديق لأن ذنبه كان إفشاء الأسرار^(٢)

وجعل كمال الحيدري قول الحلاج (أنا الحق)^(٣) مرتبة من مراتب الارتقاء الرفيعة إذ يقول : إن القائلين بذلك هم من السلاك الذين وصلوا إلى مرتبة لا

^(١) الروح المجرد، ص ٤٤٨.

^(٢) الحماسة والعرفان، ص ١١٨.

^(٣) نسب عمر السهروردي (أنا الحق) للحلاج إذ يقول : قول الحلاج (أنا الحق) . عوارف المعارف، ص ٩١.

ومن أقوال الحلاج : يا إله الآلهة ويا رب الأرباب ويا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، رد إلي نفسي لئلا يفتتن بي عبادك ، يا من هو أنا ، وأنا هو لا فرق بين أنيتي وهويتك إلا الحدث والقدم. الطواسين، ص ٢٤٩.

ويقول ابن النديم متحدثاً عن الحلاج : كان في كتبه إني مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود. الفهرست، ص ٢٤١.

يرون في الوجود أحدا غير الله تعالى ، فهم لا يرون حتى ذواتهم لأنها فنيت في الله تعالى ، بمعنى عدم الالتفات لها أبداً^(١).

ويبرر كمال الحيدري للحلاج وغيره قائلًا : إن القائل بتلك الألفاظ (مثل أنا الحق وليس في جبتي سوى الله) وغيرها من الشطحات^(٢) إنما قالها وهو غير ملتفت فيكون حاله حال القائل بها وهو نائم فهو معذور ولا يترتب عليه أي حكم شرعا لأنه غير ملتفت لأصل وجوده فضلا عما يقوله^(٣).

ولكن قد يرد تساؤل : هل أن الذين أثنوا على الحلاج كانوا يجهلون التوقيع الشريف ، أم أنهم كانوا يشككون في سنده ؟ وإلا كيف يمكنهم مدح الحلاج مع ما ورد فيه من لعن وبراءة ؟!

ولا أتصور أنهم كانوا يجهلون التوقيع ، ولربما شكك بعضهم في صحة سنده، ولكن حتى لو كان مشكوك الصدور لا يخفى ضلال الحلاج ، الذي هو مشهور في مصادر المسلمين كما تقدم ذكره ، وآراء العلماء فيه من الخاصة والعامة . والسبب الأساسي في الثناء عليه لأنه كانت لديه من معتقدات الصوفية التي يرون أحقيتها ، وحتى لو تنزلنا وقلنا بصحتها لا يعني هذا أنه

ومن أشعار الحلاج : أنا الحق والحق للحق حق لا بس ذاته فما ثم فرق . ديوان الحلاج، ص ٣١.

(١) مراتب السير والسلوك، ص ٩٥.

(٢) مثل قول أبي يزيد البسطامي : (سبحاني). انظر عوارف المعارف، ص ٩١.

(٣) مراتب السير والسلوك، ص ٩٨.

يبرر الثناء عليه وتجاهل كل حيله وادعاءاته من النيابة للإمام عليه السلام وغيرها ،
ناهيك عما يعتقدونه من صحة معتقداته وأفكاره إذا ما أردنا المناقشة فيها.

وما ذكرته من قول الخواجة الطوسي رحمته الله ^(١) أنه لا يوجد لدينا في البداء سوى
حديث واحد مع أنه يوجد فقط في أصول الكافي ستة عشر حديثاً ، أريد
التدليل من خلاله على أن الخطأ والاشتباه أمر وارد مهما بلغ الإنسان
والعصمة لأهلها.

وقد كان السيد عبد الأعلى السبزواري رحمته الله من أشد الطاعنين على الحلاج
حيث بعد أن ذكر دعاء : (إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار
قلوبنا بضياء النظر إليك حتى تحرق أبصار القلوب حجب النور ، فتصل إلى
معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك) قال : هذا غاية كمال
العارفين التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون . وما سوى ذلك مما دعا إليه بعض
العرفاء كابن الفارض ومحبي الدين والحلاج ونحوهم ، وما نسب إلى بعض
الشيخية على ما صرح به في شرح زيارة الجامعة ، فإن كل ذلك خروج عن
الحق القويم وابتعاد عن الصراط المستقيم ^(٢).

^(١) انظر بداية عنوان : (ثلة من عرفاء الشيعة الذين أثنوا على الحلاج) .

^(٢) مواهب الرحمن، ج ٨، ص ٢٢٥.

المرحلة الثانية في دخول التصوف للتشيع

إن المرحلة الثانية من مراحل دخول التصوف إلى التشيع تمثل مرحلة الانتقال الكبير والترويج للتصوف في أوساط التشيع ، وقد كانت بسبب محاولات الصوفي السيد حيدر الآملي (في القرن الثامن الهجري) كما يصفه صاحب الرياض رحمته الله الميرزا عبد الله الأفندي (ت: ١١٣٠هـ) : (كان من أفاضل علماء الصوفية وقد كان إمامي المذهب)^(١).

وقال فيه أيضا صاحب الرياض : إن مشايخ الصوفية قد كانوا في الشيعة كسيد حيدر الآملي صاحب كتاب (جامع الأسرار ومنبع الأنوار) وشارح الفصوص المسمى شرحه (بفص الفصوص)^(٢).

والسبب يعود في كون الآملي أدخل التصوف إلى التشيع هو لما كان له من رؤى ومصنفات كان جل همها التوفيق بين الفكر الصوفي والدين ، وكل جهود الآملي كانت تكمن في هذه المحاولات والتوفيقات ، حتى إننا نجده يصرح بمنهجه هذا في عدة مواضع ، ونراه يقول في بداية كتاب (جامع الأسرار ومنبع الأنوار) قبل مقدمة كتابه هذا وعلى وجه التحديد في التمهيد الذي عقده قبل المقدمة يقول : التمس مني جماعة من إخواني الصالحين السالكين سبيل الله لطلب مرضاته أن أكتب لهم كتابا جامعا مشتملا على معظم أسرار

(١) رياض العلماء، ج٢، ص٢١٨.

(٢) رياض العلماء، ج٢، ص٢١٩.

الله تعالى وأسرار أنبيائه وأوليائه عليهم السلام حاويا لا سيما على أسرار التوحيد وأقسامه وتوابعه ولوازمه وما يتعلق به من الأحكام والأسرار مخبرا عن حقائقه ودقائقه ونكته ورموزه مشيرا إلى لبه وخلاصته وأصوله وفروعه موميا إلى شعبه وشبهه وشكوكه ومغالطه ويكون مرتبا على فضيلته وتعريفه وتقسيمه وكيفيته موشحا بالأمثلة المحسوسة اللائحة والاستشهادات الموضحة اللائحة مبنا على قاعدة الموحدين المحققين من أهل الله المسمين بالصوفية موافقا لمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مطابقا لأصول كل واحد منهم وقواعدهم بحيث يرتفع به التنازع من بينهم بالكلية ولا يحتاجون بعده إلى كتاب آخر فيه لأن من بين الفرق الإسلامية والطوائف المختلفة الحمديّة ليس أحد ينكر على الطائفة الصوفية مثل طائفة الشيعة ولا على الشيعة مثل الطائفة الصوفية مع أن مأخذهم واحد ومشربهم واحد ومرجعهم إلى واحد لأن مرجع جميع الشيعة خصوصا الطائفة الإمامية ليس إلا إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وبعده إلى أولاده وأولاد أولاده صلوات الله عليهم أجمعين وهو مأخذهم ومشربهم ومسند علومهم ومرجع أصولهم وكذلك الصوفية الحقّة لأنهم أيضا لا يسندون علومهم ولا ينسبون خرقتهم إلا إليه وبعده إلى أولاده وأولاد أولاده عليهم السلام واحدا بعد واحد لأنهم نسبتهم إما إلى كميل بن زياد النخعي رضي الله عنه وهو تلميذه الخاص ومريده الخالص وإما إلى الحسن البصري وهو أيضا من أعظم تلامذته وأكبر مريديه^(١) وإما إلى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي هو

(١) لم يكن الحسن البصري من مريديه وخواص أمير المؤمنين عليه السلام بل على العكس تماما

من أولاد أولاده ﷺ وهو أيضا خليفته ووصيه والإمام المعصوم المنصوص من عند الله وسنشير إلى كيفية ذلك وتفصيله إن شاء الله تعالى وسبب هذا الالتماس مني هو أنهم رأوا بعين بصيرتهم النافذة آثار نعم الله تعالى وألطفه علي بإعطاء هذه المعارف والحقائق وشاهدوا بنور هدايتهم الحقيقية أنوار فيضانه وتجلياته في بإفاضته هذه المعاني والدقائق وعرفوا كيفية اطلاعي على أصول الطائفتين وقواعدهم وعلموا حسن مجموعيتي بتحصيل قوانين الفرقتين وعقائدهم لأنني من عنفوان الشباب بل من أيام الطفولية إلى يومنا هذا الذي هو أيام الكهولة بعناية الله تعالى وحسن توفيقه كنت مجدا في تحصيل عقائد أجدادي الطاهرين الذين هم الأئمة المعصومون ﷺ وطريقتهم بحسب الظاهر التي هي الشريعة المخصوصة بطائفة الشيعة الإمامية من أهل الفرق الإسلامية وبحسب الباطن التي هي الحقيقة المخصوصة بالطائفة الصوفية من أرباب التوحيد وأهل الله تعالى والتوفيق بينهما ومطابقة كل واحد منهما بالآخر حتى تحققت حقبة الطرفين وعرفت حقيقة القاعدتين وطابقت بينهما حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة وصرت كما صرت جامعا بين الشريعة والحقيقة حاويا بين الظاهر والباطن واصلا إلى مقام الاستقامة والتمكين قائلا قول من كان مثلي من أرباب اليقين وأهل التحقيق^(١).

حيث كان من أعدائه ومبغضيه ، وقد بينت ذلك تحت عنوان : (الحسن البصري ما بين ذم الأئمة ﷺ وثناء الأملي) .

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ١٤٣.

ويقول أيضا في التمهيد الذي عقده قبل المقدمة : وأشارت إلى انتساب علوم هذه الطائفة^(١) وخرقتهم إلى الأنبياء والأولياء خصوصا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام الذي هو قطب دائرة أهل التوحيد ومرجعهم ، وبعده إلى أولاده وتلامذته ظاهرا وباطنا أي صورة ومعنى .

(١) يقصد من الطائفة : الصوفية ، والخرقة عبارة عن ثوب وضع يدل على الفقر والزهد يلبسه الشيخ مريده. وما يؤخذ على ارتداء هكذا ثياب أنه لا دليل عليها من الشرع ، حيث لم يجز الدين على ارتداء ثياب تدل على الفقر والمسكنة تتميز بها فئة خاصة من المسلمين على غيرهم ، بل لا يبعد اندراجها تحت لباس الشهرة وما ينطوي فيها من آفات وموبقات تجرد المسلم من إيمانه وتقواه . ثم إن هكذا ثياب هي أقرب ما تكون للرياء والتظاهر وشغل مرتديها بما لا موجب له من سفاسف الأمور ، وإبعاده عن الصفاء الباطني والمقصد الحقيقي ، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : (أفضل الزهد إخفاء الزهد). نهج البلاغة، ج ٤، ص ٧.

ومما يروى أن سفيان الثوري الذي هو من أكابر الصوفية مر المسجد الحرام فرأى أبا عبد الله عليه السلام وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان فقال : والله لآتينه ولأوبخنه فدنا منه ، فقال : يا ابن رسول الله ما لبس رسول الله ﷺ مثل هذا اللباس ولا علي عليه السلام ولا أحد من آبائك فقال له أبو عبد الله عليه السلام : كان رسول الله ﷺ في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتله واقتداره وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ونحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله غير أني يا ثوري ما ترى علي من ثوب إنما ألبسه للناس ثم اجتذب يد سفيان فجرها إليه ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا فقال : هذا ألبسه لنفسي وما رأيته للناس ، ثم جذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل ذلك ثوب لين فقال : لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسرها. الكافي، ج ٦، ص ٤٤٣.

واستشهدت على كل مقصد من هذه المقاصد - أي مقاصد التوحيد - بكلام الله تعالى وكلام أنبيائه وأوليائه وكذلك بكلام المشايخ رضوان الله عليهم أجمعين^(١).

ويقول أيضا في التمهيد موضحا مطالب الكتاب : ورتبته على ثلاثة أصول واثني عشرة قاعدة أعني أنني جعلت كل أصل منها مشتملا على أربعة قواعد. الأصل الأول من الأصول هو مشتمل على بحث التوحيد وأقسامه ، وهو مبني على أربعة قواعد . القاعدة الأولى : في فضيلة التوحيد ، والثانية : في تعريفه ، والثالثة : في تقسيمه ، والرابعة : في كيفيته . والأصل الثاني منها مشتمل على الاستشهاد بكلام الله تعالى وكلام أنبيائه وأوليائه وكلام المشايخ في حقيقة التوحيد وإثباته وهو أيضا مبني على أربعة قواعد .

القاعدة الأولى : في الاستشهاد بكلام الله تعالى .

(القاعدة) الثانية : في الاستشهاد بكلام الأنبياء ﷺ .

(القاعدة) الثالثة : (في الاستشهاد) بكلام الأولياء ﷺ .

(القاعدة) الرابعة : (في الاستشهاد) بكلام المشايخ^(٢).

^(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ١٥٢.

^(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ١٥٣.

ويقول في مقدمة كتاب جامع الأسرار : أصحابنا الشيعة لا يسلمون أن هذه الطائفة المخصوصة بحمل أسرار الأئمة عليهم السلام هم الصوفية ولا يقرون أيضا بأن هذه الأسرار توجد في غير الأئمة وينكرون عليهم في هذه الدعوى غاية الإنكار وينسبونهم بذلك إلى الكفر والزندقة فنريد أن نستدل على حقيقتهم بالدلائل النقلية والبراهين العقلية إجمالاً قبل الشروع في المعارضة بينهم تفصيلاً . وثبت أن هؤلاء الجماعة الذين هم الصوفية هم الموسومون بالشيعة الحقيقية والمؤمن الممتحن وغير ذلك ليعرفوا (يعني أصحابنا الشيعة) قدرهم ويتركوا إنكارهم ويتحققوا أنهم منهم^(١).

وحتى شرحه لفصوص الحكم جعله مطابقاً للكتاب والسنة في نظره كما يصفه: جامعاً لأعظم الحقائق الإلهية ، حاوياً لأشرف القوانين المصطفوية ، مطابقاً للعقل والنقل ، غير خارج عن الكتاب والسنة ، جارياً على طريق السداد : من الشريعة والطريقة والحقيقة ، بحيث لا يحتاجون بعده إلى شرح آخر غيره ، إذا فهموا ما فيه من المعنى طله ووبله^(٢).

وبهذا الكلام الطويل وفي مواضع متعددة يكشف لنا السيد الآملي عن منهجه ومساعيه التي بذلها للتوفيق بين التصوف والتشيع . وهذا المنهج هو منهج خادع وإن كان صاحبه يعتقد بأحقيقته ؛ استمال به الشيعة نحو التصوف في كتابه

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ١٧٤.

(٢) نص النصوص، ص ١٢٨.

جامع الأسرار وغيرها من كتبه الأخرى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى
تمكن من خلاله التنظير لعقائد الصوفية وتوطئتها ونشرها في التشيع .

وقفات مع السيد حيدر الآملي

إن السيد حيدر الآملي لديه زلل عظيم متمثل بأصل المسلك الذي اتخذهُ نحو
التصوف ، وبجملة من الأفكار التي تبناها ، وبعبارة مختصرة زللهُ يكمن بمسلكه
وبجملة من أفكاره ، وليس بالشيء الغريب أن تصدر منه الكثير من الهفوات
والسقطات فيما إذا كان لديه خلل وأصل التوجه الذي نحاه نحو
الصوفية ، وهنا يحسن أن أقف وأبين نماذج من هفواته الكبيرة - مضافا لما تقدم
- لتتضح الصورة أكثر لدى القارئ الكريم .

الشيعة والصوفية في نظر الآملي حقيقة واحدة !

قد تستغرب إذا قرأت أن كاتباً من الشيعة يصف الشيعة بالصوفية ، ويعبر
عنهما أنهما اسمان متغايران لحقيقة واحدة مثل السيد حيدر الآملي . ولكن
عليك أن لا تعجب من هذا لأنك ستري ما هو أعجب منه ، وذلك عندما ترى
كيفية الاستدلال على مدعاه !

يقول الآملي : اعلم أن الفرقة الإمامية على قسمين : قسم قائم بظاهر علومهم التي هي عبارة عن الشريعة والإسلام والإيمان . وقسم قائم بباطن علومهم التي هي عبارة عن الطريقة والحقيقة والإيقان والأول موسوم بالمؤمن فقط والثاني ب (المؤمن الممتحن) والشيعة والصوفية عبارة عنهما لأن الشيعي والصوفي اسمان متغايران يدلان على حقيقة واحدة وهي الشريعة المحمدية . وإن قيل : إن الصوفية على طريقة أهل السنة وأصولهم وقواعدهم فكيف جعلتهم شيعيين حقيقيين ؟ أجيب عنه بأن الصوفية وإن كانت فرقا كثيرة مثل الشيعة لكن الفرقة الحققة منها واحدة وهي الفرقة الموصوفة بهذه الأوصاف أي بحمل أسرارهم على ما ينبغي والإيمان بهم يعني بالأئمة عليهم السلام ظاهرا وباطنا كما أن الشيعة وإن كانت فرقا كثيرة لكن الفرقة الحققة منها واحدة وهي الفرقة الإمامية وإن اعترض واحد من الإمامية على هذا وقال : لا نسلم صدق هذه الخصوصية ولا صحة هذا التقسيم لأنه ليس هناك أحد آخر غيرنا يصدق عليه هذا الاسم بل نحن المؤمن الممتحن والمؤمن غير الممتحن. قلنا : إن سلمت وإن لم تسلم فكلام الأئمة عليهم السلام يشهد بأن المؤمن الغير الممتحن غير المؤمن الممتحن لأن المؤمن الممتحن هو الذي يكون حامل أسرارهم لقولهم أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان والمؤمن الغير الممتحن أنت مقر بأنه ليس من حاملي أسرارهم ولا غيره فلا يكون هو منهم^(١).

(١) جامع الأسرار، ص ٤١.

ولو اعترضنا على السيد الآملي وقلنا له نحن نسلم بوجود المؤمن الممتحن لكن لما سميته بالصوفي؟! سنجده يقول :

وإن قلت : سلمنا أن المؤمن الممتحن هو صاحب هذه الأسرار وهو أعلى مرتبة من المؤمن الغير الممتحن لكن لم قلت أنه صوفي لأنه يمكن أن يكون غيره؟ قلنا أنت إذا سلمت أن هنالك طائفة مخصوصة وهم حاملو أسرار الأئمة وأنت غيرهم وهم غيرك فهذا القدر يكفيننا في إثبات دعوانا لأننا ما نريد غير هذا فحينئذ إن ثقل عليك إطلاق اسم الصوفية عليهم فبأي اسم شئت سمهم لأن المضايقة يعني الخلاف الحقيقي ليس في الاسم فقط بل في المسمى الذي هو المعنى المخصوص والسر المعلوم أعني : معنى التوحيد وسر الوجود^(١).

وعند التأمل باستدلاله نجده عبارة عن الاستدلال على الشيء بذات نفسه ، نقول له لماذا سميت الصوفية شيعة؟ يقول لأنهم حملة أسرار ، مع أن كلامنا ليس بالاسم والتسمية وإنما بما تحمل الصوفية من عقائد وأفكار تختلف عن الشيعة وحينئذ يكون التباين والمغايرة بينهما ، وأين الشيعة من أفكار الصوفية ومعتقداتهم التي تلقوها من الحسن البصري والحلاج ، ولذا يقول السيد علي القاضي رحمته الله : إن أساس مطالب منصور الحلاج هي نفس مطالب سائر العرفاء

(١) جامع الأسرار، ص ٤٣.

، وليس لديه شيء آخر دونهم لكنه كان مفشيا للأسرار الإلهية فأوقع جمعا من الناس في الفتنة والفساد فرقي برأسه إلى المشنقة^(١).

والحسن البصري أول من صنف كتابا في التصوف أسماه (رعاية حقوق الله) يمكن تصنيفه كأول كتاب في التصوف ، والنسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة في اكسفورد ، ويدعي نيكلسون أن أول مسلم كتب حول منهج حياة الصوفية كان الحسن البصري ، وقد بين طريقة في التصوف والوصول إلى المقامات العالية مازال العلماء يشرحونها حتى اليوم^(٢).

ومن هنا كان الاختلاف بين عقائد الحسن البصري والحلاج والصوفية بصورة عامة من جهة وبين عقائد الشيعة من جهة أخرى .

وبعبارة أخرى نحن كلامنا في عقائد الصوفية التي نراها باطلة وهو يستدل على أحقيتها بنعتها بالأسرار.

وبعبارة أكثر وضوحا نحن نسلم بوجود المؤمن الممتحن من حمله أسرار أهل البيت عليه السلام كما ورد في الحديث ، ولكن لا نسلم أن ما عند الصوفية هو من أسرار أهل البيت عليه السلام ، وإنما نراها من العقائد الباطلة ، وكلامنا في صدق

(١) الروح المجرد ص ٤٧٠. وذكرت أمثال هذه الكلمات تحت عنوان : (ثلة من عرفاء الشيعة الذين أثنوا على الحلاج)

(٢) انظر كتاب العرفان لمرتضى مطهري، ص ٥١.

الوصف عليهم ، لا أن تجعل الوصف (حملة أسرار) مفروغ التحقق وتجعله دليلا على مدعاك وهو أن الشيعة والصوفية حقيقة واحدة.

وإذا أردنا التعبير بطريقة أخرى نقول إن الآملي جعل كل حملة الأسرار شيعة، وبما أن الصوفية حملة أسرار إذن الصوفية الشيعة ، ونحن نقاشنا في الصغرى وتحقق الموضوع وهو إثبات أن الصوفية من حملة الأسرار ، فكان يتطلب إثبات ذلك ، لا أن يجعل موضوع حملهم الأسرار مسلم الوقوع ومن ثم نعتهم بالشيعة.

والتعبير بصورة أخيرة : أنه جعل المطلوب إثباته أو النتيجة المرجو الوصول إليها إحدى المقدمات ، أي أخذ النتيجة من بعض المقدمات أو أجزاء القياس ، مما يلزم منه الدور أو الاستدلال الدائر حيث توقف النتيجة على المقدمة وهي على النتيجة . في حين أن مقدمات القياس لا بد أن تكون من المسلمات التي لا شك فيها ، كما أنه لا يصح القياس عندما تكون النتيجة مأخوذة في إحدى مقدماته ، كما فعل الآملي عندما جعل الصوفية أصحاب أسرار ولكونهم أصحاب أسرار كانوا شيعة.

واستدلال الآملي من حيث القياس والنتيجة كاستدلال أبي حامد الغزالي في الصوفية ، وذلك بعد أن كانوا في نظره متألهين مثابرين على سلوك الطريق إلى الله ﷻ نعتهم بحديث وجعلهم مصداقا له ، حيث يقول : الصوفية وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ﷻ ، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله ﷻ بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم في حالاتهم من أخلاق

النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم ، ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر - جماعة من المتألهين ، لا يخلي الله سبحانه العالم منهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض ، كما ورد في الخبر ، حيث قال ﷺ : (بهم تمطرون وبهم ترزقون ومنهم كان أصحاب الكهف)^(١) وكانوا في سالف الأزمنة على ما نطق به القرآن^(٢).

وأیضا نظیر استدلالات الجماعات الضالة التي تدعي أن صاحبهم هو اليماني، نقول لهم ما هو الدليل على دعواكم ؟ يقولون : إن اليماني مذكور في الأحاديث ، وكأن اليماني لا ينطبق إلا على صاحبهم ، ولا موضوع له ولا مصداق إلا فيه !

ويكفي في بطلان مدعاه هو ذم الأئمة عليهم السلام للتصوف والتحذير منه في أحاديث كثيرة ، مما يدل على أن التشيع والتصوف متغايران وليس حقيقة واحدة ، كما أن الشيخ المفيد رحمته الله لديه كلام عن الحلاج وأتباعه أشار فيه إلى بعد التصوف عن التشيع ، وإلى البون الشاسع بينهما حث يقول : الحلاجية ضرب من

(١) عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام ، عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال : ضاقت الأرض بسبعة بهم ترزقون وبهم تنصرون وبهم تمطرون ، منهم سلمان الفارسي والمقداد وأبو ذر وعمار وحذيفة (رحمة الله عليهم) وكان علي عليه السلام يقول : وأنا إمامهم ، وهم الذين صلوا على فاطمة عليها السلام . اختيار معرفة الرجال، ص ٣٤.

(٢) المنقذ من الضلال، ص ٢٣.

أصحاب التصوف ، وهم أصحاب الإباحة والقول بالحلل ، وكان الحلاج يتخصص بإظهار التشيع وإن كان ظاهر أمره التصوف ، وهم قوم ملحدة وزنادقة^(١) يموهون بمظاهرة كل فرقة بدينهم ويدعون للحلاج الأباطيل ، ويجرون في ذلك مجرى المجوس في دعواهم لزردشت المعجزات ، ومجرى النصارى في دعواهم لرهبانهم الآيات والبيئات، والمجوس والنصارى أقرب إلى العمل بالعبادات منهم و هم أبعد من الشرائع والعمل بها من النصارى والمجوس^(٢).

وهذا يعني أن الشيخ المفيد رحمته الله يرى أصول التصوف من المجوس والنصارى وقوله : (يجرون في ذلك مجرى المجوس في دعواهم لزردشت المعجزات ، ومجرى النصارى في دعواهم لرهبانهم الآيات والبيئات) واضح الدلالة في ذلك.

وفي نفس السياق صدور التوقيع المبارك بلعن الحلاج ، وطعن الشيخ الصدوق ووالده (عليهما الرحمة) على الحلاج وأتباعه الذي تقدم تحت عنوان : (سبب دخول التصوف إلى التشيع على يد الحلاج) يأتي في خضم الفصل بين التصوف والتشيع ، وعدم التشابه بينهما فضلا عن عدم كونهما حقيقة واحدة.

(١) يقول الهجویری (ت: ٤٦٥هـ): قد رأيت في بغداد وحواليها كثيرا من أهل الزندقة يدعون الانتساب للحلاج ، ويجعلون أقواله دليلا على زندقته ، ويسمون أنفسهم الحلاجية. كشف المحجوب، ص ١٨١.

(٢) تصحيح اعتقادات الإمامية، ص ١٣٤.

الحديث الموضوع عند الآملي

من الأمور الواضحة عند الجاحدين لمناقب أهل البيت عليهم السلام أنهم وضعوا أحاديث موضوعة مشابهة للأحاديث الواردة في فضائل أهل البيت عليهم السلام، وعلى سبيل المثال روي في مصادر المسلمين من الخاصة والعامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال - ورد بألفاظ مختلفة - : لمبارزة علي (أو قتل علي) لعمر بن عبد ود (أو ضربة علي يوم الخندق) أفضل (أو خير) من عبادة الثقلين أو أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة^(١).

ولكن حيدر الآملي نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : (جذبة من جذبات الحق تعالى توازي عمل الثقلين)^(٢).

مع أن هذا الحديث لم يرد في مصادرنا ، ولم يرد في المصادر الحديثية عند العامة أيضا ، وإنما ورد في تفسير الصوفي الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ) مرسلا من غير ذكر السند و لا المصدر^(٣) ، والآملي ذكره على طريقة الرازي مجردا من السند والمصدر.

١ (مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، ج٢، ص٣٢٧ . المستدرک علی الصحیحین ، حديث : (٤٢٩٥) . كنز العمال، حديث: (٣٣٠٣٥) وغيرها.

٢ (نص النصوص، ص٦٤٧.

٣ (انظر تفسير الرازي، ج٤، ص١٧٦.

وبحسب تتبعي لم ينقل هذا الحديث في الأوساط الشيعية سوى الآملي في كتبه، وملا صدرا في (الحكمة المتعالية) ، ولكن نقله في طيات كلامه ولم يجعله حديثا حيث يقول : (بجذبة ربانية توازي عمل الثقلين)^(١).

الأوامر الإلهية للآملي !

يقول حيدر الآملي : وذلك أن تعرف أن الله تعالى لما أمرني بترك ما سواه والتوجه إليه حق التوجه ألهمني بطلب مقام ومنزل أسكن فيه وأتوجه إلى عبادته وطاعته بموجب أمره وإشارته مكان لا يكون أعلى منه ولا أشرف في هذا العالم . فتوجهت إلى مكة شرفها الله تعالى بعد ترك الوزارة والرئاسة والمال والجاه والوالد والوالدة وجميع الأقارب والأخوان والأصحاب ولبست خرقة ملقاة خلقا لا قيمة لها وخرجت من بلدي الذي هو الآمل والطبرستان من طرف خراسان وكنت وزيرا للملك الذي كان بهذا البلد وكان من أعظم ملوك الفرس لأنه كان من أعظم أولاد كسرى وكان اسمه الملك السعيد فخر الدولة ابن الملك المرحوم شاه كيخسرو طيب الله ثراهما وجعل الجنة مثواهما وكان عمري في هذه الحالة ثلاثين سنة^(٢).

(١) الحكمة المتعالية، ج ٩، ص ١١٩.

(٢) نص النصوص، ص ٦٤٧.

إن هذا اللون من الشناء على الذات ، ودعاوى الاتصال بالسماء وغيب الغيوب ، وتلقي الأوامر من الله تعالى ونحو ذلك من الأمور المتعارفة في مصنفات مشايخ الصوفية للتغريب بأتباعهم ومريديهم ، فلم يكن الآملي مبتكرا لمضمار تقديس ذاته والثناء عليها ، وإنما جري وتقليد لما كان عليه أكابر الصوفية .

فتوحات ابن عربي وفتوحات الآملي

يقول حيدر الآملي : إن مكة كما صارت موجب الفتح للفتوحات المكية على قلب الشيخ الأعظم بليلة واحدة والمدينة سبب الفتوحات المدنية كذلك وعلى قلوب أمثاله من عباد الله تعالى كثيرا ، صار المشهد المقدس الغروي الذي هو مشهد مولانا وسيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موجب الفتح للفتوحات الغيبية على قلبي إجمالا ثم تفصيلا منها : (تأويل القرآن الكريم) وغيره من الكتب كما سبق بيانها في الفهرست ومنها (حقائق فصوص الحكم ومعانيه ومعارفه) هذه على ما ينبغي من غير عمل سابق ولا سبب لاحق بل لمجرد التوجه إلى جنبه والاستدعاء من حضرة جلت قدرته وعظمت منته^(١).

إن حيدر الآملي لم يكن متأثرا بأفكار ابن عربي فحسب ، وإنما متأثر حتى في مكاشفاته ، ويمكن أن نعبر عنه وهم المكاشفات على نمط ابن عربي !

(١) نص النصوص، ص ٦٤٦.

رسول الله وابن عربي والآملي كل واحد له كتابان !!

يقول حيدر الآملي : كان للنبي ﷺ كتابان : النازل عليه والصادر منه . أما الكتاب النازل فالقرآن وأما الكتاب الصادر فالفصوص وبيننا أنهما عديما المثال والنظير في نوعيهما وانحصار نوعيهما في شخصيهما وأما الشيخ الأعظم فقد بينا أيضا أن له كتابين : الواصل إليه والصادر منه . أما الكتاب الواصل إليه ، فالفصوص وأما الكتاب الصادر منه فالفتوحات . وبيننا أنهما عديما المثال والنظير في نوعيهما وانحصار نوعيهما في شخصيهما .

وأما الذي لنا فذلك أيضا كتابان : الفائض علينا والصادر منا أما الكتاب الفائض علينا فهو التأويلات للقرآن الكريم المشتمل على العلوم والمعارف الإلهية القرآنية من أنفسها وأشرفها المحتوي على الرموز والكنائات المصطفوية والدقائق والحقائق المحمدية الصادق عليها ما قال الحق في حق بعض عبيده الخاصين : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ومن ثم صار هذا الكتاب موسوما بالمحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم . وصار مرتبا على مجلدات سبعة كبار تبركا بسبعة من الأنبياء الكبار وبسبعة من الأقطاب وبسبعة من الأبدال بحيث تكون مقدماته مع الفاتحة مجلدا واحدا وكل سدس منه أي من القرآن الكريم مجلد آخر وهذا كالفصوص بالنسبة إلى الشيخ الأعظم وكالقرآن بالنسبة إلى النبي وترتيبه أنه مرتب على تسعة عشر من المقدمات والدوائر لأن المقدمات سبعة والدوائر اثنا عشر تطبيقا أي مطابقة بالعالم الصوري والمعنوي والكتاب

(٢٩ ألف) الأنفسي والكتاب القرآني فإن كل واحد واحد من هذه العوالم والكتب منحصر في تسعة عشر مرتبة لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾^(١) وتحقيق هذه الأمور كلها يعرف من الاطلاع عليه يعني على هذا الكتاب وعلى ما في ضمنه . وأما الكتاب الصادر منا فهذا الشرح وإن لم يخل من الفيض فإنه أيضا جامع لعلوم كثيرة ومعارف جمّة . وهو مرتب كما بيناه على سبعة وعشرين دائرة مجدولة وعلى أبواب وفصول متنوعة وأنواع وأقسام متعددة وهو بإزاء الفصوص بالنسبة إلى النبي ﷺ وبإزاء الفتوحات بالنسبة إلى الشيخ الأعظم ولذلك وقعا عديمي المثل والنظير في نوعيهما وانحصار نوعيهما في شخصيهما ككتائيهما وكما صار أساس فضيلة نبينا ﷺ مبنا على الكتابين المذكورين صار أساس فضيلة الشيخ الأعظم مبنا على الكتابين المذكورين صار أساس فضيلتنا مبنا على الكتابين المذكورين^(٢).

إن الوهم والخرافات بلغت منتهاها في هذه الأسطر المحدودة مما تجعل العاقل متعجبا متحيرا من أمر كاتبها ، ولكن الواقع يحتم علينا أن لا نعجب من الصوفية وأفعالهم الفظيعة وأقوالهم الغريبة وإن كانوا ينتمون لدائرة أتباع أهل البيت ﷺ .

(١) سورة المدثر: ٣٠ .

(٢) نص النصوص، ص ١٤٨-١٤٨.

تفسير الآملي

يقول حيدر الآملي : في هذه المدة الطويلة التي هي ثلاثون سنة كاملة فرغت أيضا من تأويل القرآن الكريم الموسوم ب (المحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم) المرتب على سبع مجلدات كبار بإزاء تأويل الشيخ الأعظم نجم الدين الرازي المعروف ب (دايه) قدس الله سره فإنه رتب كتابه على ست مجلدات كبار بعد تسميته ب : (بحر الحقائق ومنبع الدقائق) ونحن أردنا أن يكون لنا تفسير على قرنه من كل الوجوه وبمقتضى الحديث الوارد فيه أيضا : إن للقرآن ظهرا وبطنا ولبطنه بطنا إلى سبعة أبطن وبمقتضى اشتماله أي القرآن الكريم على السبعات المعلومة وغير ذلك مما أوجب ترتيبه عليها واشتهر ذلك التفسير في أكثر الأقاليم والبلدان وتحققت صورته عند أعظم أهل التحقيق والعرفان وتقرر بينهم أنه عديم المثل والنظير لا سيما في علوم القرآن وأنه ليس بكسب ولا اجتهد بل إفاضة غيبية بطريق الكشف من حضرة الرحمن^(١).

إن الآملي يعرب عن تفسيره ويبين حقيقته أنه عبارة عن : (إفاضة غيبية بطريق الكشف من حضرة الرحمن) كما في الكلام المتقدم ، وأيضا أسفر عن كشفه في تأويل القرآن في كتابه (نص النصوص) كما يقول : ففاض على قلبي من الله تعالى ومن حضراته الغيبية في هذه المدة غير ما قلته من (تأويل القرآن) و(شرح الفصوص) من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق التي لا يمكن

(١) نص النصوص، ص ١٢٤.

تفصيلها بوجه من الوجوه لأنها من كلمات الله الغير القابلة للحصر والعد والانتهاء والانتقطاع^(١).

إن للقرآن الكريم ظهرا وبطنا ولباطنه بطنا كما ورد في الأحاديث^(٢) ، ولا ننفي تلك المعاني ولا الأحاديث ، ولكن كلامنا فيمن يمكنه معرفة تلك البطون ، بمعنى هل هذا خاص بأهل البيت عليهم السلام دون غيرهم ، وهم أهل العلم على نحو الخصوص في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣) أم أنه يعم غيرهم من العلماء ؟

وبغض النظر عن الخصوص والعموم في الآية المباركة أن الأملي فسر القرآن الكريم بالمكاشفات كما هو يقول ، في حين أن المكاشفات تأويلها للقرآن

(١) نص النصوص، ص ٦٤٨.

(٢) يقول الفيض الكاشاني رحمته الله : روت العامة أيضا عن النبي صلى الله عليه وآله : (أن القرآن أنزل على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع) . وفي رواية أخرى : (أن للقرآن ظهرا وبطنا ولباطنه بطنا إلى سبعة أبطن) . وربما يستفاد من هاتين الروايتين أن الأحرف إشارة إلى بطونه وتأويلاته ... ومن طريق الخاصة ما رواه في الخصال بإسناده عن حماد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام إن الأحاديث تختلف منكم ، قال: فقال : (إن القرآن نزل على سبعة أحرف وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه) . ثم قال : هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وهذا نص في البطون وتأويلات . ورووا في بعض ألفاظ هذا الحديث أن هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرؤوا بما تيسر منه . تفسير الصافي، ج ١، ص ٥٩.

(٣) سورة آل عمران : ٧ .

الكريم لا دليل عليه ، هذا فيما إذا قلنا إن الآملي حصلت له مكاشفات إلهية في تأويل الآيات ، وكان فهمه للمكاشفات صحيحا ، فما بالك إذا لم نرتضِ مكاشفاته ولم تقبل تفسيرها ، ومن ثم إسقاطها على تأويل القرآن الكريم ، ناهيك عما إذا أردنا التشكيك بأصل موضوع الكشف.

ولكن يبدو أن الآملي أول القرآن الكريم وفق مكاشفات وتأويل الصوفي نجم الدين الرازي ، وتأثر بتأويلاته كما كان متأثرا بفكر ابن عربي وأقواله وحتى مناماته ومكاشفاته ، وهذا ظاهر للعيان لكل من طالع على أقل تقدير (جامع الأسرار ومنبع الأنوار) و (نص النصوص في شرح الفصوص) وكما وصفه صاحب رياض العلماء : جمع فيه بين الأقوال المتعارضة المتضادة للصوفية وتوجيه كلماتهم المعارضة المناقضة للشريعة الحقة وفيه فوائد نافعة وحشو كثير من مطالب الصوفية ضائعة^(١).

ومن هنا يتضح قيمة التفاسير الموسومة بالعرفانية وعلى أي نمط كانت ، وضمن أي دائرة من الفرق نشأت وظهرت.

ولا تعجب فليس الآملي هو الوحيد الذي صنف تفسيره من خلال المكاشفات وإنما سبقه من قبله شيخ الإشراق السهروردي وصنف حكمة الإشراق من خلال الكشف والنفث أيضا !

يقول السهروردي : وسيعلم الباحث فيه أنه قد فات المتقدمين والمتأخرين ما يسر الله على لساني منه وقد ألقاه النافث القدسي في روعي في يوم عجيب

(١) رياض العلماء، ج٢، ص٢٢١.

دفعة وإن كانت كتابته ما اتفقت إلا في أشهر لموانع الأسفار وله خطب عظيم ومن جحد الحق ، فسينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾^(١) ولا يطمعن أحد أن يطلع على أسرار هذا الكتاب دون المراجعة إلى الشخص الذي يكون خليفة عنده علم الكتاب^(٢).

الله أمر الأملي بشرح الفصوص !

يقول السيد حيدر الأملي : أمرني الحق ب (شرح فصوص الحكم) الذي هو منسوب إلى رسول الله وأعطاه للشيخ الأعظم محيي الدين بن العربي في النوم وقال له أوصله إلى عباد الله المستحقين المستعدين^(٣).

وهذا الأمر على طريقة أمر ابن عربي بكتابة (الفتوحات المكية) حيث يقول ابن عربي : شغلنا هذا الكتاب أي الفتوحات المكية عنه وعن غيره بسبب الأمر الإلهي الذي ورد علينا^(٤) في تقييده مع رغبة بعض الأخوان والفقراء في ذلك حرصاً منهم على مزيد العلم^(٥).

(١) سورة آل عمران : ٤ .

(٢) شرح حكمة الإشراق، ص ٢٥٨.

(٣) نص النصوص، ص ٦٤٩.

(٤) أي أن ابن عربي شغله كتاب (الفتوحات المكية) عن كتاب (إنشاء الدوائر) وغيره من الكتب بسبب الأمر الإلهي - كما يقول - بكتابة (الفتوحات المكية) .

(٥) الفتوحات المكية، ج ٢ ص ١٢٠.

وأیضا نظیر ما تحدث به أبو حامد الغزالي عن نفسه : بلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة وهذه حركة قدرها الله تعالى وهي من عجائب تقديراته التي لم يمكن لها انقذاح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يمكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما يخطر إمكانه بالبال أصلا ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأنا أعلم أنني وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت ، فإن الرجوع عود على ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، وأنا الآن أعود إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي يعلم الله ذلك مني وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أصل إلى مرادي أم اخترت دون غرضي ؟ ولكنني أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وإنني لم أتحرك ولكنه حركني ، وإنني لم أعمل لكنه استعملني^(١).

ولا أدري أني لأبي حامد الجزم واليقين أن الله ﷻ حركه واستعمله ؟! ولربما كان المحرك له حب الجاه ، كما كان المحرك له في السابق ، أو الوهم والاشتباه ، أو نزغ الشيطان ، بل هذا مما يجزم به كل من يطالع أفكاره ويعرف مدى مخالفتها للدين وتأیيدها للتصوف والضلال.

(١) المنقذ من الضلال، ص ٥٢.

الله أمر الأملي بإخراج كتبه لخواص عباده !

يقول حيدر الأملي : وجب الرجوع إلى العراق وإلى المكان المألوف الذي هو المشهد المقدس الغروي سلام الله تعالى على مشرفه فرجعت بالسلامة إليه وسكنت فيه مشغلا بالرياضة والخلوة والطاعة والعبادة التي لا يمكن أن يكون أبلى منها ولا أشد ولا أعظم . ففاض على قلبي من الله تعالى ومن حضراته الغيبية في هذه المدة غير ما قلته من (تأويل القرآن) و (شرح الفصوص) من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق التي لا يمكن تفصيلها بوجه من الوجوه لأنها من كلمات الله الغير القابلة للحصر والعد والانتهاء والانقطاع فأمرني الحق بإظهار بعض ذلك على عبيده الخواص فشرعت في تصنيف كتاب في التوحيد وأسراره على ما ينبغي فكتبته في أدنى مدة وسميته ب (جامع الأسرار ومنبع الأنوار) ثم بعده في (رسالة الوجود في معرفة المعبود) ثم بعدها في (رسالة المعاد في رجوع العباد) . ثم بعدها في رسائل وكتب إلى أن بلغت أربعين رسالة وكتابا عربية وعجمية^(١)

إن حيدر الأملي متأثر بفكر ابن عربي أشد التأثر حتى في مكاشفاته وأقواله ؛ ولذا كان حين التكلم عن مكاشفاته - كما هو يقول - ومؤلفاته يسوق الكلام وفق سياقات ابن عربي ، فهذا كلامه مثلا يشبه ما قاله ابن عربي في فصوص الحكم : فإنني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم

(١) نص النصوص، ص ٦٤٨.

سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب ، فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله وأولى الأمر منا^(١).

ثبوت ولاية الأملي بالمنامات !

إن حيدر الأملي يستدل على ثبوت الولاية له من خلال منامات رآها ، إذ إنه يسرد مناماته ومن ثم يدل على ولايته من خلالها ، حيث يقول : اعلم أي كنت في حالة السلوك بأصبهان وكنت عازما على السفر إلى بغداد لزيارة المشاهدة المقدسة للائمة وزيارة الأولياء والمشايخ وزيارة بيت الله الحرام على سبيل الوجوب والمجاورة به فرأيت ليلة من الليالي في النوم أنني واقف في وسط سوق البزازين به وأشاهد جسمي على الأرض مرميا محدودا بالطول وهو ميت ملفوف بالكفن الأبيض وأنا أتفرج عليه وأتعجب من هذا : بأني كيف كنت واقفا وكيف أمسيت مرميا ؟ حتى انتبهت من ذلك وكان هذا في ابتداء الموت الإرادي ولسلوك الروحاني لقوله ﷺ : (موتوا قبل أن تموتوا)^(٢) وقول

(١) فصوص الحكم، ص ٩.

(٢) لم يرد في مصادرنا الأولية - مثل مصنفات الشيخ الكليني والشيخ الصدوق والشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي (أعلى الله مقامهم) ونحوها من مصنفات القرون الأولى في الإسلام مثل كتاب (المحاسن) و (بصائر الدرجات) - ولا الثانوية المتأخرة مثل كتاب (وسائل الشيعة) و (بحار الأنوار) . نعم العلامة المجلسي رحمه الله في البحار عبر عنه بالقليل .

الحكيم : مت بالإرادة تحيى بالطبيعة وقوله : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(١) .. والحمد لله على هذا فإنه كان سبب الحياة الأبدية والدولة السرمدية ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(٢). ورأيت مرة أخرى أيضا في أصبهان أني قاعد على دكان بعض الأصحاب في ذلك السوق وعلى كتفي ظرف من الرصاص المذهب كظرف بعض السقائين الذين هم يدورون على الناس ويسقونهم وله أي لهذا الظرف رأس ذو وضع غريب معمول على شكل الظروف الكبار من الطين . وأنا أسقي منه الحاضرين هناك . وأنا أنفرج على نفسي : بأني كيف أنا قاعد وكيف أنا قائم ؟ وكيف أسقي وكيف أشرب وكل ساعة أضحك وأتعجب من هذه الصورة الغريبة والحالة العجيبة حتى انتبهت من النوم وكان ذلك سبب انكشاف معارف كثيرة وحقائق جلية من المعارف الإلهية والحقائق الربانية

(ج ٦٦، ص ٣١٧) ، وتارة أخرى وصفه بالحديث المشهور . (ج ٦٩، ص ٥٩) ، وقد ذكره العلامة النمازي رحمته الله في (مستدرک سفينة البحار) على أنه حديث ، مجردا من السند والمصدر ، وغيره من الأعلام الذين عاصروا العلامة النمازي أيضا ذكروه في كتبهم من غير ذكر السند ولا المصدر ، ولربما اعتمادا على الشهرة ، أو اعتمادا على وصف العلامة المجلسي رحمته الله : (حديث مشهور) ولم يلحظوا وصفه الآخر الذي عبر عنه : بالقليل ، كما أنه لم يرد في مصادر العامة ، وإن كان مضمونه صحيحا حيث يشار به إلى إماتة الشهوات المحرمة وما من شأنها حجب الإنسان عن رقيه وكماله . وهو مشهور في مصنفات الصوفية وكتبهم بصيغة حديث والله أعلم.

(١) سورة الأنعام : ١٢٢.

(٢) سورة الصافات : ٦٠ - ٦١ .

ورأيت أيضا مرة أخرى أنني جالس ورأسي في يدي وهو مقطوع من غير علمي بقطعه وأدوره على يدي وأتفرج عليه وأضحك كل ساعة أيضا من هذه الصورة العجيبة حتى انتهت وكان هذا أيضا سبب وصولي إلى كنوز كثيرة من الجواهر العلوية ونقود جمّة من الموائد الغيبة بطريق الفيضان والكشف وكنت سمعت أبي في مثل هذا النوم يعطى بحكم التعبير لصاحبه ألف دينار لا أقل ولا أكثر وقد حصل ذلك من بعض السلاطين الصوريين من غير تأجيل ولا تأخير بحسب الظاهر ولكن بحسب الباطن حصل من السلطان المعنوي الحقيقي الذي هو الله تعالى ألف مسألة معتبرة من طريق الشهود والمكاشفات كانت هي أصفى من الذهب المصفى وأنقى من الجواهر الموعودة في الجنة الأعلى ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١) ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٢) وأمثال ذلك جرت كثيرة لنا ولأصحابنا العارفين كذلك وهذا وأمثال هذا ليس ببعيد منهم ولا منا ولا من الله تعالى ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^(٣) والمراد من ذكر أمثال ذلك هاهنا هو إثبات قول الشيخ الأعظم من الذي سبق في إثبات ولايته في النوم^(٤).

إن الولاية من شطحات الصوفية التي ذكرها ابن عربي ومن تقدم عليه من الصوفية ، وهذا الآملي كان منقادا ومصدقا لخرافاتهم ودجلهم من الولاية

(١) سورة الجمعة : ٤ .

(٢) سورة فصلت : ٣٥ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٠ .

(٤) نص النصوص، ص ١١٢-١١٣.

وغيرها من البدع . وهي (الولاية) مقام للإنسان الكامل كما هم يزعمون ، ومعناها عند الآملي وغيره من الصوفية أنها باطن النبوة وصاحبها تكون منزلته دون مرتبة النبوة^(١) .

إن حيدر الآملي مؤمن بفكرة الولاية عند ابن عربي ، ومؤمن أنها تكون بالمنامات وطبق عليها مناماته الشريفة!

من يصدق بثبوت ولاية الآملي بهذه المنامات أو يصدق أن هذا الرجل سليم الفكر سديد النظر عليه أن يتهم عقله ويتوق إلى رشد.

النبوة التشريعية والإنبائية

قسم الصوفية النبوة إلى قسمين ، نبوة تشريع ونبوة إنباء ، يقول ابن عربي : (الرسالة والنبوة أعني نبوة التشريع ورسالته) ، والقيصري عند شرحه للفصوص يقول : إن النبوة والرسالة تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالتشريع وقسم يتعلق بالإنباء عن الحقائق الإلهية وأسرار الغيوب وإرشاد العباد إلى الله من حيث الباطن وإظهار أسرار عالم الملك والملكوت ، وكشف سر الربوبية المستترة بمظاهر الأكوان لقيام القيامة الكبرى وظهور ما ستره الحق وأخفى^(٢) .

(١) انظر جامع الأسرار، ص ٣٨٥ وص ٣٨٦ .

(٢) شرح فصوص الحكم، ص ٤٣٨ .

وقد جاء عرفاء الشيعة المتأثرون بالصوفية على هذا النمط من التقسيم وقسموا النبوة إلى قسمين أيضا ، فخذ على سبيل المثال الشيخ حسن زاده آملي يقول : النبوة التشريعية قد ختمت بالرسول الخاتم محمد ﷺ فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة وأما النبوة الإنبائية المسماة بالنبوة العامة والنبوة التعريفية والنبوة المقامية أيضا فهي مستمرة إلى الأبد يتنفع من تلك المادبة الأبدية كل نفس مستعدة لأن تسمع الوحي الإنبائي فافهم^(١).

وقد حاول زاده آملي إقامة الشواهد الحديثة على النبوة الإنبائية من خلال جملة من الأحاديث كلها لا تسعف المدعى ، سوى التنظير والتصحيح لما جاء به الشيخ الأكبر - كما يقولون - وكأنه لا يجيء إلا بالحق ، ولم يبق لهم سوى التنظير له من الدين والشرع !

إن الصوفية وعرفاء الشيعة المتأثرين بهم أضفوا على أنفسهم مقام النبوة من خلال المجيء بمفهوم النبوة الإنبائية ، وأضفوا مقام الإمامة من خلال مفهوم الولي والإنسان الكامل ، الذي ذكره ابن عربي في فصوصه وفتوحاته ، وعبد الكريم الجيلي كتب فيه كتابا تحت عنوان (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) وغيرهم من الصوفية الذين لم تخل كتبهم من هذا المفهوم ، ولم يكن لحيدر الآملي إلا أن يسير على نمط أقرانه وأسلافه الصوفية ، ويخلق لنفسه مقام الولاية ويسوق الرؤى والأدلة المنامية في إثباتها والبرهنة عليها !

(١) ممد الهمم در شرح فصوص الحكم ص ٦٦٣.

لا يمكن شرح معارف الآملي حتى لو صارت البحور السبعة مدادا !

يقول حيد الآملي : والله ثم والله لو صارت أطباق السماوات أوراقا وأشجار الأرضين أقلاما والبحور السبعة مع المحيط مدادا والجن والأنس والمملك كتابا لا يمكنهم شرح عشر من عشر ما شاهدت من المعارف الإلهية والحقائق الربانية الموصوفة في الحديث القدسي (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) المذكورة في القرآن ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) ولا يتيسر لهم بيان جزء من أجزاء ما عرفت من الأسرار الجبروتية والغوامض الملكوتية^(٢).

إن الصوفية غالوا في مشايخهم ، ومشايخ الصوفية غالوا في ذواتهم ومصنفاتهم؛ فمن أسباب غلو مشايخ الصوفية هو أنه كان بسبب غلو مرديهم وإكبارهم المنقطع النظير لهم ، حتى إنهم يطيعونهم طاعة عمياء من غير تأمل وتلكأ ، ومن الواضح جدا أن مشايخ الصوفية لهم الدور الكبير في التأسيس لهذه الطاعة بل جعلوها طاعة لله تعالى ، كما ذكرت أقوالهم وإرشاداتهم في ذلك عند مقولة (من لا شيخ له فشيخه الشيطان) .

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ١٤٤.

ومن أكبر أسباب غلو مشايخ الصوفية في ذواتهم ، وصدور الكلام الذي يُعظم شأنهم ذلك التعظيم الجسيم ، كمثل هذا الكلام المذكور للآملي ، وقول عبد القادر الجيلاني أيضا على سبيل المثال : من رأيي استغنى عن السؤال في كل حال ومن لم يرني فلا ينفعه السؤال وهو محجوب بالمقال^(١) . هو بسبب غلبة الوهم عليهم وتصور أموراً خيالية لا واقع لها .

يقول العلامة المجلسي رحمته الله : لا بد أيضا أن لا يضعف العقل لأنه المدار لتمييز الأمور ومتى ما ضعف فسرعان ما ينخدع بأهل الباطل كما أن أحاديث ترك اللحم تشعر إلى هذا الأمر وحسب الظاهر أن الشيطان وسوس لبعض الصوفية ترك أكل اللحم المخالف لطريقة الشرع فبعد ما بقوا أربعين يوما في جحر وضعفت قواهم تستولي على عقولهم الأوهام والتخيلات فيتصورون أموراً خيالية كالمریض المبتلى بالهذيان ويزعمون أنها كمالات تضعف عقولهم وكذلك يصدقون كل ما قاله مرشدهم وشيخهم لازدياد قوة الوهم وضعف العقل فيهم لمكتهم في ذلك الجحر مدة طويلة وكذلك يصدقونه بعد ما خرجوا فلو قال لهم إني ذهبت في الليلة الماضية إلى العرش خمس مرات لصدقوه من دون برهان وهذا كله من ضعف العقل^(٢) .

(١) الفيوضات الربانية، ص ١٠.

(٢) عين الحياة، ص ٣٧٦.

غلو الصوفية والآمل في ذواتهم

إن من الأمور الشائعة في مصنفات الصوفية - سواء الذين يحسبون على العامة أو على أتباع أهل البيت عليه السلام - هو تفشي كلمات الغلو والإكبار لذواتهم ، وهذه نماذج - أخرى مضافا لما تقدم - من تضخم الأنا عند عرفاء الصوفية والتبجيل لشأنهم ومؤلفاتهم :

يقول أبو يزيد البسطامي : أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيرا جسمه من الأحذية وجناحاه من الديمومية فلم أزل أطيّر في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة فلم أزل أطيّر إلى أن صرت في ميدان الأزلية فرأيت فيها شجرة الأحذية - ثم وصف أرضها وأصلها وفرعها وأغصانها وثمارها - ثم قال : فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة^(١).

ويقول الحلاج : لو ألقى مما في قلبي ذرة على جبال الأرض لذابت ، وإنني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار ، ولو دخلت الجنة لانهدم بنيانها . ثم أنشأ يقول :

عجبت لكلي كيف يحمله بعضي ومن ثقل بعضي ليس تحملني
لئن كان في بسط من الأرض فقلبي على بسط من الخلق في قبض^(٢) (٣)

(١) اللمع في التصوف، ص ٣٨٤.

(٢) أخبار الحلاج ، ص ٣٢ .

(٣) أخبار الحلاج ، ص ٣٢ .

ويقول ابن عربي : لما كانت أحكام محمد ﷺ عند الله تخالف أحكام سائر الأنبياء والرسل في البعث العام وتحليل الغنائم وطهارة الأرض واتخاذها مسجدا وأوتي جوامع الكلم ونصر بالمعنى وهو الرعب وأوتي مفاتيح خزائن الأرض وختمت به النبوة عاد حكم كل نبي بعده حكم ولي فأنزل في الدنيا من مقام اختصاصه واستحق أن يكون لولايته الخاصة ختم يواطئ اسمه اسمه ﷺ ويحوز خلقه وما هو بالمهدي المسمى المعروف المنتظر^(١).

والقيصري عند شرح لكلام ابن عربي يقول : إشارة إلى نفسه رضي الله عنه والله أعلم بحقائق الأمور^(٢).

أي أن ابن عربي يقصد هو الولي الذي يواطئ اسمه اسمه ويحوز خلقه !!

ويقول ابن عربي أيضا : اتفق لي مع بنت كانت لي ترضع يكون عمرها دون السنة فقلت لها يا بنية فأصغت إليّ ما تقولين في رجل جامع امرأته فلم ينزل ما يجب عليه فقالت يجب عليه الغسل فغشي على جدتها من نطقها هذا شهدته بنفسه^(٣).

ويقول عبد الكريم الجيلي (ت: ٨٠٥هـ) : رأيت جميع الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والأولياء والملائكة العالين والمقربين ، وملائكة

(١) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٥٠.

(٢) شرح فصوص الحکم، ص ٤٤٠.

(٣) الفتوحات المكية، ج ١، ص ٦٧٠.

التسخير ، ورأيت روحانية الموجودات جميعها ، وكشفت عن حقائق الأمور على ما هي عليه من الأزل إلى الأبد وتحققت بعلوم إلهية لا يسع الكون أن نذكرها فيه وكان في هذا المشهد ما كان^(١).

ويقول حيدر الآملي : قد جرى علي إلى حين وصولي إلى مكة ، في هذه الصورة ، أنواع من البليات وأصناف من المجاهدات ، لا يمكن شرحها إلا بمجلدات . ومع ذلك كان في أكثر الحالات جاريا على لساني قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢) وقول العارف المشتاق مثلي وهو قوله :

وأيتمت العيال لكي أراكا	تركت الخلق طرّا في رضاكا
لما حسّ الفؤاد إلى سواكا ^(٣)	فلو قطعني إربا فاربا

ويقول الآملي أيضا : أمرني الحق بتأويل القرآن الكريم فكتبته بعد هذا كله فجاء في سبع مجلدات كبار وسميته ب المحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم . وذلك خرج في غاية الحسن والكمال ، وظهر في

^(١) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ، ص ٢٣٤ .

^(٢) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ، ص ٢٣٤ .

^(٣) نص النصوص ، ص ٦٤٧ .

نهاية البلاغة والفصاحة بعناية الملك ذي العزة والجلال بحيث ما سبقني أحد
بمثله لا ترتيباً ولا تحقيقاً ولا تلفيقاً^(١).

ويقول : اعلم أيها الطالب هداك الله إلى سبيله وأرشدك إلى طريقه أن هذا
الكتاب مشتمل على معظم أسرار الله تعالى وأسرار أنبيائه وأوليائه عليهم السلام
ومشتمل على لبها وخلاصتها وحسنها وأحسنها دقيقتها وجليلها التي لا أذن
لأحد في كشفها وإظهارها إلا عند أهلها ولا إجازة لهلك سرها وكشف قناعها
إلا بين يدي صاحبها الذي هو بعلها لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾^(٢) وأسرار الله تعالى كلها أماناته في أرضه وقلوب أوليائه
كما ستعرفه ، فأوصيك بكتمانها وإخفائها وصية واجبة تحفظ بها نفسك ونفس
غيرك من الضرر العاجل الذي هو القتل أو الصلب أو الرجم والضرر الآجل
الذي هو النار أو السخط أو العذاب لأن الإهمال بالأمر الواجب موجب
للسياسة الشرعية في الظاهر والسياسة الإلهية في الباطن بمقتضى حكمته
ومشيئته و ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٣) . وهذا أمر أمر الله تعالى به عباده
المخلصين من الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبالغ معهم وأمرهم أيضاً أن يأمرؤا بذلك
ويبالغوا فيه . ولذلك لم يزالوا آمرين به مبالغين فيه حتى قالوا إفشاء سر
الربوبية كفر وهتك أستار الإلهوية زندقة . وقالوا لا تضعوا الحكمة عند غير
أهلها فتظلموها ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم . كونوا كالطبيب الشفيق

(١) نص النصوص، ص ٦٤٨.

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

(٣) سورة الأنعام : ٦٩ .

يضع الدواء موضع الداء. وقالوا : شعر فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم . وأقوالهم الشاهدة بذلك وإشاراتهم الدالة عليه أشهر وأظهر من أن تخفى على أحد. ومع ذلك نحن نذكر بعض ذلك استظهارا لك ولغيرك لئلا يهمله أحد ويوقع نفسه في الهلاك الأبدي والشقاء سرمدي . ويكون كلامنا هذا حجة عليه عند الله تعالى يوم العرض والجزاء^(١).

ليته كتم أفكار الصوفية التي يعدها أسراراً ولم يظهرها وكفانا شرها ووزرها.

الحسن البصري ما بين ذم الأئمة عليهم السلام وثناء الآملي

يقول حيدر الآملي : الحسن البصري وهو أيضا من أعظم تلامذته (أي تلامذة أمير المؤمنين عليه السلام) وأكبر مريديه^(٢).

وقد تقدم تحت عنوان : (لقاءات الحسن البصري بالأئمة) ذكرت هناك دعاء أمير المؤمنين عليه السلام عليه ، ووصفه بأنه سامري هذه الأمة ، وأيضا ذكرت كلام الإمام الحسن والسجاد والباقر والصادق عليهم السلام في البصري وذمهم له . ولكن حيدر الآملي يصفه أنه من أعظم تلامذة أمير المؤمنين عليه السلام وأكبر مريديه في حين أن هذا البصري كان من أشد أعدائه ومبغضيه ، وكان ينهى عن القتال مع أمير

(١) جامع الأسرار، ص ١٥٧.

(٢) جامع الأسرار، ص ١٤٢.

المؤمنين ﷺ ، ومن هذا الزلل الفاضح والخلل الواضح لك أن تعرف مدى اشتباهاات حيدر الآملي وتوهماتة.

يقول الفيض الكاشاني رحمه الله في الحسن البصري : كان منافقا مبغضا لأمير المؤمنين ﷺ كان يمنع الناس في مواعظه من امثال أمر أمير المؤمنين ﷺ والقتال معه^(١).

والآملي جاء بحديث يستدل به على أن أصل التصوف من الحسن البصري أخذه من رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ لم يرد في مصادرنا !

ويبدو أنه من موضوعات ومختلقات الصوفية ، بل هو يقر أنه منقول عن مشايخ الصوفية حيث يقول : اعلم أنه قد صح وثبت بحكم النقل عند مشايخ الصوفية والخواص من أهل الله تعالى أن عليا أمير المؤمنين ﷺ دخل على رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأفضلها عند الله وأسهلها على عباده . فقال له ﷺ : عليك يا علي بما نلت ببركة النبوة فقال علي ﷺ ما هذا يا رسول الله ؟ قال ﷺ : ذكر الله تعالى قال علي ﷺ : هكذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون قال رسول الله ﷺ : مه يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : الله الله ثم قال : أنصت يا علي حتى أنا أقول ثلاث مرات وأنت تسمع مني فإذا أنا سكت فقل أنت

(١) المحجة البيضاء، ج١، ص٨٧.

حتى أنا اسمع منك . هكذا لقن رسول الله ﷺ عليا عليه السلام ثم لقن علي الحسن البصري^(١).

وبكل تأكيد نحن نقر أن أصل التصوف يرجع إلى الحسن البصري ، وقد تقدم إثبات ذلك تحت عنوان : (أصل التصوف وأصوله عند العامة) ، ولكن نسبة التصوف لرسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام هو محض افتراء لتصحيح التصوف، ومن أجل الترويج له وإضفاء جانب القبول عليه.

وليس بالشيء الغريب على الآملي أن يستدل بالموضوعات فهذه هي عادته في كتبه ، كما بينت^(٢) الحديث الموضوع الذي جاء به من الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، أو أنه أخذه من نجم الدين داية (ت: ٦٥٤هـ)^(٣) ، ومن ثم سطره في كتبه منسوباً لرسول الله ﷺ : (جذبة من جذبات الحق تعالى توازي عمل الثقلين) !

ولو أحصينا ما ذكره الآملي في كتبه من موضوعات الصوفية وأحاديث العامة لخرجنا بكتاب يمكن وصفه بالأحاديث الصوفية والعامة ، والملاحظ عليه أن تلك الموضوعات يكررها في كتبه ولم يكتفِ بكتاب واحد فمثلاً : (جذبة من جذبات الحق تعالى توازي عمل الثقلين) ذكره في (نص النصوص) وفي (المحيط

(١) نص النصوص، ص ٣٣٥.

(٢) انظر عنوان : (الحديث الموضوع عند الآملي).

(٣) أثنى الآملي على تفسير (بحر الحقائق ومنبع الدقائق) لنجم الدين الرازي المعروف بـ (دايه). انظر عنوان : (تفسير الآملي) .

الأعظم) ، والموضوع المتقدم في نسبة التصوف لرسول الله ﷺ وأمير المؤمنين
عليه السلام : (أن عليا أمير المؤمنين عليه السلام دخل على رسول الله ﷺ فقال له) أيضا
ذكره في (نص النصوص) وفي (المحيط الأعظم) نظير الشاء على نفسه وعلى
مصنفاته ، وذكره لمكاشفاته ونسبة اطلاعه على الغيب ورؤية الملكوت ونحو
ذلك كان متفشيا في كتاباته ولم يقتصر على كتاب أو كتابين.

وقد يُقال أن بعض العلماء وثقوا الحسن البصري فليس الآملي وحده من أثنى
عليه ؟

والجواب عن ذلك أن التوثيق لا يدل إلا على صحة حديثه - مع مراعاة
الموازين الأخرى - لا على حسن حاله ، كغيره من أصحاب الأئمة الضالين
الذين وثق العلماء بعضا منهم ، مما يعني أن حديثهم موثق غير مكذوب على
الأئمة عليهم السلام ؛ فمن جهة حديثهم ونسبته للأئمة يمكن الركون إليه ؛ لأنهم
موثقون لا يكذبون لا أنهم صالحون أخيار يستحقون المدح والثناء ، ولا يخفى
تفصيل قبول حديث المنحرفين قبل انحرافهم والإعراض عنه حال انحرافهم .

ابن الفارض ما بين نظر السيد عبد الأعلى السبزواري والآملي

يقول السيد السبزواري رحمته الله : مما دعا إليه بعض العرفاء كابن الفارض ومحبي الدين والحلاج ونحوهم ، وما نسب إلى بعض الشيخية على ما صرح به في شرح زيارة الجامعة ، فإن كل ذلك خروج عن الحق القويم وابتعاد عن الصراط المستقيم^(١).

أما حيدر الآملي فيعد ابن الفارض من الكاملين ، ويصفه بالشيخ الأعظم إلى غير ذلك من كلمات الثناء وتقديس حيث يقول فيه :

(الشيخ العارف الكامل ابن الفارض المصري قدس الله سره)^(٢).

(الشيخ الإمام الكامل المحقق ، ابن الفارض المصري قدس الله سره)^(٣).

(الشيخ الأعظم الفارض المصري)^(٤).

(ابن الفارض رحمة الله عليه)^(٥).

(١) مواهب الرحمن، ج ٨، ص ٢٢٥.

(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار. ص ٧٠٠.

(٣) نص النصوص، ص ٨٦.

(٤) نص النصوص، ص ٢٠٧.

(٥) أنوار الحقيقة، ص ٣٠٣.

(إشارة الشبلي رحمة الله عليه : (أنا أقول وأنا أسمع ، وهل في الدارين غيري) ما كان إلا في هذا المقام ، ويشهد به أيضا قول الإمام العارف ابن الفارض قدس الله سره^(١) .

(الإمام الكامل الشيخ شرف الدين ابن الفارض المصري رحمة الله عليه)^(٢) .

(نقل عن الشبلي قدس الله سره أنه كان يقول : (أنا النقطة تحت الباء) وإلى هذا أشار الشيخ الكامل ابن الفارض المصري قدس الله سره في قصيدته التائية)^(٣) .

وليس الآملي فقط من يثني على ابن الفارض ، وإنما كل الصوفية والمتأثرين بهم يثنون على ابن الفارض ؛ فهذا الشيخ حسن زاده الآملي يقول : كما قال الشيخ العارف المحقق ابن الفارض قدس الله روحه^(٤) .

^(١) أنوار الحقيقة، ص ٥٨٤ .

^(٢) المحيط الأعظم، ج ٢، ص ٤٢٤ .

^(٣) المحيط الأعظم، ج ٥، ص ٨٢ .

^(٤) (شرح العيون في شرح العيون، ص ٦٨٠ . شرح المنظومة، ج ٥، ص ١٩٠)

ثناء الآملي العجيب على ابن عربي وفصوصه

إن السيد حيدر الآملي أثنى على ابن عربي وفصوصه ثناءً عجيباً يجعل العاقل اللبيب متحيراً مما جاء به من وصف وثناء ، وإليك كلامه بلا مزيد من كلمات الاستغراب والتعجب :

أولاً : في الثناء على ابن عربي وإن كان أيضاً يتضمن في طياته الثناء والإكبار للفصوص ، يقول الآملي : باتفاق أهل الحل والعقد وأرباب العقل والنقل وإجماع أفاضل الدهر من أرباب العلم وأهل الفضل بعد بلوغه إلى غاية درجة السلطنة والخلافة ووصوله إلى نهاية مرتبة العظمة والجلالة بلغ إلى مقام صدق عليه أنه حكيم كامل محقق ووصل إلى مرتبة وافق فيه أصحابها أنه عارف واصل مكمل وتقرر بين أهل الحكمة وأربابها أنه من أعظم الواصلين إلى قواعد الحجج والبرهان وتحقق بين أهل الله وخاصته أنه من أكمل الفائزين بكمال الكشف والعرفان وثبت أن إليه تسند العلوم الشريفة الدنية الإلهية وإلى جنبه تنسب الحقائق الحكمية العقلية البرهانية وأنه المتصف بالفضائل النفسانية الحقيقية بالمواهب الأزلية وأنه المنعوت بالكمالات الكلية الإنسانية بالعطايا الأولية وأنه الذي كشف القناع بذكائه الفطري عن وجوه الأبكار الكشفيات ، ورفع الأستار بصفائه الجبلي عن جمال المخدرات القدسيات بعد أن لانت له صعاب العلوم العقلية البرهانية من غير جد ولا اجتهد ودانت له رقاب الأقسام العربية بالطوع والانقياد وانفتح على قلبه أبواب مفاتيح الغيب من عالم الملكوت وحصل له الاطلاع على معالم التنزيل

من حضرة اللاهوت وصار كشاف (كشاف الحقائق) الكلية من العضلات ومفتاح (مفتاح الدقائق) العقلية من المشكلات مع أنه كان فارسا في ميدان (التجريد) و(الشفاء) و(الإشارات) فائزا بما في ضمن الفصوص و(النصوص) و(الفتوحات) جعله الله تعالى من الراسخين في العلوم الحقيقية والمعارف للدينة ومن الواصلين إلى أعلى الحضرات العلوية والمدارج القدسية لأنه أهل لذلك بالاستعداد الذاتي والصفاء الجبلي ومحل لأمثاله بالاستحقاق الأزلي والعطاء الإلهي^(١).

ويقول : التمهيد الثاني في فضيلة الشيخ قدس الله سره وتفضيله على كل سائر المشايخ من المتقدمين والمتأخرين وكيفية الكتاب الواصل إليه من النبي ﷺ الذي هو الفصوص وفضيلة الكتاب الصادر منه بفيضان الله تعالى الذي هو (الفتوحات المكية) وغير ذلك من الفضائل الحاصلة له إرثا واكتسابا من الله تعالى ومن عبيده الكمل^(٢).

ويصف الآملي ابن عربي : للشيخ الأعظم ابن العربي قدس الله روحه العزيز^(٣).

هذه نماذج من كلماته وإلا لو أردت إحصاءها أجمع لتسع الكلام واستطال.

ثانيا : الشاء على فصوص الحكم وإن كان أيضا يتضمن الشاء على ابن عربي.

(١) نص النصوص، ص ٧.

(٢) نص النصوص، ص ١٩.

(٣) نص النصوص، ص ٦٤٠.

يقول حيدر الآملي : الحق أن مثل هذا الكتاب الشريف العظيم الشأن الوارد على قلب عبده الخاص الذي هو أشرف نوع الإنسان المشحون بالطف الأسرار الإلهية وأنفس المعارف الربانية ، المملوء بأحكام القواعد النبوية وأنفس الأوضاع المصطفوية الجامع للحقائق والمعارف الذوقية الشهودية الحاوي للرموز والدقائق الغيبية الكشفية المنسوب إلى مهبط وحي الله ومحل أسرارهِ المضاف إلى معدن علم الله ومنبع أنواره ، أجل إن مثل هذا الكتاب لا يليق إلا بمثل هذه الحضرة الشريفة العليا ولا يناسب إلا مثل هذه السدة المنيعة العظمى . نفعه الله به وبأمثاله كثيرا فإنه مستحق لذلك ورزقنا من فضله وإنعامه ما نستحقه فإنه لا زال كذلك^(١).

ويقول : قامت طائفة من أرباب التوحيد وخاصته وجماعة من أهل الله وخلاصته والتمسوا مني بالتماس لا مزيد عليه وبمبالغة لا يمكن أبلغ منها أن أكتب لهم شرح كتاب (فصوص الحكم) الذي هو منسوب إلى رسول الله وأعطاه للشيخ الكامل المكمل محيي الحق والملة والدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المغربي الأندلسي الحاتمي الطائي قدس الله سره في النوم ليلة العشر الأخير من المحرم سنة سبع وعشرين وست مائة بمحروسة دمشق وقال له : يا فلان هذا فصوص الحكم خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به كما

(١) نص النصوص، ص ١١٩.

ذكره في أول الكتاب^(١) . فقبل قبول التماسهم والشروع في استدعائهم سألتهم عن سبب هذا الالتماس مني وعن سبب تخصيصه بنا دون غيرنا . فقالوا : أما سبب الالتماس على العموم فبصورتين . الأولى منهما شوقنا وشغفنا إلى تحقيق معاني هذا الكتاب ومعارفه على ما ينبغي فإنه كتاب معتبر ، جليل القدر، عظيم الشأن ، بعيد الفهم . وكيف لا يكون كذلك وهو منسوب إلى نبينا ﷺ الذي هو أعلم أنواع الموجودات والمخلوقات العلوية والسفلية ، وأشرف أصناف المكونات والمبدعات الغيبية والشهادية^(٢) .

ويقول : إن هذا الكتاب (نعني فصوص الحكم) المنسوب إلى النبي ﷺ لا يشرحه حق الشرح إلا الذي يكون (شأنه) في كتاب الله تعالى وكلامه بهذه المثابة . والمناسبة بين الكلامين أي بين القرآن والفصوص معلومة بمقتضى قوله:

(١) ذكر ابن عربي في بداية كتاب الفصوص : فإني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم ، سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب ، فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله وأولى الأمر منا . فصوص الحكم، ص ٩.

والغريب أن شراح الفصوص صدقوا هذه الرؤيا وأخذوها أخذ المسلمات وراحوا يشرحون مفرداتها بكل تسليم وخضوع ! يقول حيدر الآملي : لا شك ولا خفاء أن أرباب التحقيق وأصحاب الذوق بأسرهم سلموا هذا وأقروا به واتفقوا على أن هذا الكتاب وصل إليه من النبي ﷺ على الوجه الذي أخبر به هو في أوله أي في أول الكتاب. نص النصوص، ص ١٠٣.

(٢) نص النصوص، ص ١٢٤.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ وبموجب إشارته : كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله^(١) فحيث كان الحال على هذا المنوال ولم يكن إمكان منعهم عن هذا السؤال قبلت التماسهم والتزمت باستدعائهم^(٢).

ويقول : قبل الشروع في ذلك لا بد من نقل كلامه (أي كلام الشيخ ابن العربي) في هذا الباب الذي ذكره في أول الكتاب (فصوص الحكم) ليتحقق به صورة ولتكون المباحث مبنية على أصل حقيقي وأساس كلي وذلك قوله بعد الخطبة بهذه العبارة : أما بعد : فإني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أريتها في العشر الأخير من المحرم من سنة سبع وعشرين وستمئة بمحروسة دمشق وبيده ﷺ كتاب . فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم خذه وأخرج به إلى الناس فينتفعون به . فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منا كما أمرنا فحققت الأمنية ، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان . وسألت الله أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان وأن يخلصني في جميع ما يرقمه بناني وينطوي عليه جناني بالإلقاء السبوح والنفث الروحي

^(١) يقصد حديث : (ما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبتة وإن سألني أعطيتة) الكافي، ج٤، ص٧٢.

^(٢) (نص النصوص، ص١٢٧).

في الروح النفسي بالتأييد الاعتصامي حتى أكون مترجما لا متحكما ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس المنزه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التليس وأرجو أن يكون الحق تعالى لما سمع دعائي قد أجاب ندائي فما ألقى إلا ما يلقي الحق إليّ ولا أنزل في هذا المسطور إلا ما ينزل الحق به عليّ ولست بنبي ولا رسول ولكني وارث ولآخرتي حارث^(١). فنقول : هذا الكلام بهذه العبارة لا يخلو من وجهين : أما أن يكون واقعا صحيحا بدعوانا ، أو لا يكون واقعا صحيحا بدعوى الخصم . إن كان واقعا صحيحا مطابقا ، فالكتاب (فصوص الحكم) يكون من رسول الله ﷺ ويكون وصل إليه يعني إلى ابن العربي منه على الوجه المذكور من غير خلاف ويكون (فصوص الحكم) عديم المثل والنظير مثل القرآن كما سبق تقريره . وإن لم يكن الكلام واقعا ولا مطابقا ويكون افتراء على النبي وعلى نفسه فحينئذ الكتاب لا بد وأن يكون لأحد إما للنبي أو له أو لغيرهما فإن كان للنبي فالمراد حاصل وإن كان له فهذه فضيلة أخرى ثابتة له مع كل فضيلة ويكون الغرض من نسبته إلى الرسول ترغيب الخلق إليه وتحريضهم لديه وهذا ليس بمذموم عقلا ولا شرعا بل هو محمود عقلا وشرعا^(٢) لأنه من المرغبات المرغبة إلى الله تعالى وإلى طريق عبادته . وإن كان الكتاب لغيره دون الرسول ونسبه إلى نفسه فالكتاب في نفس الأمر معتبر شريف غاية ما في الأمر أن يكون هو في هذه النسبة ملوما مذموما في العرف والعادة . هذا غير قادح في فضيلته

(١) انظر فصوص الحكم، ص ٩.

(٢) بل يكون من الكذب المذموم شرعا وعقلا .

وفضيلة الكتاب وحاشا من صدور مثل هذا من مثله وهذه كلها تقديرات عقلية وفروض تقديرية من حيث التقاسيم العقلية وإلا في الواقع فلا وجود لها جل شأنه عن أمثال ذلك ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(١) هذا وجه . ووجه آخر : وهو أن الشيخ الحاتمي ولي من أولياء الله تعالى والولي لله تعالى لا يقول إلا الواقع لأن صدور الكذب منه مستحيل أما بيان الأول وهو أن الولي الحقيقي لا يقول إلا الواقع فلأن الولي الحقيقي هو الذي يكون الحق تعالى (سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله) بحكم قوله في الحديث القدسي : لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحبته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله فبي يسمع وببي يبصر وببي ينطق وببي يبطش وببي يمشي . وكل من كان الحق تعالى سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله لا يقول إلا الواقع المطابقة الصحيح . وأما بيان الثاني وهو أن صدور الكذب منه مستحيل فقد ثبت بالدلائل العقلية والبراهين القطعية إن الإنسان الكامل أفضل من الملك وأشرف منه وقال تعالى في حق الملك : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢) والإنسان الكامل الذي هو وليه وحييه وخليفته أولى بذلك ويكفي في هذا قصة آدم ﷺ مع الملك وتعليمه لهم وسجودهم له وأعظم الدليل عليه أن أعظم الملك منهم ما وصل إلى مقام نبينا الذي هو أعظم نوع الإنسان لقوله : لو دنوت لاحترت . وأيضا معلوم أن الإنسان جامع لجميع المقامات قوة وفعلا والملك ليس له إلا المقام المعلوم

(١) سورة ص : ٢٧ .

(٢) سورة التحريم : ٦ .

والإنسان الكامل^(١) لا يكون إلا كاملا إذا كان متخلقا بأخلاق الله تعالى متصفا بصفاته لقوله ﷺ : (تخلقوا بأخلاق الله) وكل من يكون متصفا بصفات الله تعالى متخلقا بأخلاقه لا يتصف بالكذب ولا يليق بجنابه مثل ذلك وبسبب أن الصادق الحقيقي في قوله وفعله لا يكون إلا كاملا محفوظا من معصوما من الخلل أمر الله تعالى عبيده بمتابعتهم ومطاوعتهم في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢) والصادق هو الذي يكون صادقا في جميع أقواله وأفعاله لأنه لو لم يكن كذلك يكون صادقا في البعض كاذبا في الآخر وذلك لأن مكان الكذب من النبي والإمام والكمال يرفع الوثوق عن إخباراتهم قولا كانت أو فعلا وتبطل به فائدة بعثته إن كان نبيا وفائدة نصبه إن كان إماما وفائدة إرشاده إن كان كاملا أو عارفا ومن هذا جعل أهل الأصول شرط النبوة والرسالة والإمامة العصمة لأن مع عدم العصمة يثبت وجود المفسد المذكورة سابقا ويقع أمرهم أي الأنبياء والرسل والأئمة مهملا وعبثا وهذا غير جائز عقلا وأيضا لو كان الكذب من أفعال هؤلاء لكان الله آمرا عبيده بمتابعتهم ومطاوعتهم على سبيل الوجوب لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣) وكل من يأمر العبيد بمتابعة غير المعصوم على سبيل الوجوب يكون آمرا بالفسق والقبح والامر بهما يكون فاسقا فاجرا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وعلى الجملة ليس

(١) من أفكار الصوفية البارزة في تعاليمهم وكتاباتهم هي فكرة الإنسان الكامل.

(٢) سورة التوبة : ١١٩ .

(٣) سورة النساء : ٥٩ .

الكذب من أفعال هؤلاء القوم من الأنبياء والرسل والأئمة والخلفاء والشيخ الحاتمي من الأولياء الكبار فلا يكون كاذبا في قوله أصلا وهذا هو المراد وإذا تقرر هذا فلنشرع في إثبات ولايته بالدليل العقلي والشاهد النقلي ليطمئن قلب السامع ونفس المخاطب المعارض بسببه وذلك لا يكون إلا في وجه آخر برأسه وهو هذا وبالله التوفيق^(١).

ومن جملة ما يلاحظ على هذا الكلام أن الآملي يثبت صحة نسبة الكتاب للنبي وعدم كذب ابن عربي ، لكون ابن عربي من الأولياء وأخذ هذا على نحو المسلمات ثم شرع يتكلم عن صفات الأولياء والأنبياء . ومن هنا لك أن تعرف قدر الاشتباه والزلل الذي وقع فيه سواء في توجهه أو في كتبه وأفكاره!!

وقد عقد الآملي في (نص النصوص) عنوانا أثنى فيه على ابن عربي وفصوصه اسماء (الوجه الثاني في إثبات ولاية الشيخ وبيان أنه من أولياء الله الكبار) يقرب من عشرين صفحة ، وعقد عنوانا آخر باسم (في إثبات ولاية الشيخ بفعله الدال عليها وبيان أنه من أولياء الله تعالى وخلفائه في عبادته) يقرب من خمسة وعشرين صفحة تجد في هذين العنوانين من الغلو في ابن عربي وفصوصه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، مما يلفظه اللبيب ويقبله المعتل الغشيم.

(١) نص النصوص، ص ١٠٤.

ذم الآملي الشديد لمنتقدي الفصوص وصاحبها

يقول حيدر الآملي : لا شك ولا خفاء أن أرباب التحقيق وأصحاب الذوق بأسرهم سلموا هذا وأقروا به واتفقوا على أن هذا الكتاب وصل إليه من النبي ﷺ على الوجه الذي أخبر به هو في أوله أي في أول الكتاب . وقد كتبوا له شروحا ومدحوه مدحا لا مزيد عليه وإلى الآن وهم على هذا والحق في طرفهم وليس الحال إلا كما ذهبوا إليه ولكن بعض المحجوبين عن الله تعالى وعن أنبيائه وأوليائه كما هي عادتهم أنكروا عليه ذلك وقالوا : إن هذا كذب منه وافتراء على رسول الله ﷺ وأنه قطعاً لا يمكن هذا وإن أمكن فقد التبس على عينه الشيطان ، وتمثل بصورة النبي ﷺ له إضلالات وإغواء وإفساداً في الدين والإسلام وكل ذلك مهملات وخيالات من الشيخ وليس له أصل ولا محمل يحمل عليه . فأردنا أن نقوم بجوابهم ومعهم ونبين لهم الأمر ليتحققوا أنهم هم في متابعة الشيطان ومطاوعته لا الشيخ وأنهم هم في صدد الخيالات والمهملات والظنون الفاسدة والتوهيمات الكاذبة لا الذي يروي عن النبي ﷺ ويقول عن الله تعالى ولا يتمسك إلا بهما بقولهما وإن شاء الله يكون كلامنا هذا منها بإذن الله تعالى وإشارته وأمره كما أمرنا بقوله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

والدليل على أنه أي كلامنا هذا من الله تعالى هو أن الشراح الذين كانوا قبلنا ما تعرضوا لذلك وما وفقهم الله تعالى به مع أنه كان هذا من جملة الواجبات على أهل الله لأنهم بالحقيقة كنفس واحدة لقولهم : الفقراء كنفس واحدة والحمد لله الذي وفقنا لذلك وهدانا إليه^(١).

ومما يلاحظ عليه أنه يستدل على صحة كلامه بأن الشراح الذين كانوا قبله تقبلوا (فصوص الحكم) وما تعرضوا لنقده مع أن هؤلاء الشراح هم من الصوفية وضمن مسلك ابن عربي وأمثاله ! هذه هي استدلالات الآملي وطريقة استدلاله فلا تعجب.

بل حتى شراح الفصوص لم يسلموا من تطاوله فنجده يقول : اطلّاعنا على الشروح التي كتبت له خصوصا الشرح الذي كتبه الشيخ الإمام المحقق مؤيد الدين الخجندي قدس الله سره والذي كتبه الإمام العلامة كمال الدين عبد الرزاق الكاشي رحمة الله عليه والذي كتبه الشيخ العارف شرف الدين محمود القيصري طاب ثراه فإن هذه الشروح الثلاث لهؤلاء المشايخ الكبار رحمهم الله مع أنها أجود الشروح وأحسنها ما رأيناها مطابقة لأذواقنا في أكثر المواضع ولا موافقة لآرائنا في أغلب المواطن لأنهم وإن اجتهدوا في تدقيقه وتحقيقه وبالغوا في تصريحه وتوضيحه لكن ما دخلوا لجج أزخاره العميقة ولا وصلوا إلى كنه أسرارهِ الدقيقة وصدق عليهم قول الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

(١) نص النصوص، ص ١٠٣.

قَدْرِهِ^(١) وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٢)
ووافق فيهم الذي قيل :

قل للذين قضوا في البحث ثم اطمأنوا وظنوا أنهم فرغوا
الأمر أعظم من مرمى عقولكم كم بالغ الناس في هذا وما بلغوا^(٣)

وهذا التبجيل الجسيم لابن عربي وفصوصه ، والطعن الفظيع فيمن طعن فيه
وشنع على الفصوص خرج لنا نمطا من المتأثرين بالتصوف يسرون على سيرة
الآملي ، ويقتفون أثره في مدح ابن عربي وكتبه ؛ ولذا نرى فيهم من كلام
التمجيد والتبجيل ما لا يقل عما جاء به الآملي مع نفس الأسلوب وطريقة
الاستدلال المعيبة في أروقة العلم .

(١) سورة الأنعام : ٩١ .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

(٣) نص النصوص ، ص ١٤ .

شرح الفصوص علامة الغلو في التصوف

إن السيد محسن الأمين رحمته الله يرى كل شخص شرح (فصوص الحكم) لابن عربي من المغالين بالتصوف ، حيث نراه يتحدث عن السيد حيدر الآملي ويقول فيه : ومن أدلة غلوه في التصوف شرحه لفصوص محيي الدين^(١).

وقد يُقال أن السيد الأمين رحمته الله لم يقصد كل شارح للفصوص هو مغالي بالتصوف ، وإنما يقصد ما جاء به الآملي من عبارات تدل على غلوه بالتصوف.

ولكن عند مراجعة كلام السيد الأمين الذي ذكره قبل هذا الكلام يتبين أنه يقصد مجرد الاهتمام بالفكر الصوفي بأي نحو من الأنحاء سواء كان بشرح أو تعليق أو غير ذلك هو غلو بالتصوف كما يقول : طريقة التصوف إن خرجت عن مجرد الزهد في الدنيا والتفكير في عجائب قدرة الله تعالى فهي من تسويلات الشيطان وهذا السيد - يقصد حيدر الآملي - حاول كما سمعت تطبيق شطح الصوفية وأقوالهم المعارضة المناقضة للشرع على ظاهر الشريعة وما الذي يدعو إلى ذلك وما الفائدة فيه وهل نزلت فيهم آية أو وردت رواية تقدسهم حتى نحتاج إلى تطبيق أقوالهم على ظاهر الشرع وهل جاء التصوف في الشريعة

(١) أعيان الشيعة، ج٦، ص٢٧٢.

الإسلامية وأمر به إمام أو صحابي بشكله الذي ظهر في الإسلام كلا وألف كلا^(١).

وقد ذكرت رأي السيد محسن الأمين رحمته الله ليس للاستدلال على شيء ما ، وإنما كراي من الآراء التي تُذكر في هذا المجال وإن كنت أراه عين الصواب ، لأن أوهام الصوفية وترهاتهم لا تستحق أن تؤخذ بنظر الاعتبار فضلا عن شرحها وتدريسها .

وحدة الوجود عند الآملي

يقول حيدر الآملي : هو ليس بغائب عنكم ، ولا أنتم بغائبين عنه أينما توجهتم ، فثم ذاته ووجهه ووجوده . وهو مع كل شيء وعين كل شيء ، بل هو كل شيء وكل شيء به قائم وبدونه زائل . وليس لغيره وجود أصلا ، لا ذهنا ولا خارجا . وهو الأول بذاته ، والآخر بكمالاته ، الظاهر بصفاته ، والباطن بوجوده ، وأنه للكل مكان ، في كل حين وأوان ، ومع كل انس وجان^(٢).

ويقول أيضا : بالحقيقة إلى هذه المشاهدة أشار تعالى بقوله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ

(١) أعيان الشيعة، ج٦، ص٢٧٢

(٢) جامع الأسرار، ص٢١٣.

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿۱﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿۲﴾^(١) ومعناه ، وإن تقدم ، هو أنه يقول : سأكل عين بصيرتهم بنور هدايتي وتوفيقي يشاهدوني به في مظاهري الآفاقية والأنفسية ، مشاهدة كشف وعيان بحيث يتبين لهم أنه ليس في الوجود ولا في الآفاق ولا في الأنفس إلا آثار أسمائي وصفاتي ومظاهري وكمالاتي ، ويتحققوا أنني أنا الأول والآخر والظاهر والباطن ، وليس لغيري وجود أصلا ، لا ذهنا ولا خارجا . وقال تأكيدا لهذا المعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) على سبيل التعجب والتهكم ، ليعرفوا بالتحقيق أنه على كل شيء شهيد ، أي يتحققوا مشاهدته في كل شيء من الأشياء مشاهدة عيان وكشف . وقال أيضا ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾^(٣) ومعناه أن هؤلاء العباد في شك من لقاء ربهم ، مع هذه المشاهدة الجليلة في مظاهره الآفاقية والأنفسية وأي لقاء يكون أعظم من هذا ؟ ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أي أليس هو محيطا بكل شيء ذاتا ووجودا ؟ وهل يمكن مشاهدة المحيط إلا بوجود محاطه ؟ أي هل يمكن مشاهدة الظاهر إلا بوجود مظهره ؟ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) أي ذلك الكشف والبيان هو التوحيد الحقيقي والدين الحنفي ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ من جهلهم وعمائمهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) سورة فصلت : ٥٤-٥٣ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

(٣) سورة فصلت : ٥٤ .

(٤) سورة يوسف : ٤٠ .

ذلك . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(١)
 مثل الأنبياء والأولياء والأكمل ، لأن هذه المشاهدة ، أي مشاهدة الحق في الخلق
 ومشاهدة الخلق في الحق ، بغير احتجاب بأحدهما عن الآخر ، التي هي
 المشاهدة العظمى والغاية القصوى ، هي مشاهدتهم ومشاهدة أمثالهم من
 الكامل والأقطاب . رزقنا الله تعالى الوصول إليها ! وصاحب هذه المشاهدة
 هو المسمى عند القوم بذو العقل وذو العين ، وبذو العقل والعين معا ، كما
 أشاروا إليه ، وهو قولهم : ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهرا والحق
 باطنا، فيكون الحق عنده مرآة للخلق ، لاحتجاب المرآة بالصورة الظاهرة فيه
 احتجاب المطلق بالمقيد . و (ذو العين) هو الذي يرى الحق ظاهرا والخلق
 باطنا، فيكون الخلق عنده مرآة الحق لظهور الحق عنده واختفاء الخلق فيه
 بالصورة . و (ذو العقل والعين) هو الذي يرى الحق في الخلق والخلق في الحق
 ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر ، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقا من وجه
 وخلقاً من وجه ، فلا يحتجب بالكثرة عن شهود وجه الواحد الأحد ولا
 يزاحم في شهوده كثرة المظاهر أحادية الذات التي تتجلى فيها ولا يحتجب
 بأحادية وجه الحق عن شهود الكثرة الخلقية ولا يزاحم في شهوده أحادية الذات
 المتجلية في المجالى كثرتها . والى المراتب الثلاث أشار الشيخ الكامل محيي الدين
 بن العربي قدس الله سره في أبيات له :

(١) سورة : ق : ٣٧ .

ففي الخلق عين الحق إن كنت ذا عين
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى

وفي الحق عين الخلق إن كنت ذا عقل
سوى عين شيء واحد فيه بالشكل^(١)

ويقول أيضا : إن قلت : هذه كلمات غريبة عجيبة متناقضة ، ما نفهم معناها ولا نجد السبيل إليها ، فقل لنا بوجه أوضح منها ، أو في صورة مثال قريب إلى الذهن ، بحيث نفهمه ونصل منه إلى مقصودنا ومطلوبنا ، لأننا نحن ما نشاهد إلا هذا العالم وهذه الكثرات المتباينة المختلفة التي هي في معرض الزوال والتغير ، وما نعرفها إلا أنها غير الحق وأنها مخلوقة ، وأنت تقول أنها حق ، وأنه ليس في الوجود إلا الحق تعالى ، وكل ذلك مظاهر ، وليس بينه وبين مظاهره فرق في الحقيقة ، وهذا أمر صعب وكلام دقيق ما نعرف معناه ، ولا نفرق بين هذه الكثرات وبين الحق تعالى إلا بالوجه الذي قلناه وبينهما بون بعيد ، قلت : هذا أمر سهل ، وإدراكه في غاية السهولة ، ومعناه في غاية الوضوح ، وقد مر مرارا ذكره . لكن أنت بعد في ظلمات الطبيعة ودركات البشرية ، بل في أسفل سافلي درجات التقليد، الذي هو أعظم الحجب . وبالحقيقة أنت بالنسبة إلى هؤلاء القوم الذين يفهمون هذا المعنى كالجنين المقيد في حبس المشيمة بالنسبة إلى الطفل المميز ، أو كالطفل المميز بالنسبة إلى الشخص العاقل ، أو كالشخص العاقل بالنسبة إلى العالم ، أو كالعالم بالنسبة إلى العارف ، أو كالعارف بالنسبة إلى الولي الكامل ، أو كالولي بالنسبة إلى النبي وبين هذه

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٢٤٩.

المراتب تفاوت كثير . ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) حتى لا يطمع فيه أرباب القشور الذين هم أهل الظاهر وأهل العقول ، لأهم بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء والأكمل الذين هم أولو الألباب كالقشر بالنسبة إلى اللب . ومع ذلك ها نحن نشرع فيه مرة أخرى ، بل مرارا ، بأحسن الوجوه وألطف الأمثلة ، ونجتهد في إيصاله إلى ذهنك ونتكل فيه على الله تعالى . فنقول : اعلم أنك إذا تحققت أن الوجود واحد ، وأنه مطلق غير مقيد ، وأن المقيدات مضافة إليه ، عرفت أن المقيدات ما لها وجود حقيقة ، لأن وجودها إضافة نسبية ، لأنه عبارة عن إضافة المطلق إلى المقيد ، التي (أي هذه الإضافة) لا تحقق لها في الخارج . وعرفت أيضا أن المطلق هو المقيد (بعينه ولكن) بوجه آخر ، وأن المقيد (هو) مطلق مع قيد الإضافة ، و (أنه) ليس في الخارج إلا المطلق ، لأنك لو أسقطت الإضافة بالنسبة إلى جميع الموجودات ، لوجدت الوجود على صرافة وحدته ومحض إطلاقه ، ووجدت المقيد موجودا بالمطلق ، معدوما بدونه . وهذا معنى قولهم التوحيد إسقاط الإضافات . ومثال ذلك بعينه - أي مثال ذلك المطلق مع المقيد ووجوديته ومعدوميته - مثال الشمس مع الظلال الموجودة بواسطتها حين ظهورها وحين خفائها ، لأن الظلال ليس لها وجود إلا بالشمس ، لأن الشمس لو لم تكن ، لم يكن للظلال وجود ، مع أن الشمس إذا ظهرت بنفسها لم يبق للظلال وجود ، فوجودها بالشمس ولكن تغيبها (أي تميزها) عنها بجرمها وشعاعها ، لأنها إذا ظهرت بجرمها وشعاعها ، فنيت الظلال و (تلاشى) وجودها بأسره . وإذا

(١) سورة الزمر : ٢١ .

غابت عنها بالذات والجرم ، وظهرت لها بالأثر ، بقي وجودها على قراره ، وصارت ظلا متعينا به ، أي بوجود الظلية . فالوجود بالحقيقة ليس إلا للشمس واثرها ، والظلال ليس لها إلا الاسم والاعتبار ، والاسم والاعتبار أمران عديمان ، ليس لهما وجود في الخارج . فكذلك وجود جميع الموجودات بالنسبة إلى الحق لأن الحق إذا ظهر بوجوده لم يبق للخلق وجود ، لأن وجود الخلق كما تقدم ليس إلا وجودا إضافيا اعتباريا ، والإضافة والاعتبارية غير موجودتين في الخارج . فالوجود الحقيقي لا يكون إلا للحق^(١).

إن في هذه الكلمات يوجد ما يشير صراحة إلى وحدة الوجود ، بلحاظ عدة معاني واعتبارات ، كما أنه له كلام آخر يدل على وحدة الوجود أعرض عن ذكره روما للاختصار .

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٣١١.

القسم الثاني من المرحلة الثانية لدخول التصوف إلى التشيع

إن المرحلة الأولى في دخول التصوف إلى التشيع كانت متمثلة بالحسين بن منصور الحلاج ، والمرحلة الثانية يمكن تصنيفها إلى قسمين ، القسم الأول كانت متجسدة بالسيد حيدر الآملي ، والقسم الآخر بمحمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بملا صدرا في القرن العاشر الهجري ، وإن كان لا يمكن التغاضي عن دور الخواجة نصير الدين الطوسي رحمته الله (ت: ٦٧٢هـ) الذي كان له شأن في هذا المجال ، وكتابه (أوصاف الأشراف) خير شاهد ودليل على ذلك . ولكن دوره في إدخال الفلسفة إلى العقائد الشيعية كان أبلغ وأشد أثرا من ضم التصوف إليه ؛ لأنه يعد أول من مزج وأدخل الفلسفة إلى العقائد^(١) وذلك في كتابه المشهور (تجريد الاعتقاد) ولم يقتصر على إدخال الفلسفة لعلم الكلام فحسب ، وإنما حرص على انضمامها للتشيع ، حتى أنه كان يعطي لكل من الفلاسفة ثلاثة دراهم يوميا ، ولكل من الأطباء درهمين ، ولكل من الفقهاء درهما واحدا ، ولكل من المحدثين نصف درهم ، لذلك أقبل الناس على

(١) يقول السيد الأمين رحمته الله متحدثا عن ملا صدرا : وهو بهذا الأسلوب من المزج بين الفلسفة والدين والتوفيق بينهما سواء كان مصيبا أو مخطئا كان صاحب مدرسة جديدة أخرى هو المؤسس لها حقا ، وإن كان الواضع لبذرتها الخواجة نصير الدين الطوسي في التوفيق بين الفلسفة والكلام. أعيان الشيعة، ج ٩، ص ٣٢٥.

معاهد الفلسفة والطب أكثر من إقبالهم على معاهد الفقه والحديث^(١) ؛ فلا يتغاضى عن دوره في ترويج وتفشي التصوف والفلسفة في التشيع.

وكان الخواجة غيورا ، شديد الغيرة على الفلسفة والفلاسفة حتى أن الشهرستاني عندما صنف (مصارعة الفلاسفة) انتفض الخواجة وأبت غيرته إلا أن يرد عليه ويكتب في نقضه (مصارع المصارع).

ولكن مع هذا حصر وتصنيف دخول التصوف إلى التشيع بالمرحلتين المتقدمتين لما لهما من دور أساس ورئيسي يمثل نقلة نوعية كبيرة في التشيع ، كما أن جعل ما قام به ملا صدرا تبعا لحيدر الآملي ولم أجعله مرحلة جديدة لأن خطوات الملا كانت سيرا على نهج الآملي من التوفيق بين التصوف والدين ، فهي مرحلة تكميلية ولم تكن تأسيسية في التوفيق .

وقد أشار الملا إلى منهجه التوفيقي في بحث (تجريد النفس) إذ يقول : فلنذكر أدلة سمعية لهذا المطلب حتى يعلم أن الشرع والعقل^(٢) متطابقان في هذه المسألة كما في سائر الحكميات وحاشى الشريعة الحقبة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية وتبا لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة^(٣).

(١) انظر أعيان الشيعة، ج٩، ص٤١٩.

(٢) العقل شيء والفلسفة شيء آخر كما يأتي تحت عنوان : (خرافة العقل هو الفلسفة).

(٣) الحكمة المتعالية، ج٨، ص٣٠٣.

والسيد محسن الأمين رحمه الله له كلام ووصف فيما سعى له ملا صدرا من توفيق بين التصوف والتشيع ، وفي المنهجية التي اتبعها في كتبه حيث يقول : هذه مدرسة أخرى له في المعرفة وهي التوفيق بين الشرع الإسلامي وبين الفلسفة اليقينية وعلى هذا لم يفتأ يستشهد على كل مسألة حكمية عويصة بالآيات القرآنية والآثار الإسلامية وهو بارع حقا في تطبيق ما يستشهد به منها على فلسفته وحاشا أن يكون استشهاده بالأدلة السمعية كما يسميها رياء لغرض دفع عادية المتهمين له بالخروج على الشرع بل هو دائما يتجح بأنه لا يرى أحدا يفهم أسرار القرآن الكريم والسنة كما يفهمهما هو ويبالغ في التوفيق بين فلسفته والدين مبالغة تجعله أبعد ما يكون عن الرياء والدجل حتى يكاد أن يجعل كتبه الفلسفية تفسيرا للدين وكتبه الدينية كتفسير القرآن الكريم وشرح أصول الكافي تفسيرا للفلسفة . ولذا نقول إن كتبه في التفسير وشرح الحديث هي امتداد لفلسفته والحاصل أن الذي نستوضحه من أسلوبه والتأليف أن له فكرة واحدة يسعى إليها جاهدا في كل ما ألف وهي ما تلخصها عبارته المتقدمة من أن الشرع والعقل متطابقان ولهذه الفكرة العميقة جزءان أو طرفان : الطرف الأول تأييد العقل للشرع ، والطرف الثاني تأييد الشرع للعقل . ولكل من الطرفين جعل كتبا : فكتبه الفلسفية ألفها ويستهدف فيها تأييد ما جاء في الشرع الإسلامي بالفلسفة وكتبه الدينية ألفها ويستهدف فيها تأييد ما جاء في فلسفته بالشرع فحق أن نعد كتبه الفلسفية كتبا دينية ونعد كتبه الدينية كتبا فلسفية وهذا معنى ما قلناه أنفا أن كتبه الدينية كانت امتدادا لفلسفته . بل في الحقيقة أن فيلسوفنا له مدرسة واحدة هي الدعوة إلى الجمع بين المشائية والإشراقية

والإسلام هذه العناصر الثلاثة هي عمدة أبحاثه ومنهجه العلمي في مؤلفاته جعلت منه مؤسساً لمدرسة جديدة بكل ما لهذه الكلمة من معنى في الفلسفة الإلهية ويمثلها حق التمثيل من كتبه أسفاره الأربعة^(١).

ملا صدرا بين التوفيق والتأسيس

إن كل سعي وتكلف ملا صدرا يركز على وتيرة واحدة وهي التوفيق بين العرفان الصوفي وبين الدين ، ولم تكن له نظريات جديدة في التصوف تختلف عما جاء به ابن عربي - وبالأخص كتابيه (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) - وإنما كان عاكفاً على موائده مكرراً ومشيداً لها ، نعم كان له تنظير برهاني في صياغة وإعادة قوالب الألفاظ ، ولكن هذا لم يجعله مجذراً ومؤسساً لأصل المعنى والمضمون ، فلا يتصور أن تنظيره البرهاني في حيز اللفظ جعله مبتكراً لمبان ومشيداً للمعان.

(١) أعيان الشيعة، ج ٩، ص ٣٢٤.

كل ما لدى ملا صدرا من ابن عربي

يقول السيد علي القاضي رحمته الله : إن أحدا من الرعية لم يبلغ إلى ما بلغه محيي الدين بن عربي في المعارف العرفانية والحقائق النفسانية بعد مقام العصمة والإمامة... كل ما لدى ملا صدرا هو من محيي الدين وقد جلس على مائدته^(١).

ويقول السيد الطباطبائي رحمته الله : لم يستطع أحد في الإسلام أن يأتي بسطر واحد مما كتبه محيي الدين^(٢).

ويقول الشيخ مطهري رحمته الله : هو أعظم العارفين الإسلاميين لم يصل إلى درجته أحد قبله ولا بعده ولهذا لقب (بالشيخ الأكبر) تكامل العرفان الإسلامي من بدء ظهوره قرنا فقرنا ، في كل قرن وكما أشرنا ظهر بعض العارفين الذين أسهموا في تكامله وزادوه غنى وثراء ، وكان هذا كله تكاملا تدريجيا ، ولكن في القرن السابع وعلى يد محيي الدين العربي تلقى قفزة وصل بها إلى نهاية كماله . أوصل محيي الدين العرفان إلى مرحلة جديدة لم يسبق له بلوغها فأنشأ القسم الثاني من العرفان أي قسمه العلمي والنظري والفلسفي والعارفون من

(١) التوحيد لكمال الحيدري، ج١، ص٢٣٢، عن الكتاب التذكاري، ص٤١.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٣٢، عن المنظومة الشرح التفصيلي لمطهري ج١، ص٢٣٩.

بعده تناولوا فتات مائدته وهو علاوة على هذا من أعاجيب الزمان إنه إنسان عجيب^(١).

ويقول جوادى آملى فى ابن عربى : لا ىرقى إله أحد من بين معارف أهل العرفان ولا له نظير منذ عصره حتى الآن ... لأن جميع ما قاله الآخرون وكتبوه بالعربية والفارسية نثرا كان أو نظما فى الماضى والحاضر يعد بضعة نسبة إلى بحر محبى الدين المواج^(٢).

ويقول الشيخ حسن زاده آملى : إن جميع المباحث الرفيعة والعرشية للأسفار منقولة من الفصوص والفتوحات وبقية الصحف القيمة والكرامة للشيخ الأكبر ابن عربى وتلامذته بلا واسطة أو مع الواسطة ... ثم يقول : إذا ما اعتبرنا كتاب الأسفار الكبير مدخلا أو شرحا للفصوص والفتوحات فقد نطقنا بالصواب^(٣).

ويقول أيضا زاده آملى : إن صدر المتألهين نفسه يذكر فى مواضع عديدة اسم ذلك العظيم بإجلال كما يذكر صحفه العلمية وهو يفعل ذلك بخشوع وتواضع لا يضارع بذكر أحد من أكابر العلماء ومشايخ أهل التحقيق وأعظم أهل الكشف والشهود ولا يشنى على أحد كما يشنى عليه لأنه يعرف أفضل من أى

(١) الكلام والعرفان، ص ٩٩.

(٢) التوحيد لكمال الحيدري، ج ١، ص ٢٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

شخص آخر أن أساس حكمته المتعالية الفتوحات والفصوص وما أسفاره العظيمة إلا شرح تحقيقي لهما^(١).

ومن الملاحظ في هذا المجال أن قول ملا صدرا (في العلم الذاتي الذي أسس له على قاعدة بسيط الحقيقة) : هذا مطلب شريف لم أجد في وجه الأرض من له علم بذلك^(٢).

في حين يرى جوادى آملى أن القاعدة موجودة في نصوص ابن عربى وتلاميذه على نحو واضح ويقول أن ملا صدرا إنما اعتمد على هذه القاعدة^(٣).

ويقول كمال الحيدري : الشيرازى نفسه ينقل كلاما للشيخ الأكبر تأييدا لرأيه يرد فيه بالنص تعبير : العلم التفصيلي في عين الإجمال مما يدل على وجود سابقة للقاعدة والنتيجة المترتبة عليها في العلم الإلهي لا نعرف لماذا أغفلها صدر المتألهين بقوله : هذا مطلب شريف لم أجد في وجه الأرض من له علم بذلك^(٤).

وهذا يعني أن ملا صدرا سعى أن يبرهن على ما جاء به ابن عربى ، وابتكاره في القلب البرهاني في حدود اللفظ والبيان ، ولا يخفى أن بعض أفكار ابن

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٣٠.

(٢) الحكمة المتعالية ج ٤، ص٤٠.

(٣) التوحيد، ج١، ص٢٣١.

(٤) التوحيد، ج١، ص٢٣٢.

عربي ذات قالب برهاني ، مما يعني أن الاجترار قد يتجاوز المعنى وتصل نبوته حتى للفظ أحيانا .

ولكن السيد عبد الأعلى السبزواري رحمته الله له وجهة نظر أخرى في ابن عربي ، وقد كان من أشد الدامين له والمحذرين منه حيث بعد أن ذكر دعاء : (إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضياء النظر إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور ، فتصل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك) قال : هذا غاية كمال العارفين التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون . وما سوى ذلك مما دعا إليه بعض العرفاء كابن الفارض ومحيي الدين والحلاج ونحوهم ، وما نسب إلى بعض الشيخية على ما صرح به في شرح زيارة الجامعة، فإن كل ذلك خروج عن الحق القويم وابتعاد عن الصراط المستقيم^(١).

(١) مواهب الرحمن، ج ٨، ص ٢٢٥.

تأثر ابن عربي بالحلاج والغزالي

إن عرفاء الشيعة الذين لهم ميل وتأثر بكتب ابن عربي وملا صدرا أقرؤا بأجمعهم أن الأخير كان مقتاتا على مائدة ابن عربي ، ومكررا لما جاء به كما تقدم ذكر أقوالهم في العنوان السابق.

وبقي علينا أن نعرف مصادر ابن عربي الأساسية ومبانيه من أين جاء بها ؛ لأنه لم يكن بعيدا عن نزعات الصوفية الذين سبقوه ، وإنما يدور في فلكهم وينطلق من رؤاهم ، وقد كان الحلاج من مصادر ابن عربي الأساسية ، ولذا يقول المستشرق نيكولسون : تطورت أفكار الحلاج على يد ابن عربي وعبد الكريم الجيلي^(١).

ويقول أيضا : نظرية الحلاج تطورت من بعده على يد محيي الدين بن عربي وعبد الكريم الجيلي واتخذت أساسا لبحوث فلسفية بعيدة المدى فإن (محمدا) في نظرية هذين المؤلفين حل محل (آدم) في نظرية الحلاج وأريد محمد لا الشخصية التاريخية المعروفة بنبي المسلمين بل (الكلمة) الإلهية أو الإنسان الكامل وفي هذا المعنى يقول الجيلي : اعلم أن الإنسان الكامل نسخة الحق تعالى^(٢).

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ١٣٥.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ١٥٩.

ومن المعروف أن الحلاج لديه الكثير من المؤلفات ذكرها ابن النديم في
الفهرست : كتاب طاسين الأزل والجوهر الأكبر والشجرة الزيتونة النورية
كتاب الأحرف المحدثه والأزلية والأسماء الكلية كتاب الظل الممدود والماء
المسكوب والحياة الباقية كتاب حمل النور والحياة والأرواح كتاب الصيهون
كتاب تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كتاب الأبد والمأبود كتاب قران القرآن
والفرقان كتاب خلق الإنسان والبيان كتاب كيد الشيطان وأمر السلطان كتاب
الأصول والفروع كتاب سر العالم والمبعوث كتاب العدل والتوحيد كتاب
السياسة والخلفاء والأمراء كتاب علم البقاء والفناء كتاب شخص الظلمات
كتاب نور النور كتاب المتجليات كتاب الهياكل والعالم والعالم كتاب مدح
النبي والمثل الأعلى كتاب الغريب الفصيح كتاب اليقظة وبدء الخلق كتاب
القيامة والقيامات كتاب الكبر والعظمة كتاب الصلاة والصلوات كتاب خزائن
الخيرات ويعرف بالألف المقطوع والألف المؤلف كتاب موايد العارفين كتاب
خلق خلائق القرآن والاعتبار كتاب الصدق والإخلاص كتاب الأمثال
والأبواب كتاب اليقين كتاب التوحيد كتاب ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ كتاب
﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءاً﴾ كتاب في ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾
كتاب الدرة إلى نصر القشوري كتاب السياسة إلى الحسين بن حمدان كتاب
هو هو كتاب كيف كان وكيف يكون كتاب الوجود الأول كتاب الكبريت
الأحمر كتاب السمري وجوابه كتاب الوجود الثاني كتاب لا كيف كتاب
الكيفية والحقيقة كتاب الكيفية بالمجاز^(١).

(١) الفهرست، ص ٣٨.

ومن المتوقع جدا أن تكون بعض هذه المؤلفات - إذا لم نقل أغلبها - كانت موجودة في زمن ابن عربي ، كما وصل إلينا كتاب (الطواسين) وغيره ، ومن ثم اجتر ابن عربي شطرا من معتقداتها لفظا ومعنى ، أو معنى مع تصرفٍ في الألفاظ - كما هي طريقة ملا صدرا حين اجترار متبنيات ابن عربي - من قبيل وحدة الوجود ، ووحدة الأديان ، والفناء والبقاء ، التي كانت عند الحلاج وغيره من الصوفية ، ومن ثم جسدها ابن عربي في مصنفاته ، كما أن الحلاج وأضرابه تلقوها من الفلسفات والديانات التي كانت قبل الإسلام.

نماذج من أفكار الحلاج التي تبناها ابن عربي

إن من أهم معتقدات وأفكار الحلاج التي تبناها ابن عربي هي وحدة الوجود ، ووحدة الأديان ، والفناء والبقاء ، وفي الواقع هذه المتبنيات تمثل مسارا منهجيا يتفرع منها الرؤى والأفكار ، وإليك كلمات الحلاج التي سار على وفقها ابن عربي وما طابقتها في كلماته :

١ - وحدة الوجود :

من أقوال الحلاج التي تدل على وحدة الوجود : نسب عمر السهروردي (أنا الحق) للحلاج إذ يقول : قول الحلاج (أنا الحق)^(١).

(١) عوارف المعارف، ص ٩١.

ومن أقوال الحلاج : يا إله الآلهة ويا رب الأرباب ويا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، رُدَّ إلي نفسي لئلا يفتن بي عبادك ، يا من هو أنا ، وأنا هو لا فرق بين أنيتي وهويتك إلا الحدث والقدم^(١).

ومن أشعار الحلاج التي تدل على وحدة الوجود :
أنا الحق والحق للحق حق لابس ذاته فما ثم فرق^(٢).

وقوله :

سبحان من أظهر سر سناء لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرا في صورة الأكل والشارب^(٣)
وقوله :

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني
وتوحيذك توحيدي وعصيانك عصياني
وإسقاطك إسقاطي وغفرانك غفراني^(٤)

^(١) الطواسين، ص ٢٤٩.

^(٢) ديوان الحلاج، ص ٣١.

^(٣) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ١٢٦.

^(٤) ديوان الحلاج، ص ١٦٣.

أما أقوال ابن عربي التي تدل على وحدة الوجود فهو قوله : فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها.^(١)

وللسيد الخوئي رحمه الله كلام فيه حيث يقول : يحكم بكفر بعض الفرق المنتسبين إلى الإسلام إذا رجعت عقائدهم إلى إنكار الألوهية والخلق ، أو النبوة أو المعاد ، كالقائلين بوحدة الوجود من الصوفية الظاهر ذلك من أشعارهم ، بل من متونهم ، كما في عبارة محيي الدين بن العربي التي هي : (الحمد لله الذي خلق الأشياء وهو عينها) . الدال على وحدة الوجود ، فإذا لوحظت المراتب فيكون خلقا ، وإذا لغيت فهو نفس الخالق ، فالواجب والممكن عندهم موجود واحد، وإنما يختلف بالاعتبار ، فباعتبار حده هو ممكن ومع إلغاء الحد هو واجب وهو راجع في الحقيقة إلى إنكار الخالق^(٢).

ومن أشعاره التي تدل على وحدة الوجود :

يا خالق الأشياء في نفسه	أنت لما تخلق جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه	فيك فأنت الضيق الواسع ^(٣)

^(١) (الفتوحات المكية، ج٢، ص٤٥٩).

^(٢) (مجمع الرسائل، ج٤٩، ص٤٣).

^(٣) (فصوص الحكم، ١٠٩).

ويقول أيضاً :

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقا بذاك الوجه فاذكروا

جمع وفرق فإن العين واحدة وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر^(١)

٢ - وحدة الأديان :

روى ابن الساعي (ت: ٦٧٤هـ) عن عبد الله بن طاهر الأزدي أن الحلاج قال: الأديان كلها الله ﷻ شغل بكل دين طائفة لا اختيارا فيهم بل اختيارا عليهم فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنه أختار ذلك لنفسه ، وهذا مذهب القدريّة والقدريّة مجوس هذه الأمة . واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسام متغايرة والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف ثم قال :

فألفيتها أصلا له شعب جما	تفكرتُ في الأديان جدّاً محققا
يصد عن الوصل الوثيق وإنما	فلا تطلبن للمرء ديناً فإنه
جميع المعالي والمعاني فيفهما ^(٢)	يطالبه أصل يعبر عنده

وذكرت هذه الأبيات في ديوان الحلاج باختلاف يسير :

^(١) (فصوص الحكم، ص ٨٤.

^(٢) (أخبار الحلاج، ص ١٤.

تفكرتُ في الأديان جد تحققِ فألفيتها أصلاً له شعب جما
فلا تطلبين للمرء ديناً فإنه يصد عن الأصل الوثيق وإنما
يطالبه أصل يعبر عنده جميع المعالي والمعاني فيهما^(١)

وأما وحدة الأديان عند ابن عربي فتوجد عدة كلمات له تدل عليها وتُصحح عبادة كل شخص - مهما كان المعبود إذ لا امتياز للخالق عن الموجودات بناءً على وحدة الوجود - وهذه بعض كلماته التي جعلتها مابين الأقواس والخارج منها هو شرح لعبد الرزاق الكاشاني على فصوص الحكم : (إياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر ما سواه فيفوتك خير كثير بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه) فإن الحق المتجلى في صورة المعتقدات يسع الكل ويقبلها جميعاً فإذا تقيدت بصورة مخصوصة فقد كفرت بما سواه وهو الحق المتجلى بتلك الصورة إذ لا شيء غيره فإذا أنكرته فقد جهلته وأسأت الأدب معه وأنت لا تدري فيفوتك الحق المتجلى في جميع الصور التي هي غير الصورة التي تقيدت بها في اعتقادك وهو خير كثير بل يفوتك العلم بالحق على ما هو عليه وهو الخير الكثير (فكن في نفسك هيولى^(٢) لصور المعتقدات كلها فإن الإله تبارك وتعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد...وما ثم إلا الاعتقادات)

(١) ديوان الحلاج، ص ٢٥.

(٢) الهيولى لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وفي الاصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية. المعجم الفلسفي، ج ٢، ص ٥٣٦.

أي وما في أينية^(١) كل جهة إلا الاعتقادات لأنها هي الجهات المعنية تتوجه فيها قلوب المعتقدين إلى الحق (فالكل مصيب) لأن للحق في كل معتقد وجهها (وكل مصيب مأجور) لأن له من الحق المطلق حظا ونصيبا (وكل مأجور سعيد وكل سعيد مرضى عنه وإن شقي زمان في دار الآخرة)^(٢).

وأقول : إن ابن عربي حذر من أن يعتقد أحد بدين واحد فقط ويكفر بما سواه، وذلك حتى لا يفوته الخير الكثير كما زعم ، ودعا إلى أن يكون أي أحد قابلا لكل المعتقدات على اختلافها لأن الله سبحانه وتعالى أوسع من أن يكون محصورا في معتقد واحد فقط وصرح بأن كل عابد في هذه الدنيا مصيب أيا كان معبوده . وله كلمات أخرى تدل على وحدة الأديان ذكرتها في كتاب : (بدعة جواز التعبد بجميع الأديان) .

٣ - الفناء والبقاء :

يقول الحلاج في كتابه (الطواسين) : التصوف الاستهلاك في حقائق الحق، والفناء عن جميع صفات الخلق^(٣).

ويقول فيه أيضا : إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عباده فتح عليه باب الذكر ، ثم فتح عليه باب القرب ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم يرفعه عن الحجب ، فيرى الفردانية بالمشاهدة ، ثم أدخله دار الفردانية ، ثم كشف عن

(١) الإنية اصطلاح فلسفي قديم معناه تحقق الوجود العيني. المعجم الفلسفي، ج١، ص١٦٩.

(٢) فصوص الحكم/الفص الهودي.

(٣) الطواسين، ص٢٢٣.

الكبرياء والجمال ، فإذا وقع بصره على الجمال بقي بلا هو ، فحينئذ صار العبد فانيا ، وبالحق باقيا ، فوقع في حفظ سبحانه ، وبرئ من دعوى نفسه^(١).

أما ابن عربي فليده رسالة تحت عنوان : (الفناء في المشاهدة) يقول في مطلعها :
أما بعد فإن الحقيقة الإلهية تتعالى أن تشهد بالعين التي ينبغي لها أن تشهد
وللكون أثر في عين المشاهدة فإذا فني ما لم يكن وهو فان ويبقى من لم يزل
وهو باق حينئذ تطلع شمس البرهان لإدراك العيان.

والمصدر الآخر الذي تأثر به ابن عربي والذي أحسبه من مصادره الأساسية هو أبو حامد الغزالي ، ولشدة تأثره به قلما تجد كتابا من كتبه لم يذكر فيه أبا حامد ومؤلفاته وآراءه ، ومن اهتمامه واعتناؤه بمؤلفاته لديه شرح على كتابه : (المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنی) شرح شطرا منه ، وجاء في مطلع شرحه الذي يتضمن الثناء على الغزالي ومصنفه : فهذه الرسالة فيها ألفاظ على مصطلح الصوفية ، موهمة لغيرهم ، يصعب تأويلها إلا على عارف منهم. ولأن لكل قوم من ذوي العلم اصطلاحات خاصة بهم ، ولأنني لم أتشرف بنهج منهجهم الوعر على أمثالي ، ولأنه لا يصح الكلام إلا بذوق وحال ، فقد رأيت إيراد بعض نصوص لها خطر من كلامهم ، تعين على فهم المراد حتى يحسن الاعتقاد فيهم ، ويقام : لهم العذر ، أو يسلم لهم حالهم إلي ﴿لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾^(٢) وقد أطلت في إيراد النصوص كاملة لأنها

^(١) الطواسين، ص ٢٤١.

^(٢) سورة الأحزاب : ٨ .

مشردة في الكتب ، وبدأت بكلمة حجة الإسلام الغزالي في كتاب : (المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى) فإنها ، وإن كانت وافية بالمرام - حتى لقد أحال عليها في كتابه (المنقذ من الضلال)^(١) - إلا أن ما يأتي بعدها كزيادة شرح وإيضاح لها ، وبه فوائد لم تذكر فيها^(٢).

ومن اهتمامه بكتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي يقول ابن عربي : محمد بن خالد الصدي التلمساني وهو الذي كان يقرأ علينا كتاب الأحياء لأبي حامد الغزالي^(٣).

وكيف لا يذكر مؤلفاته ويجعلها محل إكباره ، وهو يعده من رؤساء التصوف وساداتهم إذ يقول فيه : هو من رؤساء هذه الطريقة وساداتهم^(٤).

ومن ثنائه عليه أيضا قوله : الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه^(٥).

^(١) أي أن الغزالي في كتابه : (المنقذ من الضلال) أشار وأرجع إلى كتابه : (المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى) .

^(٢) مجموعة رسائل ابن عربي، ج٢، ص٣٣٩.

^(٣) الفتوحات المكية، ج٤، ص٥٥٢.

^(٤) مجموعة رسائل ابن عربي، ج٣، ص٣٠٩.

^(٥) مجموعة رسائل ابن عربي، ج٣، ص٣١٤.

ومن ثنائه الكبير عليه : بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل فيها أفقه^(١).

وإليك بيان تأثر ابن عربي بالغزالي والأفكار التي أخذها منه ، أو أنه اعتقد بها تبعاً له ، فمن ضمن تلك الأفكار والمعتقدات : (اكتساب النبوة) ، يقول ابن عربي : القائلون باكتساب النبوة فإنهم يريدون بذلك حصول المنزلة عند الله المختصة من غير تشريع لا في حق أنفسهم ولا في حق غيرهم فمن لم يعقل النبوة سوى عين الشرع ونصب الأحكام قال بالاختصاص ومنع الكسب فإذا وقفت على كلام أحد من أهل الله أصحاب الكشف يشير بكلامه إلى الاكتساب كأبي حامد الغزالي وغيره فليس مرادهم سوى ما ذكرناه وقد بينا هذا في فصل الصلاة على النبي ﷺ في آخر باب الصلاة من هذا الكتاب^(٢).

وأيضاً يقول في (تقرير النعم) : فاعلم إن هذا المنزل يتضمن تقرير النعم على ما ذكرت لك ويتضمن علم التشريح الذي تعرفه الأطباء من أهل الحكمة والتشريح الإلهي التي تتضمنه الصورة التي اختص بها هذا الشخص الإنساني من كونه مخلوقاً على صورة العالم وعلى صورة الحق فعلم تشريحه من جانب العالم علمك بما فيه من حقائق الأكوان كلها علوها وسفلها طيبها وخبيثها نورها وظلمتها على التفصيل وقد تكلم في هذا العلم أبو حامد وغيره وبينه فهذا هو علم التشريح في طريقنا وأما علم التشريح الثاني فهو أن تعلم ما في

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج ٢، ص ١٢٨.

(٢) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٣.

هذه الصورة الإنسانية من الأسماء الإلهية والنسب الربانية ويعلم هذا من يعرف التخلق بالأسماء وما ينتجه التخلق بها من المعارف الإلهية وهذا أيضا قد تكلم فيه رجال الله في شرح أسماء الله كأبي حامد الغزالي وأبي الحكم عبد السلام بن برجان الإشبيلي وأبي بكر بن عبد الله المغافري وأبي القاسم القشيري ويتضمن هذا المنزل التكليف ورفعته من حيث ما فيه من المشقة لا من حيث ترك العمل^(١).

ومن انجراره نحو أفكار الغزالي في (حكم الباطن والاجتماع لمناسبة) يقول ابن عربي : أما حكم الباطن في ذلك فإنه يتعلق بعلم المناسبة فلا يجتمع شيء مع شيء إلا لمناسبة بينهما قال أبو حامد الغزالي رأى بعض أهل هذا الشأن بالحرم غرابا وحمامة ورأى أن المناسبة بينهما تبعد فتعجب وما عرف سبب أنس كل واحد منهما بصاحبه فأشار إليهما فدرجا فإذا بكل واحد منهما عرج فعرف أن العرج جمع بينهما^(٢).

ومن أفكار الغزالي التي تأثر بها ابن عربي أن الله خلق العالم على صورته حيث يقول : إن العالم خلقه الله في غاية الإحكام والإتقان كما قال الإمام أبو حامد الغزالي من أنه لم يبق في الإمكان أبدع من هذا العالم فأخبر أنه تعالى خلق آدم على صورته والإنسان مجموع العالم ولم يكن علمه بالعالم تعالى إلا

(١) الفتوحات المكية، ج٢، ص٦٤٩.

(٢) الفتوحات المكية، ج١، ص٣٥٦.

علمه بنفسه إذ لم يكن في الوجود إلا هو فلا بد أن يكون على صورته فلما أظهره في عينه كان مجلاه^(١).

ونجده يخالف العقلاء والمتكلمين ويوافق الغزالي في (معرفة الله من خلال المشاهدة) فيقول : العقول تعرف الله من حيث كونه موجودا ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات ، وهذا خلاف الجماعة من العقلاء والمتكلمين إلا سيدنا أبا حامد قدس الله روحه فإنه معنا في هذه القضية ويجل الله سبحانه وتعالى أن يعرفه العقل بفكره ونظره فينبغي للعاقل أن يخلى قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة^(٢).

وقد كان شديد التأثير بالغزالي حتى أنه لم تفته الرؤيا التي رؤيت في أبي حامد، وذكرها في الفتوحات المكية الذي هو من أهم كتبه فيقول : الرؤيا الشيطانية التي رؤيت في حق أبي حامد الغزالي^(٣).

وأیضا من الرؤى التي رؤيت في أبي حامد وذكرها : حدثنا صاحبنا عبد الله ابن الأستاذ المروزي ، قال : رأى بعض المريدين من أصحابنا في واقعة الشيخ أبا مدين وقد استوى في الهواء ، ومعه أبو حامد الغزالي ، فقال الشيخ : يا أبا حامد ، السر بالله ناظر ، والروح يتلقف منه الأوامر ، والقلب للسكينة والساكن ، والعقل حكم حاكم ، والنفس تحت قهر القاهر ، والحق به ظهر

(١) الفتوحات المكية، ج٢، ص٣٤٥.

(٢) رسائل ابن عربي / سؤال سودكين، ص٣٠٢.

(٣) الفتوحات المكية، ج١، ص٦٤٣.

الوجود ، وهو الواحد المعبود . ثم قال : يا أبا حامد ، إذا تلاشت المعاني فاقراً السبع المثاني ، فإنك تراه كما لم يزل ، وأنت كما لم تكن ، فرأيت عند هذا الكلام قد خص الشيخ بالتجلي الإلهي ، وأبو حامد معه مشارك ، فقال أبو حامد للشيخ : كيف مادة الله للسر ؟ فقال له الشيخ : اسمع إن نظرت به وجدتهما معا لم يفترقا ولم يجتمعا . ثم قال له : فالسر ما هو ؟ فقال : هو خزانة النظر . قال له : والروح ؟ قال : هو خزانة النظر ، قال له : والقلب ؟ قال : هو خزانة الفكر ، قال : والعقل ؟ قال : هو خزانة العدل والعلم ، قال : والنفس ؟ فقال : خزانة الأرض . ثم قال الشيخ : يا أبا حامد ، على هذا صنعه وكل متفرق جمعه^(١).

كما أنه ذكر رؤيين آخرين رؤيا في أبي حامد ذكرها في كتاب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) أعرض عن ذكرها توخيا للاختصار^(٢).

وقد تطرق في فتوحاته حتى لأحوال الغزالي وما تعرض له من صعاب فيقول : كما ذكر أبو حامد الغزالي عن نفسه أنه بقي أربعين يوماً حائراً^(٣).

ومن كلامه في مقام الغزالي وحجابه يقول : في اتباع أسرار الرسوم ، فرغبنا في جوابكم عن هذا المقام ، وهل وقف عليه غيرنا من السادات الأعلام ، فإن

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص ٢١٤.

(٢) انظر محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص ١٦٦، ص ٢٣٢.

(٣) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٦٤٥.

أبا حامد قد صرح بحجابه في غير ما موضع من كتابه ، وغيره من الأئمة على سنته وطريقته محبوب بحقه عن حقيقته^(١).

كما أن مناجاة أبي حامد كانت محل نظره وإعجابه إذ يقول : أناجيك بلسان الترجمان بأوضحه وغرره كمناجاة أبي حامد في جواهره ودرره^(٢).

ويقول فيها أيضا : آيات مناجاة الإمام أبي حامد ركن المعالم والمحامد^(٣).

وكان معتقدا في أن عمى أبي عبد الله بن زين هو بسبب قراءة رد على أبي حامد حيث يقول : أبو عبد الله بن زين ب (إشبيلية) كان من أفضل الناس كثير الجد والاجتهاد والتقشف كان يقرأ القرآن والنحو بجامع العديس ب (إشبيلية) لا يؤبه له غامضا في الناس اعتكف على كتب أبي حامد ، قرأ ليلة تأليف أبي القاسم بن أحمد في الرد على أبي حامد فعمي ، فسجد لله من حينه وتضرع وأقسم أنه لا يقرأه أبدا ويذهبه فرد الله عليه بصره ، وكان من فضلاء الناس . لقيت أيضا أخاه مثله ، نودي به عند موته جنتين اثنتين لبني زين^(٤).

^(١) رسائل ابن العربي / كتاب الكتب، ص ٤٥.

^(٢) رسائل ابن العربي / كتاب الإسرائ، ص ٢٦٠.

^(٣) رسائل ابن العربي / كتاب الإسرائ، ص ٥٧.

^(٤) مجموعة رسائل ابن عربي، ج ١، ص ١٩٧.

وكما كانت أفكار الغزالي نصب عينيه ومنحازا لها لم تغادره حتى فيما خالفه فيها ، ولذا ذكر ثلة من أفكار الغزالي التي خالفه فيها في مواضع متعددة من كتبه وكان من ضمنها :

(معرفة الله من غير نظر في العالم) :

فإن بعض الحكماء وأبا حامد ادعوا أنه يعرف الله من غير نظر في العالم وهذا غلط ، نعم تعرف ذات قديمة أزلية لا تعرف أنها إله حتى يعرف المألوه ، فهو الدليل عليه) أبو حامد هو الغزالي^(١).

(الجن والشياطين تخيل للناس صورا) :

الجن والشياطين تخيل للناس صورا عنهم وعن غيرهم وليس بحقيقة وهذه المسألة التبس الأمر فيها على أبي حامد الغزالي وغيره وممن التبس عليه الأمر في ذلك من الشيوخ الذين أدركناهم أبو أحمد بن سيد بون بوادي أشت فكان يقول هو وأمثاله إن الإنسان إنما يطرأ عليه التلبس ما دام في عالم العناصر فإذا ارتقى عنها وفتحت له أبواب السماء عصم من التلبس فإنه في عالم الحفظ والعصمة من المردة و الشياطين فكل ما يراه هنالك حق^(٢).

(١) فصوص الحكم، ص ٩٠.

(٢) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٦٢٢.

(التفكر في ذات الله) :

نهى رسول الله ﷺ عن التفكير في ذات الله وقد غفل الناس عن هذا القدر فما منهم من سلم من التفكير فيها والحكم عليها من حيث الفكر وليس لأبي حامد الغزالي عند نازلة بحمد الله أكبر من هذه فإنه تكلم في ذات الله من حيث النظر الفكري في المضنون به على غير أهله وفي غيره ولذلك أخطأ في كل ما قاله وما أصاب وجاء أبو حامد وأمثاله في ذلك بأقصى غايات الجهل^(١).

(الهاء من الله ولا إله إلا الله) :

رأيت على هذا الذكر شيخنا أبا العباس العربي من أهل العليا من عرب الأندلس والتزم آخرون الهاء من الله لدلالاتها على الهوية وجعله ذكر خاصة الخاصة وهو أبو حامد الغزالي وغيره وأما الأكابر فيلتزمون لا إله إلا الله على غير ما يعطيه النظر العقلي أي الوجود هو الله والعدم منفي الذات^(٢).

ويقول في نفس المعنى : (هو) أرفع الأذكار عند البعض كأبي حامد ، ومنهم من يرى (أنت) أتم ، وهو الذي ارتضاه الكتاني ، مثل قوله : يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت ، ومنهم من يرى (أنا) أتم وهو أبو يزيد ، ولكن أل (هو) عند الطائفة أتم الأذكار وأرفعها وأعظمها ، وهو ذكر خواص الخواص ، وليس

^(١) (الفتوحات المكية، ج٣، ص٤٦٧.

^(٢) (الفتوحات المكية، ج٤، ص٨٩.

بعد ذكر أتم منه ، فيكون آل (هو) في إعطائه أعظم من إعطاء اسم من الأسماء الإلهية ، حتى من الاسم الله ، فإن الاسم الله دلالة على الرتبة ، والهوية دلالة على العين ، لا تدل على أمر آخر غير الذات ، ولهذا يرجع إليها محلول لفظة (الله) فإنك تزيل الألف واللامين - على الطريقة المعروفة عند أهل الله - فيبقى (ه) سببا لتعلق الخلق به مكنت الضمة ، فقلت (هو)^(١).

(الفرق بين الولي والنبى) :

وأما من قال من أصحابنا وذهب إليه كالإمام أبي حامد الغزالي وغيره بأن الفرق بين الولي والنبى نزول الملك فإن الولي ملهم والنبى ينزل عليه الملك مع كونه في أمور يكون ملهما فإنه جامع بين الولاية والنبوة فهذا غلط عندنا من القائلين به ودليل على عدم ذوق القائلين به وإنما الفرقان إنما هو فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك فالذي ينزل به الملك على الرسول والنبى خلاف الذي ينزل به الملك على الولي التابع فإن الملك قد ينزل على الولي التابع بالإتباع وبإفهام ما جاء به النبى مما لم يتحقق هذا الولي بالعلم به^(٢).

(إنكار الغزالي لمقام القربة) :

وقد أنكر أبو حامد الغزالي هذا المقام وقال ليس بين الصديقية والنبوة مقام ومن تخطي رقاب الصديقين وقع في النبوة والنبوة باب مغلق فكان يقول لا

(١) الشيخ والمريد، ص ٩٤.

(٢) الفتوحات المكية، ج ٣، ص ٣١٦.

تخطوا رقاب الصديقين ولا شك أن الأنبياء أصحاب الشرائع هم أرفع عباد الله من البشر ومع هذا لا يبعد أن يخص الله المفضل بعلم ليس عند الفاضل ولا يدل تميزه عنه أنه بذلك العلم أفضل منه بل قال له يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا وما قال له أنا أفضل منك بل علم حق موسى وما ينبغي له وامثل أمره فيما نهاه عنه من صحبته احتراماً منه لمقام موسى وعلو منزلته وسكوت موسى عنه حين فراقه ولم يرجع عن نهيه لأنه علم إن الخضر عليه السلام ممن لم يسمع نهي موسى عليه السلام ولا سيما وقد قال له ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^(١) فعلم موسى أنه ما فراقه إلا عن أمر ربه فما اعترض عليه في فراقه إياه وحصل لموسى مقصوده ومقصود الحق في تأديبه فعلم إن لله عباداً عندهم من العلم ما ليس عنده ولم يكن إلا علم كون من الأكوان من علوم الكشف وهو من أحوال المرئيين أصحاب السلوك فكيف لو كان من العلوم المتعلقة بالجناب الإلهي إما من العلم المحكم أو المتشابه^(٢).

ويقول أيضاً في نفس المعنى المذكور : اعلّموا أن كثيراً من أهل طريقنا كأبي حامد الغزالي وغيره تخيل أنه ليس بين الصديقية والرسالة مقام وأن من تخطى رقاب الصديقين وقع في النبوة وبابها مسدود عندنا دوننا فلا سبيل إلى تخطيهم لكن لنا المزاخرة معهم في صفهم هذا غايتنا ، ولسنا نعني بالصديق أباً بكر ولا

(١) سورة الكهف : ٨٢ .

(٢) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٢٦٢ .

عمر ولا أحدا رضي الله عنهم فإن أبا بكر من جملة أحواله كونه صديقا وقد شاركه في هذا المقام غيره من الصديقين ولذلك قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾^(١) وقد فضل الصديق بسر وقر في صدره أعطاه الله إياه وشهد له به رسول الله ﷺ فعندنا بين الصديقية والرسالة مقام وهذا هو المقام الذي ذكرناه والذي أقول به أنه ليس بين أبي بكر وبين النبي ﷺ رجل ولا نذكر الصديقية فأرفع الأولياء أبو بكر^(٢).

(علم تجريد التوحيد) :

وهو سار في جميع ما تعلق به علم العقل إلا علم تجريد التوحيد خاصة فإنه يخالف سائر المعلومات من جميع الوجوه إذ لا مناسبة بين الله تعالى وبين خلقه البتة وإن أطلقت المناسبة يوما ما عليه كما أطلقتها الإمام أبو حامد الغزالي في كتبه وغيره^(٣).

وقد يُقال كيف أن ابن عربي كان متأثرا بالغزالي وهو يختلف معه بجملة من الأفكار ؟

والجواب : أن اختلاف ابن عربي مع الغزالي ببعض الأفكار والمعتقدات لا ينفي تأثره به وانقياده لأفكاره ، كما ذكرت ثلة من أفكار الغزالي التي انصاع

(١) سورة الحديد : ١٩ .

(٢) رسائل ابن العربي / كتاب القربة، ص ٨٢ .

(٣) الفتوحات المكية، ج ١، ص ٩٣ .

لها ابن عربي ، وكيف أنه لم تغادره حتى الصعاب التي مر بها الغزالي
والرؤى التي رؤيت فيه ، وقلما يخلو كتابا من كتبه عن ذكر الغزالي ومصنفاته
وآرائه فكيف يكون التأثير بعد ذلك ؟!

وليس بالشيء الكثير على ابن عربي أن يتأثر بالحلاج والغزالي ونحوهما من
الصوفية ، ومن ثم يتبنى أفكارهم ومعتقداتهم ، وهو الذي أخذ معاني أبي
علي بن شبل وضمنها في شعره ، يقول ابن عربي :

أما ترى الروضة الغناء تضحك إذ	جادت على الأرض بالأزهار
تبسم الأرض إذ تبكي السماء	بين السماء وبين الأرض شحناء
لا والذي بضروب الزهر	ما ثم شحناء لكن ثم أشياء
إن السماء تقول الزهر من زهري	والأرض تأبى الذي قالته والماء

وقفت على نظم حسن الترصيع ، ونثر في الربيع ، وزهر بديع ، لأبي علي بن
شبل الشاعر :

عرائس الأرض تجلى في غلائلها	وفي حليّ عليها صاغها الديم
تستنّ في حلل الأنواء مذهبة	في كل حاشية من نسجها علم
درّ من الأقحوان الغضّ زينه	حمر اليواقيت في المنشور ينتظم
كأنما بالسماء الأرض شامته	تبكي السماء وثمر الأرض يتسم ^(١)

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج٢، ص٢٣١.

مع أن هذا النظم الذي وصفه ابن عربي بأنه حسن الترصيع ضمنه في شعره المتقدم .

ومن هنا يتضح حجم الأفكار والمعتقدات التي أخذها ابن عربي من الحلاج والغزالي ونحوهما من الصوفية ، ومن ثم بواسطته ومن خلاله من تأثر به من صوفية الشيعة مثل السيد حيدر الآملي وملا صدرا كان لتلك الأفكار صدى وقبولا في بعض الأوساط الشيعية.

تأثر الغزالي بمن سبقه من الصوفية

تقدم الكلام في تأثر ملا صدرا بابن عربي ، وتأثر هذا الأخير بالحلاج وأبي حامد الغزالي ، ويحسن بنا أيضا معرفة الذين تأثر بهم الغزالي ، ومن ثم كانت أفكارهم لديه محل تبين وتنظير في كتبه ومصنفاته .

وعند تتبع مصنفات أبي حامد الغزالي وكلماته نجده يشير هو بنفسه فيمن تأثر بهم من الصوفية الذين سبقوه حيث يقول : فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي^(١) ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم - كما هو يقول - وغير ذلك من كلمات المشايخ ، حتى

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي (ت: ٢٤٣هـ) صاحب كتاب المكاسب والوصايا وغيرهما .

اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع^(١).

وقوله : (غير ذلك من المشايخ) مثل السري الذي جعل كلامه دليلا شرعيا على تمزيق الثياب عند الصوفية إذا يقول الغزالي : وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه ، وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكره ، إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه ، مع أنه فعل اختياري فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لا يضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس ، فكذلك الزعقة وتمزيق الثياب ، قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم ، فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحادّ الغالب ، فقال نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري^(٢).

وقد صرح بتأثره بالرياضات غير الشرعية المأخوذة من الهند وساقها في طي القبول والثناء إذ يقول : عباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول

(١) المنقذ من الضلال، ص ٣٤.

(٢) إحياء علوم الدين، ج ٦، ص ١٩٧.

الليل على نضبة^(١) واحدة . وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع^(٢).

الغزالي ألبس التصوف لبوس الفقه

إن أبا حامد الغزالي كان له دور كبير في مساندة التصوف ونشره ، وذلك لأنه ألبس التصوف لبوس الفقه (كما ألبس ابن عربي التصوف لباس الفلسفة) - بعد أن تصوف في آخر حياته وأمضى أغلب عمره في أبواب الفقه - وأخذ في تبرير بدع الصوفية وأباطيلهم بوجوه يحسبها شرعية ، مع أنها لا تنسجم مع الشرع وبعيدة عنه كل البعد ، وكما عبر العلامة الأميني رحمته الله عن منهج الغزالي :
(جمع فيه بين الفقه المزيف وبين السلوك بلا فقاهاة)^(٣)

وهذه بعض الأمثلة للأمور المحرمة - وإلا لو أردت إحصائها ل طال المقام واستطال - التي أوجد الغزالي لها وجوها شرعية مع أن مخالفتها لأصول الدين وفروعه في غاية الوضوح ؛ ولذا لم أجهد نفسي في الرد عليها وإن كنت أتوقف عند بعضها بتذييل يسير :

(١) (النضبة) اسم المرة من نصب. المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٢٥.

(٢) (إحياء علوم الدين، ج٨، ص١١٢.

(٣) (الغدير، ج١١، ص١٦٥.

١ - تمزيق الثياب :

يقول الغزالي : وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه ، وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكره ، إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأئین ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه ، مع أنه فعل اختياري فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لا يضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس ، فكذلك الزعقة وتمزيق الثياب ، قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم ، فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحادّ الغالب ، فقال نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري ، فروجع فيه ، واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع ، ومعناه أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد في بعض الأشخاص فإن قلت : فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع ، فإنهم يمزقونها قطعاً صغاراً ويفرقونها على القوم ، ويسمونها الخرقة فاعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، فإن الكرباس^(١) يمزق حتى يخلط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض ، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار ، وذلك مقصود ،

(١) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض. تاج العروس، ج٨، ص٤٤١.

والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح ، ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ، ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع ، وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه ، بحيث لا يبقى منتفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار^(١).

إن تكلف أبي حامد الغزالي واضح في اجترار الفقه إلى اختلاقات الصوفية وصبغها بصبغة شرعية تضحك الشكلى ، وتعرف من خلالها مقدار ابتعاده عن الفقه وتأثره بغوايات الصوفية الذين سبقوه ، حتى أنه جعل كلماتهم دليلا على الشرع ، كما فعل أنفا واستشهد على جواز تمزيق الثياب بكلام (السري) عند ضرب الوجه بالسيف.

٢ - الرقص :

إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المرأة ، لأن التباكي استجلاب الحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ، فكل سرور مباح فيجوز تحريكه ، ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة إلى الحبشة مع رسول الله ﷺ وهم يرفنون^(٢) . هذا لفظ عائشة في بعض الروايات ، وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، أنهم حجلوا^(٣) لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ، وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب ، وأخوه

(١) إحياء علوم الدين، ج٦، ص١٩٧.

(٢) يرفنون : يرقصون .

(٣) فلان يحجل: إذا رفع رجلا ويثب في مشيه على رجل، يقال: حجل. العين، ج٣، ص٧٩.

جعفر ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم ، فتشاحوا في تربيتها ، فقال ﷺ لعلي: أنت مني وأنا منك فحجل علي ، وقال لجعفر : أشبهت خلقي وخلقي فحجل وراء حجل علي ، وقال لزيد أنت أخونا و مولانا فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال ﷺ : هي لجعفر لأن خالتها تحتها ، والخالة والدة^(١) . وفي رواية أنه قال لعائشة أتحبين أن تنظري إلى زفن الحبشة والزفن والحجل هو الرقص ، وذلك يكون لفرح أو شوق ، فحكمه حكم مهيجته إن كان فرحه محمودا ، والرقص يزيده ويؤكدده فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة، لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به ، لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به^(٢).

ويقول العلامة الأميني رحمه الله في رد هذا الكلام وذم كتاب الإحياء : من أمعن النظر في أبحاث هذا الكتاب يجده أشنع مما قاله ابن الجوزي^(٣) ، وحسبك ما جاء به من حلية الغناء والملاهي وسماع صوت المغنية الأجنبية والرقص واللعب بالدرق والحراب ونسبة كل ذلك إلى نبي القداسة رسول الله ﷺ فقال: بعد سرد جملة من الموضوعات تدعيما لرأيه السخيف : فيدل هذا على

(١) هذه الرواية من مختلقات الصوفية وحتى العامة ضعفوها ولم تصح عندهم.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٦، ص١٩٧.

(٣) ابن الجوزي رد على (إحياء علوم الدين) في كتاب : (تلييس إبليس) .

أن صوت النساء غير محرم تحریم صوت المزامير ، بل إنما يحرم عند خوف الفتنة ، فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء ، والرقص ، والضرب بالدف ، واللعب بالدرق والحراب^(١) ، والنظر إلى رقص الحبشية والزواج في أوقات السرور كلها قياسا على يوم العيد فإنه وقت سرور وفي معناه يوم العرس ، والوليمة ، والعقيقة ، والختان ، ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح ، وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضا مظنة السماع ثم ذكر سماع العشاق تحريكا للشوق وتهيجا للعشق وتسلية للنفس . وفصل القول في ذلك بما لا طائل تحته ، وخلط الحابل بالنابل وجمع فيه بين الفقه المزيف وبين السلوك بلا فقاهاة^(٢) .

وأیضا ابن الجوزي رد عليه حيث يقول : وقد جمعت أغلاط الكتاب وسميته (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) وأشارت إلى بعض ذلك في كتابي المسمى (بتليس إبليس) ... إلى أن قال : وذكر في كتاب (الإحياء) من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل ، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف ، وإنما نقل نقل حاطب ليل^(٣) . وكان قد

(١) الدرر ضرب من الترسة ، الواحدة درقة ، وتُجمع على الأدراق تتخذ من جلود الحيت في اللغة، ج٥، ص٣٤٦. والحربة : واحدة الحراب. الصحاح، ص١٣٢.

(٢) الغدير، ج١١، ص١٦٥..

(٣) يقال للمُخَلَّط في كلامه وأمره : حاطبُ ليل ، مثالا له لأنه لا يتفقد كلامه كحاطب الليل لا يُبصر ما يجمع في حبله من رديء وجيد. العين، ج٣، ص١٧٤.

صنف للمستظهر كتابا في الرد على الباطنية ، وذكر في آخر مواعظ الخلفاء فقال : روي أن سليمان بن عبد الملك بعث إلى أبي حازم : ابعث إلي من إفطارك . فبعث إليه نخالة مقلوبة فبقي سليمان ثلاثة أيام لا يأكل ، ثم أفطر عليها وجامع زوجته ، فجاءت بعبد العزيز ، فلما بلغ ولد له عمر بن عبد العزيز . وهذا من أقبح الأشياء لأن عمر ابن عم سليمان وهو الذي ولاه ، فقد جعله ابن ابنه ، فما هذا حديث من يعرف من النقل شيئا أصلا^(١).

٣ - لص الحمام :

يقول الغزالي عن ابن الكريبي : نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فتشتت علي قلبي ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ، ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت ، وجعلت أمشي قليلا قليلا ، فلحقوني فنزعوا مرقعتي ، وأخذوا الثياب ، وصفعوني وأوجعوني ضربا ، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام ، فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق^(٢).

إن أبا حامد يذكر هذه الحكاية في طور الثناء والتعليم ، مع أنها تتضمن عدة مخالفات للفقه والشرع من ضمنها : أنها تندرج تحت السرقة ، وتحت إذلال المسلم لنفسه ، وتعريضها للأذى والهلاك إلى غير ذلك من المخالفات الشرعية.

^(١) (تلبس إبليس، ص ٣٥٢.

^(٢) (إحياء علوم الدين، ج ١٤، ص ١٤٨.

٤ - الطلب من الناس زيادة في رفع الدرجات :

يقول الغزالي : أرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ، ولكن بالإضافة إلى حالهم . فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا إسحاق النوري يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع ، قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد فأخبرته بذلك فقال . لا يعظم هذا عليك ، فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليشيهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ : (يد المعطي هي العليا) فقال بعضهم يد المعطي هي يد الآخذ للمال ، لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه^(١).

أبو حامد الغزالي الذي قضى عمره في طلب العلم ، في آخر حياته يتجرد عن علمه ، وينساق لبدع الصوفية وتأويلاتهم للأحاديث التي تنسجم مع ضلالهم ، ولا غرو في ذلك ، فقد يكون الإنسان منكبا على طلب العلم منذ نعومة أظفاره متضلعا في أبواب العلوم إلا أنه ساذج وضعيف العقل^(٢) ، أو أنه يُصاب بضعف العقل في آخر حياته ، ومنه يتضح دور العقل الذي سُلط عليه الضوء في أحاديث الأئمة الأطهار عليهم السلام ، أو قد يكون مع حصافته وعظم عقله إلا أنه يُصاب بزلل منهجي كبير يجعله أسوأ من بليد العقل .

(١) إحياء علوم الدين، ج ١٣، ص ١٠٦.

(٢) ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : (الغباء غواية). غرر الحكم ودرر الكلم / حديث : ١٨٠ .

٥ - يجوز على الله تكليف الخلق ما لا يطيقونه :

يقول الغزالي : يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه^(١).

٦ - يجوز على الله تعذيب الخلق من غير جرم وثواب :

يقول الغزالي : إن لله عز و جل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ، ومن غير ثواب لا حق ، خلافا للمعتزلة ، لأنه متصرف في ملكه ، ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى^(٢).

٧ - البسطامي لم يشرب ولم ينم سنة كاملة :

يقول الغزالي : قيل لأبي يزيد البسطامي مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى. فصاح ثم قال : ويلكم ، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك . قيل : فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال : وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم . دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ ، أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته ، من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزا على صدور

(١) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣.

قدميه ، رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصا بعينه لا يطرف^(١).

٨ - جملة مفاسد مخالفة للشرع :

يقول الغزالي : إن رأى الغضب غالبا عليه ، ألزمه الحلم والسكوت ، وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه ، حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه . كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ، ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ، ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه ، حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة ، فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة . وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر ، إذ خاف من تفرقة على الناس رعونة الجود ، والرياء بالبذل فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ، فإن ذلك سيأتي في بقية

(١) إحياء علوم الدين، ج١٤، ص١٤٤.

الكتب . وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس ، وتميل إليه^(١).

إن هذه جملة من المفاصد المخالفة للشرع حيث لا تجوز الإجارة من أجل السب ، ولا يجوز ركوب البحار عند اضطراب الأمواج لأن فيه تعريض النفس للهلاك ، ولا يجوز القيام على رأسه طوال الليل لأنه يورث الأمراض الخطيرة ، ولا يجوز تلف المال لأنه أسوأ من الإسراف والتبذير المنهي عنهما شرعا إلى غير ذلك من العناوين المحرمة والأدلة الناهية عن هكذا فعل . ويبدو أنها مأخوذة من الديانات الهندية وليس فقط معالجة الكسل بالعبادة فقط المتقدم في قوله : (عباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نضبة واحدة).

٩ - عدم لعن إبليس ويزيد :

إن من تفاهات إحياء الغزالي عدم لعن إبليس ويزيد ، وهنا أكتفي بنقل العلامة الأميني لكلمات (إحياء علوم الدين) ورده عليها حيث يقول رحمه الله : ومن طامات كتاب (الإحياء) أو من شواهد جهل مؤلفه المبير ومبلغه من الدين والورع رأيه الساقط في اللعن قال في (ج ٣ : ١٢١) : وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب ، ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره ، فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمره به ؟ قلنا :

(١) إحياء علوم الدين، ج ٨، ص ١١٢.

هذا لم يثبت أصلا ، فلا يجوز أن يقال : إنه قتله ، أو أمر به ما لم يثبت فضلا عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ثم ذكر أحاديث في النهي عن لعن الأموات فقال : فإن قيل : فهل يجوز أن يقال : قاتل الحسين لعنه الله ، أو الأمر بقتله لعنه الله ؟

قلنا : الصواب أن يقال : قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ، ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ، ولا تنتهي إلى رتبة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى . فهل معي أيها القارئ الكريم إلى هذه التفاهات المددوعة في غضون (إحياء العلوم) هل يراها النبي الأعظم ﷺ شيئا حسنا ، وحلف بذلك ؟ وهل سره دفاع الرجل عن إبليس اللعين أو عن جروه يزيد الطاغية الذي أبكى عيون آل الله وعيون صلحاء أمة محمد ﷺ في ريجانته إلى الأبد؟!

وهل يحق لمسلم صحيح ينزهه عن النزعة الأموية الممقوتة ، ويطلع على فقه الإسلام وطقوسه ، ويعلم تاريخ الأمة ، ويعرف نفسيات أبناء بيت أمية الساقط ، ولا يجهل أو لا يتجاهل بما أتت به يد يزيد الطاغية الأثيمة ، وما نطق به ذلك الفاحش المتفحش وما أحدثه في الإسلام من الفحشاء والمنكر ، وما ثبت عنه من أفعاله وتروكه ، وما صدر عنه من بوائق وجرائم وجرائر ، أن يدافع عنه بمثل ما أتى به هذا المتصوف الثرثار البعيد عن العلوم الدينية

وحياتها ؟ وهو لا يبالى بما يقول ، ولا يكثرث لمغبة ما خطته يمينه الخاطئة ،
والله من وراءه حسيب ، وهو نعم الحكم العدل ، والنبي الأعظم ، ووصيه
الصديق ، والشهيد السبط المفدى هم خصماء الرجل يوم يحشر للحساب مع
يزيد الخمر والفجور - ومن أحب حجرا حشره الله معه - وسيدوق وبال
مقاله ويرى جزاء محاماته^(١).

ومن هنا وغيره كان الفيض الكاشاني رحمته الله يصف كتب الإحياء بأنه مبتنٍ على
أصول فاسدة ومبتدعات كاسدة ونحو ذلك حيث يقول :

كان كثير من مطالبه خصوصا ما في فن العبادات منها مبتنيا على أصول عامية
فاسدة ، ومبتدعات لأهل الأهواء كاسدة . وكان أكثر الأخبار المروية فيه
مسندة عن المشهورين بالكذب والافتراء على الله ورسوله ﷺ ممن لا وثوق
بأقوالهم مع وجود ما يطابق العقل منها والدين في أحاديثنا المروية عن أهل
العصمة والطهارة وأهل بيت الوحي والسفارة - صلوات الله عليهم أجمعين -
بيان أحسن و طريق أنقن . وكان فيه من الحكايات العجيبة والقصص الغريبة
المروية عن الصوفية ما لا يتلقاه أكثر العقلاء بالقبول لبعدها عن ظواهر العقول
مع قلة فائدها ونزارة عائدتها^(٢) إلى غير ذلك من الأمور التي كان يشمئز عنها

(١) الغدير، ج ١١، ص ١٦٥.

(٢) أي قلة ثمرتها .

قلوب أهل الحق من الفرقة الناجية الإمامية وينبو بسببها عن مطالعته والانتفاع به طباع أكثرهم^(١).

ويصف العلامة الأميني رحمته الله كتاب الإحياء - مضافا لما تقدم من قوله فيه - قائلا: إحياء العلوم فإنه مهما كان مؤلفه متضلعا من الفقه والعلم والعرفان والحكمة والبيان والفكرة والرواية والأخلاق تراه قد اقتحم مزاعم حرجة ، أخرجته المآزق ، واستشككت عليه المواقف ، وأعضل به البحث ، وتعايا عليه المخرج كما أعى الداء الطيب ، تجده يعلي أسس الحق على شفا جرف هار ، ويدعم دعواه المجردة بتافه القول ، ويرميه على عواهنه ، ويتمسك بالسقر والبقر وبيّنات غير ، فجاء كتابه عيبة السقطات ، وسفط السفسطات ، مشحونا بالخرافات ، بين دفتيه ترهات ، وملء غضونه تافهات ، وقد أفرد الحافظ ابن الجوزي في الرد عليه كتابا أسماه (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) وفصل القول في الرد عليه في الجزء التاسع من (المنتظم) وفي (تلبيس إبليس) ص ٣٥٧ وذكرنا جملة مما أورد عليه في الجزء الحادي عشر من كتابنا الغدير^(٢).

ويصفه العلامة رحمته الله أيضا قائلا : كتاب (الإحياء) المشحون بالأباطيل والأضاليل^(٣).

(١) المحجة البيضاء، ج ١، ص ٤١.

(٢) المحجة البيضاء/ تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، ج ١، ص ٧.

(٣) الغدير، ج ١١، ص ١٦١.

ويقول فيه أيضا : إنا نحن نربأ صاحب الرسالة - يقصد رسول الله ﷺ - عن الاصفاق على تصديق مثل هذا الكتاب الذي هو في كثير من مواضعه على الطرف النقيض لما صدع به من شريعته المقدسة ، وليست أباطيل الغزالي بالغاز لا يحلها إلا الفني فيها ، وإنما هي سرد متعارف يعرفها كل من وقف عليها من أهل العلم ، وليس فهمها قصرا على قوم دون آخرين ، فهي فتق لا يرتق ، وصدع لا يرأب^(١).

متبنيات الصوفية من المعتقدات الهندية والصينية والفارسية

إن معتقدات ومتبنيات الصوفية التي أخذوها من المعتقدات الهندية والصينية والفارسية وغيرها من المعتقدات والخرافات السابقة على الإسلام كثيرة جدا ، بل يمكن الجزم بأن كل معتقدات الصوفية التي تمثل جوهر التصوف مأخوذة من تلك الديانات^(٢).

وهذه أمثلة وجملته من تلك المعتقدات والأفكار التي كانت في الديانات السابقة على الإسلام ، ومن ثم كانت من المعتقدات والمعالن البارزة في التصوف ،

(١) الغدير، ج ١١، ص ١٦٣.

(٢) يقول في خضم هذا المجال أنيس المقدسي : النظام اللاهوتي الصوفي يرجع إلى مصادر يونانية وهندية وفارسية . انظر أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٥٧. ونظيره ما جاء في الموسوعة العربية العالمية : التصوف المكتسب خالطته فلسفات وطقوس هندية وفارسية ويونانية . انظر ج ١٥، ص ٢١١.

وبعد ذلك تحولت تلك المعتقدات بواسطة الصوفية إلى مسلك الفلاسفة وما يسمى بالعرفاء الإسلاميين :

١- وحدة الوجود :

إن أصل فكرة وحدة الوجود التي تبناها الصوفية وكانت محورا لديهم في كثير من المعتقدات كانت في الفلسفة الهندية واليونانية ، يقول البيروني : إلى طريق (پاتنجل)^(١) ذهب الصوفية في الاشتغال بالحق فقالوا : ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة^(٢).

ويقول جميل صليبا أن وحدة الوجود في المعتقدات السابقة على الإسلام حيث يقول : مذهب وحدة الوجود مذهب الذين يوحّدون الله والعالم ، ويزعمون أن كل شيء هو الله . وهو مذهب قديم أخذت به البراهمانية ، والرواقية ، والأفلاطونية الجديدة ، والصوفية ، فالبرهmaniون يردون كل شيء إلى الله ، ويعتقدون أن براهمان هو الحقيقة الكلية ونفس العالم ، وأن جميع الأشياء الأخرى ليست سوى أعراض ومظاهر لهذه الحقيقة ، والرواقيون يقولون : إن الله والعالم موجود واحد ، وإن العالم لا ينفصل عن الله ، وفلاسفة الأفلاطونية الجديدة يقولون : إن الله واحد ، وإن العالم يفيض عنه كفيضان النور عن الشمس وإن للموجودات مراتب مختلفة ، إلا أنها لا تؤلف

(١) كتاب يتضمن المعتقدات والفلسفات الهندية.

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة، ص ٦٢.

مع الله إلا موجودا واحدا . والمتصوفون يقولون : إن الله هو الحق . وليس هناك إلا موجود واحد ، وهو الموجود المطلق ، أما العالم فهو مظهر من مظاهر الذات الإلهية ، وليس له وجود في ذاته ، لأنه صادر عن الله بالتجلي^(١).

٢ - وحدة الأديان :

إن وحدة الأديان من المعتقدات البارزة عند الصوفية^(٢) وهي من تعاليم فلسفة اليوجا الهندية التي ترى الحق في كل الأديان ، فقد جاء في كتاب (فلسفة اليوجا) : ذوبان بوذا في آلهة الهندوس ليس إلا عودة إلى تفكير الجنانا يوجا الذي يرى في كل الديانات وفي كل الفلسفات حقا ، ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل ، فهذا المذهب لا يعترض على دين أو فلسفة ، ويرى أن أي دين أو فلسفة ليس هو كل شيء وليس هو كل الحق ، ومعتقد هذا التفكير لا ينتمي إلى دين أو مذهب لأنه يرى أتباع كل الديانات المختلفة إخوة له مهما اختلفوا ، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع ، ويأبى أن يتقيد بقيود أي منها^(٣)

(١) المعجم الفلسفي، ج٢، ص٥٦٩.

(٢) ذكرت تحت عنوان (نماذج من أفكار الحلاج التي تبناها ابن عربي) جملة من كلمات الحلاج وابن عربي التي تدل على (وحدة الأديان) ، وتطرق لكلماتهم بشكل أكثر تفصيلا في (بدعة جواز التعبد بجميع الأديان).

(٣) مقارنة الأديان للشلبي، ج٤، ص١٦٤. عن فلسفة اليوجا ليوجي راما شاراكّا، ص١٩٨.

٣ - الفناء والبقاء :

فناء الذات الفانية في ذات الله الباقية. ويسمى الصوفية هذه الحالة بوحدة الشهود. وقد أخذ الصوفية هذه الممارسة أو الرياضة عن النرفانا الهندية التي هي فناء الذات الفانية في الذات الباقية^(١).

وقد ذكرت كلمات الصوفية في الفناء والبقاء تحت عنوان (الفناء والبقاء).

٤ - الحلول والاتحاد :

إن الحلول والاتحاد كان من معتقدات (الخرنانية) وهم جماعة من الصابئة ، يقول الشهرستاني : مقالات الخرنانية : قالوا إن الصانع المعبود واحد وكثير أما واحد ففي الذات والأول والأصل والأزل وأما كثير فلأنه يتكسر بالأشخاص في رأي العين وهي المدبرات السبعة والأشخاص الأرضية الخيرة العالمة الفاضلة فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته^(٢)

ويقول البيروني : يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد^(٣).

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج١٥، ص٢١٩.

(٢) الملل والنحل، ج٢، ص٥٤.

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة، ص١٦.

ويقول البيروني أيضا : إلى طريق (باتنجل)^(١) ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق فقالوا : ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة ، ويوجد في كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد كجواب أحدهم عن الحق : وكيف لا أتحقق من هو (أنا) بالإنية و (لا أنا) بالإنية ، إن عدت فبالعودة فرقت وإن أهملت فبالإهمال خففت وبالاتحاد ألفت ، وكقول أبي بكر الشبلي : اخلع الكل تصل إلينا بالكلية فتكون ولا تكون إخبارك عنا وفعلك فعلنا ، وكجواب أبي يزيد البسطامي وقد سئل بم نلت ما نلت : إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ثم نظرت إلى ذاتي فإذا أنا هو ، وقالوا في قول الله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾^(٢) : إن الأمر بقتل الميت لإحياء الميت إخبار أن القلب لا يحيى بأنوار المعرفة إلا بإمارة البدن بالاجتهاد حتى يبقى رسما لا حقيقة له وقلبك حقيقة ليس عليه أثر من المرسومات ، وقالوا : إن بين العبد وبين الله ألف مقام من النور والظلمة وإنما اجتهد القوم في قطع الظلمة إلى النور فلما وصلوا إلى مقامات النور لم يكن لهم رجوع^(٣) .

ويقول أنيس المقدسي : الرأي الاتحادي أي أن الله والكون واحد الذي هو أثر من آثار الأفلاطونية الجديدة مصبوغ بالصبغة الهندية^(٤)

(١) كتاب يتضمن المعتقدات والفلسفات الهندية.

(٢) سورة البقرة : ٧٣ .

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة، ص ٦٢.

(٤) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٥٤.

٥ - الحلول والتناسخ :

يقول الشهرستاني عن الحرانية^(١) : نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم فإن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول والثواب والعقاب في هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها^(٢)

ويقول السيد الطباطبائي رحمته الله : المذاهب الوثنية الهندية وكان الصابئين مثلهم أيضا مطبقون على القول بالتناسخ وهو أن العوالم غير متناهية من ناحيتي الأزل والأبد ولكل منها حظا من البقاء مؤجلا فإذا انقضى أمد بقائه بطلت صورته وتولد منه عالم آخر يعيش فيموت فيحدث ثالث وهكذا ، والنفوس الإنسانية المتعلقة بالأبدان لا تموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدأ حياة جديدة لها فإنها تتعلق بأبدان آخر تعيش فيها عيشة سعيدة إن كسبت في بدنها السابق فضائل نفسانية وعملت عملا صالحا ، وعيشة شقية إن تلبست بالرزائل واقترفت السيئات إلا الكاملون في معرفة البرهم (الله سبحانه) فإنهم أحياء بحياة الأبد آمنون من التولد الثاني خارجون عن سلطان التناسخ^(٣).

(١) جماعة من الصابئة.

(٢) الملل والنحل، ج٢، ص٥٥.

(٣) تفسير الميزان، ج١٠، ص٢٨٣.

٦ - نظرية الفيض :

يقول أفلوطين : إن الواحد المحض أي الله عندهم يشبه الضوء ، والواحد الثاني المنسوب إلى شيء آخر يشبه الشمس ، والشيء الثالث يشبه القمر الذي ينال ضوءه من الشمس . فالنفس فيها عقل مكتسب ينيرها بنوره ويصيرها عقلية . والعقل : ففيه نور ذاتي ، وليس هو نور فقط لكنه جوهر قابل للنور . فأما الشيء الذي ينير العقل ويفيض عليه النور وهو نور فقط وليس هو شيء آخر غير النور ، لكنه نور مبسوط صرف محض يفيض قوته على العقل فيصيره عقلا منيرا مضيئا . غير أن النور الذي في العقل هو شيء في شيء . فأما النور الذي ينير العقل فليس هو في شيء آخر ، بل هو نور وحده قائم ثابت بذاته ينير جميع الأشياء . غير أن من الأشياء ما يقبل نوره أكثر ، ومنها ما يقبل نوره أقل^(١).

ويقول عبد الرحمن بدوي : كتاب (أثولوجيا أرسطو طاليس) وهو كما نعلم فصول ومقتطفات ، منتزعة من التاسوعات الأفلاطونية ، وفيه نظريات الفيض والواحد التي ستلعب دورا خطيرا في التصوف الإسلامي ، خصوصا عند السهروردي المقتول وابن عربي^(٢)

ومن أمثلة نظرية الفيض عند الصوفية سواء صوفية العامة أو صوفية الشيعة أكتفي بذكر مثالين :

(١) أفلوطين عند العرب، ص ١٨٦.

(٢) تاريخ التصوف الإسلامي، ص ٤١.

الأول : يقول ابن سبعين : الواحد المحض أقل كمية وأعظم قوة من العقول التي هي أبعد من الواحد المحض . والعقول الثواني أكثر كمية وأضعف قوة . فلما كانت العقول القرية من الواحد المحض أقل كمية عرض من ذلك أن تكون الصور التي تنبجس من العقول القرية من الواحد المحض الأول انبجاسا كليا متوحدا تنبجس من العقول الثواني انبجاسا جزئيا متكثرا^(١).

الثاني : يقول ملا صدرا : قد بينا في هذه الأسفار وفي غيرها بالبرهان الحكمي أن بسيط الحقيقة كل الأشياء وقال معلم حكمة المشائين ومقدمهم في الميمر العاشر من كتابه المعروف باثولوجيا الواحد المحض هو علة الأشياء كلها وليس كشيء من الأشياء بل هو بدؤ الأشياء وليس هو الأشياء بل الأشياء كلها فيه وقد صرح بهذا في غير موضع من مواضع كتابه^(٢).

٧ - الروح الأعظم :

يقول أنيس المقدسي : الأثر الهندي في التصوف فتراه واضحا في فكرة الاتحاد الروحي في الفلسفة الهندية تُعلّم أن الروح الأعظم والعالم المادي واحد (وحدة الوجود) وكل ما في العالم يجري من ذلك الروح وإليه يعود . هو الموجود الساطع الذي يرى في قرص الشمس كما يرى في عين الإنسان هو النور الوضاء الذي يضيء في السماء وفي الأرض وفي نفس الإنسان وهو الذات العاقلة الخالدة السعيدة على أن الرجوع إلى الروح الأعظم يقتضي فهم

(١) بد العارف، ص ٢٠١.

(٢) الحكمة المتعالية، ج ٣، ص ٣٣.

أسفاره المقدسة (الفيدا) وممارسة الطقوس والعبادات الخاصة ولا سيما مراسيم التقوى والتوبة . وإنما يطهر العقل من كل فساد بممارسة الفضيلة لنفسها دون النظر إلى ثواب ... فهناك شبه بين الاتحاد الصوفي والفناء الهندي (النرفانا) ولكن الاختلاف بينهما بين ، لأن الأول يقضي باستقلال ذاتية النفس في الوجود الأعظم ، وأن يكن قد توغل بعضهم في القول بالوحدة ، والثاني يقول بتلاشيها . وسترى في شرح الصوفية بعد أن فيها أثرا كبيرا من التعاليم الهندية التي كانت منتشرة في العجم والهند قبل الإسلام ، والتي جعلت للتصوف صبغة غير الصبغة الزهدية التي عرف بها أتقياء المسلمين الأولين : هؤلاء لم يؤسسوا لاهوتا جديدا ولا خرجوا عن نصوص القرآن في ماهية الله ، وحالة النفس بعد الموت^(١).

ويقول عبد الرزاق الكاشاني في اصطلاحات الصوفية : الروح الأعظم والأقدم والأول والآخر : هو العقل الأول^(٢).

وذكر ملا صدرا الروح الأعظم في أسفاره حيث يقول : يشاهد ببصره العقلي آيات ربه الكبرى ويسمع بسمعه العقلي كلام رب العالمين من الروح الأعظم^(٣).

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٥٧.

(٢) اصطلاحات الصوفية، ص ٣٢.

(٣) الحكمة المتعالية، ج ٣، ص ٢٧.

٨ - العري والثياب الممزقة :

تقول فرقة ديجامبرا الهندية : إن العرفاء الكاملين لا يقتاتون بشيء ، ويقولون إن من يملك شيئاً من متع الدنيا ولو كان ثوباً واحداً يستر به عورته لا ينجو^(١).

وأمثلة العري والثياب الممزقة والمرقعة من معتقدات الصوفية ، وإليك بعض الأمثلة عن ذلك ، يقول الشعراني : الشيخ الجليل المجذوب رضي الله عنه : أصله من قرية يقال لها المنتين قريب من مليج وشيين وكان عريانا^(٢).

ويروي الشعراني عن المقرئ : إن الشيخ أبو الحسن المقرئ من العلماء العاملين طول ليله في صلاة ونهاره في صيام وكان عارفاً زاهداً حتى أنه كان بينه وبين أخيه عمامة وقميص فكان إذا خرج أحدهما لبسهما وجلس الآخر في البيت ، ودخل عليه زائر يوماً فوجده عريانا فقال نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري :

قوم إذا غسلوا جمال ثيابهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل^(٣)

وينقل الشعراني عن الشيخ شعبان المجذوب : كان عريانا لا يلبس إلا قطعة جلد أو بساط أو حصير أو لباد يغطي قبله ودبره فقط وكان يرى حلال زينة

(١) مقارنة الأديان، ص ١٢٦.

(٢) الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣) الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٣٣٤.

الدنيا كالحرام في الاجتناب وكانت الخلائق تعتقده اعتقادا زائدا لم أسمع قط أحدا ينكر عليه شيئا من حاله بل يعدون رؤيته عيدا عندهم تخنينا عليه من الله تعالى^(١).

إن الثياب المرقعة عند الصوفية من ضروريات الكمال لديهم ، ويرون حتى الميسور لا بد له أن يتجرد عن الثياب غير الحسنة ويرتدي الثياب البالية والمرقعة، وقد ذكرت عدة مجادلات لسفيان الثوري مع الإمام الصادق عليه السلام حول ارتداء الثياب الحسنة^(٢).

٩ - التسول والاستجداء :

كان التسول في المعتقد الهندي البوذي حيث على الراغب في الالتحاق به أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل مخلاته^(٣) للسؤال^(٤).

ويروي أبو طالب المكي : الثوري يسأل في البوادي من الحجاز إلى صنعاء اليمن ، فقال : كنت أذكرهم حديث عبد الله هذا في الضيافة . قال : فيخرجون إليّ طعاما فأكل شعبي وأترك ما بقي^(٥)

(١) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٢٧.

(٢) انظر عنوان : (سفيان الثوري) .

(٣) المخلاة : شبه كيس .

(٤) انظر مقارنة الأديان للشلبي، ج٤، ص١٦٧.

(٥) قوت القلوب، ج٢، ص٣٤٩.

ويقول المكي أيضا : عن أبي جعفر الحداد ، وكان شيخا للجنيد ، له علم في التوكل وحال من الزهد ، كان يقتات بخروجه بين العشاءين فيسأل من باب أو بابين ، فيكون ذلك معلومة إلى بعض حاجاته من يوم أو يومين ، ولم يعب هذا عليه أحد من الخصوص . وقد رأى بعض الناس رجلا من الصوفية دفع إليه كيس فيه مئون دراهم في أول النهار ففرقه كله ، ثم سأل قوتا في يده بعد عشاء الآخرة^(١).

ويروي السراج الطوسي : حكى عن أبي حفص الحداد أنه كان أكثر من عشرين سنة يعمل في كل يوم بدينار وينفقه عليهم يعني الصوفية ولا يسأل عن مسألة ويصوم ثم يخرج بين العشاءين فيتصدق من الأبواب^(٢).

ويقول السراج الطوسي : الأكل بالسؤال أجمل من الأكل بالتقوى^(٣).

١٠- ترك الزوجة والأولاد :

ترك الزوجة والأولاد من تعاليم المعتقدات البوذية الذي أنشأها بوذا^(٤) بعد ما ترك القصر الذي يعيش فيه وترك زوجته وابنه واختار العزلة وحياة

(١) قوت القلوب، ج٢، ص٣٤٨.

(٢) اللمع في التصوف، ص٢٠٩.

(٣) اللمع في التصوف، ص٢٠٤.

(٤) بوذا مؤسس الديانة أو الفلسفة البوذية عاش في شمال شرقي الهند بين ٥٦٣-٤٨٣ ق.م. أو ٤٤٨ - ٣٦٨ ق.م. الموسوعة العربية العالمية، ج٥، ص٢٣١.

وقد لجأ بوذا إلى التقشف وقتل شهوات النفس. ولكنه أدرك عدم جدوى هذه الطريقة فتركها وتوصل إلى الخطة المثلى، وهي التوسط بين البذخ والتقشف.^(٢) وترك الأهل من الأمور الشائعة عند الصوفية ومسطرة في كلمات مشايخهم، يقول مالك ابن دينار: لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي إلى مزابل الكلاب^(٣).

ويقول أبو طالب المكي: إن جماعة من أرباب القلوب وأهل المعايضة بالأحوال إذا استوطنت نفوسهم مصرا أو سكنت إلى موضع عملوا في الغربة لرفع العادة^(٤).

ويروي المكي: كان الخواص لا يقيم في بلد أكثر من أربعين يوما ويرى أن ذلك علة في توكله فيعمل في اختبار نفسه وكشف حاله^(٥).

ويقول: إن طائفة من الأبدال خرجت إلى الكهوف تخليا من أبناء الدنيا لخلاص أعمالهم إلى النظر إليهم^(٦).

^(١) انظر مقارنة الأديان، ج٤، ص١٣٤.

^(٢) الموسوعة العربية العالمية، ج٥، ص٢٣١.

^(٣) حلية الأولياء، ج٢، ص٢٨٥.

^(٤) قوت القلوب، ج٢، ص٣٤٩.

^(٥) قوت القلوب، ج٢، ص٣٥٠.

^(٦) انظر قوت القلوب، ج٢، ص٢٥٥.

ويروي الشعراني عن عدي ابن مسافر : بالغ في المجاهدة في بدايته حتى أعجز المشايخ بعده ، وكان إذا سجد سمع لمخه في رأسه صوت كصوت وقع الحصى في القرعة الناشفة من شدة المجاهدة وأقام في أول أمره زمنا في المغارات والجبال والصحاري مجردا سائحا يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات وكانت الحيات والهوام والسباع تألفه^(١).

١١ - إنشاء الأديرة :

وتسمى أيضا التكايا والخانقاوات والزوايا والربط ، وقد أخذوا هذه الطقوس من البوذية^(٢) كغيرها من التعاليم والطقوس التي أخذوها من البوذية وسائر المعتقدات الهندية وغيرها ؛ فقد أنشأ بوذا الدير في الهند^(٣) وكان محلا لتجمع البوذية وممارسة طقوسهم.

(١) الطبقات الكبرى ، ج١، ص٢٤٥.

(٢) البوذية من أكبر الديانات الوضعية والفلسفات في العالم. ظهرت قبل ٢,٠٠٠ سنة في شمال شرقي الهند، وانتشرت في معظم أنحاء الهند، وعبرت شمالا عن طريق جبال الهملايا إلى الصين والتبت وكوريا واليابان. وفي الجنوب وصلت إلى سريلانكا وتايلاند وبورما وكمبوديا وفيتنام . وانتشرت في بعض أنحاء أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا خلال القرن العشرين الميلادي . ويُقدر عدد البوذيين في العالم بنحو ٣٠٠ مليون. الموسوعة العربية العالمية، ج٥، ص٢٣١.

(٣) انظر الموسوعة العربية العالمية، ج٢٦، ص١٣٦.

ويقول عمر السهروردي : إن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية . ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف^(١).

١٢ - اتخاذ المرشد :

إن فكرة اتخاذ المرشد والشيخ التي أخذت حيزا واسعا عند الصوفية وكانت من ضرورياتهم مستلة من البوذية الذين يؤكدون على ضرورة اتخاذ مرشد في هذا الطريق^(٢).

١٣ - الموت الاختياري :

ذكر البيروني عند بيان المعتقدات الهندية في كيفية الخلاص من الدنيا وصفة الطريق المؤدي إليه : قريب من هذا يذهب الصوفية فقد حكى في كتبهم عن بعضهم : إنه وردت علينا طائفة من الصوفية وجلسوا بالبعد عنا وقام أحدهم يصلي فلما فرغ التفت وقال لي يا شيخ تعرف هاهنا موضعا يصلح لأن نموت فيه ؟ فظننت أنه يريد النوم فأومأت إلى موضع وذهب وطرح نفسه على قفاه وسكن فقامت إليه وحركته وإذا أنه قد برد^(٣).

(١) عوارف المعارف، ج١، ص١٢٦.

(٢) انظر الموسوعة العربية العالمية، ج٥، ص٢٣٢.

(٣) ما للهند من مقولة، ص٦٢.

إن من المعتقدات عند الصوفية والمتأثرين بهم هو ما يسمى عندهم (الموت الاختياري) وذكروا له قصصا وحكايات في كتبهم ، ويقصدون به أنه يمكن للإنسان أن يميت نفسه بمجرد إرادته ذلك من غير أي فعل يقتل به نفسه.

يقول الشيخ محمد تقي الآملي : للموت الاختياري معنيان : أحدهما هو الوصول إلى مرتبة العقل بالمستفاد في العقل النظري وإلى مقام الفناء في العقل العملي الحاصل بالاستكمالات العلمية والعملية والرياضات والمجاهدات رزقنا الله تعالى الوصول إليها وإذا بلغوا هذه المرتبة يتصلون في اليقظة إلى عالمهم المجرد فيشاهدون في حال الحياة واليقظة ما يشاهدونه في النوم وبعد الموت وتكون حواسهم بيدهم وفي تحت اختيارهم.

وثانيهما : هو قطع علاقة الروح عن البدن بالاختيار والانخلاع عنه ، وهذا على قسمين : فمنه ما لا يعيد بعد الانخلاع فينتهي إلى الموت الطبيعي وهذا للضعفاء منهم ، ومنه ما يعود بعد انقطاعه مع الاختلاف في مدة الانخلاع حتى نقل عن بعضهم الانخلاع في شهرين أو أكثر وقد حكى عن ابن الفارض بأنه كان ينخلع سبعة أو ثمانية أيام^(١).

(١) شرح المنظومة، ج ٢، ص ٤٠٤ .

(تذييل) الفلسفة اليونانية مستقاة من الفلسفة الهندية

قد ينبري من يدافع عن الصوفية والمتأثرين بهم ويقول : إن تشابه معتقدات الصوفية مع المعتقدات الهندية واليونانية لا يعني أن عقائدهم باطلة ومخالفة للدين؟!

والجواب عن ذلك يتمحور في نقطتين مفادهما أن التبرير المتقدم مبني على مغالطة مفادها التشابه لا يعني البطلان . ويمكن النقض عليه ونقول كما أن التشابه لا يعني البطلان فهو لا يعني أحقيتها أيضا ، مضافا إلى ذلك أن التشابه لا يعني البطلان أعم من المدعى ، أي أن التشابه تارة يكون حقا وموافقا للشرع وتارة أخرى مخالفا له كما في بعض عادات الجاهلية التي أقرها الإسلام وأبطل بعضها.

والنقطة الأساسية الأخرى أن المعتقدات الصوفية لم يكن بينها وبين الفلسفات الهندية واليونانية جهة تشابه وإنما اقتباس وتبنٍ ، وبعبارة أوضح إن الصوفية لم يكن لهم عقائد مستقلة عن هذه الفلسفات لكي نأتي ونقول إنها مشابهة أو غير مشابهة ، فما كان عندهم هو متفشٍ من تلك الديانات والمعتقدات الباطلة. بل حتى الفلسفة اليونانية كانت مستقاة من الفلسفات الهندية ، ومن ثم كانت الفلسفة اليونانية جسرا وواسطة لانتقال تلك الفلسفات إلى بلاد المسلمين وانتشارها في أوساطهم ، جاء في كتاب (أمراء الشعر العربي في العصر العباسي) : احتكاك العربية بالعقلية الهندية لم يبلغ كماله إلا بعد الإسلام ،

فإن امتداد العرب بالفتح قرب العناصر الهندية من العناصر السامية العربية وجعل بينها علاقة كبيرة في التجارة والعلم والدين من أيام بني أمية إلى أيام محمود بن سبكتكين (أواخر القرن الرابع للهجرة) كان الفتح الإسلامي بابا لتسرب المبادئ الفلسفية الهندية إلى نفوس العرب ، وقوام الفلسفة الهندية التي ظهر أثرها في تاريخ الفكر العربي الزهد والفناء الروحي ، وقد انتشرت هذه المبادئ الروحية بانتشار البوذية في ولايات إيران الشرقية واحتكاكها هناك بالإسلام بعد الفتح . وإذا اعتبرنا ما أخذه أفلاطون وفيثاغورس من فلسفة الهنود يحق لنا أن نقول إن شيئا من فلسفة الهنود وتعاليمهم وصلت إلى العرب عن طريق اليونان أيضا^(١).

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٤٨.

كرامات الصوفية

إن الكرامات عند الصوفية لها حيز واسع في كلماتهم ومصنفاتهم ، وشهرتها قد بلغت الغاية القصوى ، وهذه الكرامات تنطوي تحت عناوين السحر والدجل والاختلاق - كما كان يفعل الحلاج^(١) - وذلك لاستقطاب عامة الناس ممن تستهويهم الكرامات المزعومة وينجذبون لمدعيها ، وليس بالشيء الكثير على بعض الصوفية اختلاق الكرامات بعد ما جوزوا وضع الأحاديث للترغيب والترهيب كما يقول الشهيد الثاني رحمته الله : وكذلك ذهب بعض المبتدعة من المتصوفة ، إلى جواز وضع الحديث للترغيب والترهيب ؛ ترغيبا للناس في الطاعة ، وزجرا لهم عن المعصية^(٢).

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أمثال هذه الكرامات ذاع صيتها في أوساط عرفاء الشيعة المتأثرين بالتصوف ، وأخذت على نحو التصديق وكأنها وحي منزل من السماء لا ريب فيه ولا كلام ، مع أنها مسطورة في كتب لشخصيات غير معروفة وبعضها بأسماء وهمية ؛ فلا يمكن الركون لها ، أو على أقل تقدير لا يمكن الركون لكثير مما جاء فيها.

وأنا هنا لا أريد أن أنفي مجال الكرامات للأولياء وإمكان وقوعها ، وإنما أصبو لبيان أمرين : أن كرامات الصوفية هي كرامات مزعومة لكونهم فرقة ضالة

(١) ذكرت حيل الحلاج وحكاياته في هذا المجال عند الكلام عن الحلاج ودوره في إدخال التصوف إلى التشيع.

(٢) شرح البداية في علم الدراية، ص ١٦٥.

مبنية على الأهواء والبدع ، وما يصدر منهم كما أسلفت آنفا يندرج تحت عناوين السحر والحيل والاختلاق - سواء كان هذا الاختلاق منهم أو من قبل أتباعهم - والأمر الآخر أن ما يُنسب لعرفاء الشيعة المتأثرين بالتصوف من كرامات وخوارق لم يكن صحيحا على إطلاقه ، وأن جماعات تنتمي لهذا السلك تفترى الكرامات كذبا وزورا لإثبات توجههم الذي حاولوا الانتصار له بكل وسيلة ممكنة - وإن كانت من خلال نشر الكرامات المنسوبة لذوي توجههم من غير الثبوت من مصدرها وصحته ، أو من خلال افتراء الكرامات المكذوبة تأييدا وترويجا لما ينتمون إليه - بعد ما تصدى له علماء الشيعة قاطبة باستثناء من تأثر بالتصوف .

وبعد هذه المقدمة الموجزة يحسنُ نقل نماذج من كرامات الصوفية المصطنعة في أقدم مصادرهم ليتضح بصورة أكثر جلاءً ووضوحاً مقدار عقول هذه الجماعة وقدر المتأثرين بهم سواء كانوا من العامة أو الخاصة :

يقول السراج (ت: ٣٧٨هـ) : قال ابن عطاء سمعت أبا الحسين النوري يقول كان في نفسي من هذه الكرامات شيء فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ثم قلت وعزتك لئن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال فلأغرقن نفسي قال فخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال^(١).

ويقول أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ) : حدثنا عن بعض الشيوخ قال : لبثت في البرية أحد عشر يوما لم أطعم شيئا ، . وتطلعت نفسي أن تعرج على حشيش

(١) اللمع في التصوف، ص ٣٣٩.

البرية ، فرأيت الخضر مقبلا نحوي فهربت منه ، فلما وليت عنه هاربا التفت إليه ، فإذا هو قد رجع عني ، فانظروا إلى ولي الله ﷺ كيف لم يفسد علي توكلي . فقل له : لم هربت منه ؟ قال : تشوفت نفسي أن يقيتني^(١) .

وذكر عبد الكريم القشيري (ت: ٤٦٥هـ) في رسالته المعروفة بالتصوف : يقول أبو نصر السراج : أراني أبو الطيب العكي جزءا ذر فيه من ذكر هذا الدعاء على ضالة وجدها ، وكان الجزء أوراقا كثيرة . سألت أحمد الطابرائي السرخسي ، فقلت له : هل ظهر لك شيء من الكرامات ؟ فقال : في وقت إرادتي وابتداء أمري ربما كنت أطلب حجرا استنجي به فلم أجد ، فتناولت شيئا من الهواء فكان جوهرًا فاستنجيت به وطرحته^(٢) .

ويقول الدميري (ت: ٨٠٨هـ) : روينا بالسند الصحيح أن الشيخ عبد القادر الجيلي ، جلس يوما يعظ الناس ، وكانت الريح عاصفة ، فمرت على مجلسه حدأة طائرة ، فصاحت فشوشت على الحاضرين ما هم فيه ، فقال الشيخ : يا ربح خذي رأس هذه الحدأة فوقعت لوقتها في ناحية ورأسها في ناحية فنزل الشيخ عن الكرسي وأخذها بيده ، وأمر يده الأخرى عليها . وقال : بسم الله الرحمن الرحيم فحييت وطارَت والناس يشاهدون ذلك^(٣) .

(١) قوت القلوب، ج٢، ص٣٥٠.

(٢) الرسالة القشيرية، ص٤٩٧.

(٣) حياة الحيوان، ج١، ص٣٢٨.

وجاء في كتاب الطبقات الكبرى للشعراني (ت: ٩٧٣هـ) : يقول ذو النون المصري : جاءني امرأة فقالت إن ابني أخذہ التماسح فلما رأيت حرقها على ولدها أتيت النيل وقلت اللهم أظهر التماسح فخرج إلي فشقت عن جوفه فأخرجت ابنها حيا صحيحا فأخذته ومضت وقالت اجعلني في حل فإني كنت إذا رأيتك سخرت منك وأنا تائبة إلى الله ﷻ^(١).

ويقول المناوي (ت: ١٠٣١هـ) عن أيوب السخيتاني : كان بطريق مكة فعطش الناس وخافوا ، فقال لرفقته : أتكتمون عليّ ؟ قالوا : نعم . فدعا وحول رداءه، فنبع الماء فورا ، فرووا وسقوا الدواب ، ثم مر بيده على الموضع فكان كما كان . وكان مرة بمكة على جبل حراء فعطش رفيقه ، فغمز برجله الجبل ، فنبع الماء من تحتها^(٢).

ويقول الشعراني عن يوسف العجمي : لما ورد عليه وارد الحق بالسفر من أرض العجم إلى مصر فلم يلتفت إليه فورد ثانيا فم يلتفت إليه فورد ثالثا فقال اللهم إن كان هذا وارد صدق فاقلب لي عين هذا النهر لبنا حتى أشرب منه بقصعتي هذه فانقلب النهر لبنا وشرب منه^(٣).

ويقول الشعراني عن إبراهيم المتبولي : يجتمع بالنبي في اليقظة ويشاوره على أموره وكان مما شاوره عليه عمارة الزاوية التي ببركة الحاج فقال يا إبراهيم

(١) الطبقات الكبرى، ج١، ص١٢٩.

(٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ج١، ص٢٣٠.

(٣) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٣.

عمرها هنا وإن شاء الله تعالى تكون مأوى للمنقطعين من الحاج وغيرهم وهي دافعة البلاء الآتي من الشرق عن مصر فما دامت عامرة فمصر عامرة . ولما شرع في غرس النخل بالقرب من البركة لم يصح له بئر فاستأذن النبي ﷺ في ذلك فقال غدا إن شاء الله تعالى أرسل لك علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعلم لك على بئر نبي الله شعيب التي كان يسقي منه غنمه فأصبح فوجد العلامة مخطوطة فحفر فوجدها وهي البئر العظيمة بغيطة إلى الآن^(١).

ويقول المناوي عن إبراهيم المتبولي : لما وقع الغلاء زمن قايتباي ، اجتمع عنده خمس مائة نفس ، فصار يطعمهم خبزا بغير آدم ، فطلبوا أدما ، فقال لنقيبه : اذهب إلى الخوص الذي في النخل ، فارفع الحصير ، وخذ حاجتك ، فرفعها فوجد قناة تجري ذهابا من علو إلى سفلى ، فأخذ قبضة ، فاشترى بها أدما ذلك اليوم ، ثم قال له : يا سيدي ، إذن نوسع على الناس . قال : لا ، فذهب بغير علمه ، فلم يجد القناة^(٢).

ويقول الشعراني عن شمس الدين الحنفي : كان في خلوة الشيخ توتة مزرعة قال الشيخ فخطر لي أن أبسطها فقلت يا توتة حدثيني حدوثه فقالت بصوت جهوري نعم إنهم لما زرعوني سقوني فلما سقوني أسست فلما أسست فرعت

(١) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٦٦.

(٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ج٣، ص١٢٥.

فلما فرغت أورقت فلما أورقت أثمرت فلما أثمرت أطعمت قال الشيخ فكان كلامها سلوكا لي وقد حصل لي بحمد الله ما قالت التوتة.^(١)

ويقول الشعراني أن أحد الأمراء زار شمس الدين الحنفي : فقال له الشيخ قم إلى هذا البئر فاملاً منه هذه الفسقية للوضوء فيصير ثواب ذلك في صحيفتك إلى يوم القيامة فخلع الأمير ثيابه وملأ دلو فوجده ثقيلاً فعالجه حتى طلع به فوجده ذهباً فقال ذلك للشيخ فقال صبه في البئر واملاً فملأه كذلك ثانياً وثالثاً فقال قل للبئر ما لنا حاجة إلا بالماء فاستحقر الأمير ما كان أرسله للشيخ وطلب الفقراء بالوعة للميضأة فغرز الشيخ عكازه وقال هذه بالوعة فهي إلى الآن ينزل فيها ماء الوضوء ولا يعرفون إلى أين يذهب.^(٢)

ويتكلم الشعراني عن الفرغل : خطف التمساح بنت مخيمر النقيب فجاء وهو يبكي إلى الشيخ فقال له أذهب إلى الموضع الذي خطفها منه وناد بأعلى صوتك يا تمساح تعال كلم الفرغل فخرج التمساح من البحر وطلع كالركب وهو ماش والخلق بين يديه جارية يمينا وشمالا إلى أن وقف على باب الدار فأمر الشيخ الحداد بقلع جميع أسنانه وأمره بلفظها من بطنه فلفظ البنت حية مدهوشة وأخذ على التمساح العهد أن لا يعود يخطف أحدا من بلده ما دام يعيش ورجع التمساح ودموعه تسيل حتى نزل البحر.^(٣)

(١) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٧٦.

(٢) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٨٠.

(٣) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٩٤.

ويقول الشعراني عن الشيخ شعبان المجذوب : كان من أهل التصريف بمصر المحروسة وأقعد آخر عمره في زاويته بسوقة اللبن إلى أن مات ، وكان يخبر بوقائع الزمان المستقبل وأخبرني سيدي علي الخواص أن الله تعالى يطلع الشيخ شعبان على ما يقع في كل سنة من رؤية هلالها فكان إذا رأى الهلال عرف جميع ما فيه مكتوبا على العباد ، وكان إذا اطلع على موت البهائم يلبس صبيحة تلك الليلة جلد البهائم أو البقر أو الغنم ، أو تسخير الجمال لجهة السلطنة يلبس الشليف الليف فيقع الأمر كما نوه به ، وكان سيدي علي الخواص إذا أشكل عليه أمر يبحث يسأله عنه . وكان يرسل يخبرني مع النقيب عن أحوالي الواقعة في الليل ، وجاءتني مرة امرأة من الريف تريد أن تفسخ نكاح ابنتها لكون زوجها غاب عنها مدة طويلة فباتت عندي من غير علمي فأرسل نقيب لي من الفجر يقول لي يقول لك الشيخ لا تفرق بين رأسين في الحلال فعلمت أن زوجها سيرجع فأخبرت المرأة فرجعت عن ذلك وجاء الأمر كما قاله . هذا المرأة لم تخاطبني بكلام وإنما كانت مضمرة في نفسها أنها تخبرني بذلك بكرة النهار فعلم الشيخ بخاطرها^(١).

وينقل الشعراني عن أحمد البدوي : كان يمكث الأربعين يوما وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام^(٢).

(١) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٢٦.

(٢) الطبقات الكبرى، ج١، ص٣٢٢.

وينقل الشعراني عن سمون : يقول اجتمعت برجل فقير نقر له خشبة في البحر له فيها منذ ثلاثين سنة فقلت له حدثني بأعجب ما رأيت في البحر فقال هبت على في بعض الليالي ريح عظيمة حتى أظلم البحر فداخني من ذلك وحشة عظيمة فطلبت من الله شيئاً يزيل تلك الوحشة وإذا بتنين عظيم فاتح فاه فألقنتي الخشبة نحوه فدخلت في فيه وجلست على ناب من أنيابه وصليت ركعتين فزالت تلك الوحشة وحصل عندي أنس عظيم^(١).

ويقول الشعراني : دخل سيدي عبد القادر الجيلي ومعه اثنان على رجل كان يلقب بالغوث ، وكان من شأنه أن يختفي إذا شاء ويظهر إذا شاء ، فقال سيدي عبد القادر نويت التبرك بهذا الرجل ، فقال الآخر أنا لا اعتقده إلا أن أظهر لي كرامة ، وقال الآخر أنا منكر عليه ، فبينما هم جالسون إذ ظهر من بينهم فنظر إلى من قال أنا منكر وقال : أنت المنكر علي إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك ، وقال للآخر أنت الذي تقول لا اعتقده إلا أن أظهر كرامة ستجراً عليك الدنيا إلى شحمتي أذنك ، وقال لسيدي عبد القادر أنت الذي تزورني للبركة سيعلو شأنك حتى تؤمر بأن تقول قدمي هذه على عنق كل ولي لله ﷺ وتخضع لك أولياء المشرق والمغرب ويطأطئ رقابهم ، فكان الأمر كما قال . وأما المنكر فسافر من بغداد ليناظر القسيسين ببلاد الروم ففعل وناظرهم فغلبهم فأعجب السلطان وقربه وطلب منه تزويج ابنته فقال لا يمكن ذلك إلا أن تدخل في دينها فتتصر وتزوجها ومات على دين النصرانية . وأما الذي

(١) الطبقات الكبرى، ج١، ص١٦٣.

أوقف اعتقاده على إظهار كرامة فتولى مال بيت المال وصار من أوسع الناس
في الدنيا لسواد به ذكره في كتاب البهجة والله أعلم^(١).

(١) الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٤٢.

التوفيق بين التصوف والتشيع ضرب من الوهم والخيال

إن محاولات السيد حيدر الأملي وملا صدرا في التوفيق بين التصوف والتشيع ضرب من الوهم والخيال ، فهي عبارة عن عناء وتكلف للجمع بين الأمور المتباينة والمتغايرة ؛ ينقل الشيخ مرتضى مطهري رحمته الله رأي فريق من أصحاب الحديث والفقهاء في محاولات التوفيق بين العرفان الصوفي والكتاب والسنة فيقول : في اعتقاد هذا الفريق أن العرفاء لا يرتبطون عمليا بالإسلام وأن استنادهم إلى الكتاب والسنة إنما هو خداع صرف وتظليل للعوام ولتأليف قلوب المسلمين وليس للعرفان أساسا أي ارتباط بالإسلام^(١).

وفي الحقيقة هذا هو الرأي السائد عند علماء المسلمين إلا من تأثر منهم بالتصوف فإنه تكون له وجهة نظر أخرى.

والسيد الطباطبائي رحمته الله يرى عمليات التوفيق لا تقلل من الاختلاف القائم بين العلماء وكثرة المساعي لا تزيده إلا شدة في الاختلاف إذ يقول : رام جمع من العلماء بما عندهم من بضاعة العلم على اختلاف مشاربهم أن يوفقوا بين الظواهر الدينية والعرفان كابن العربي وعبد الرزاق الكاشاني وابن فهد والشهيد الثاني والفيض الكاشاني . وآخرون أن يوفقوا بين الفلسفة والعرفان كأبي نصر الفارابي والشيخ السهروردي صاحب الإشراف والشيخ صائن

(١) العرفان والكلام، ص ٧٣.

الدين محمد تركه . وآخرون أن يوفقوا بين الظواهر الدينية والفلسفة كالقاضي سعيد وغيره . وآخرون أن يوفقوا بين الجميع كابن سينا في تفاسيره وكتبه وصدر المتألهين الشيرازي في كتبه ورسائله وعدة ممن تأخر عنه . ومع ذلك كله فالاختلاف العريق على حاله لا تزيد كثرة المساعي في قطع أصله إلا شدة في التعرق ، ولا في إخماد ناره إلا اشتعالا : ألفيت كل تيممة لا تنفع^(١).

وصاحب الرياض رحمته الله يصف توفيق حيدر الآملي في كتابه (جامع الأسرار ومنبع الأنوار) بين التصوف والشريعة بالجمع لأقوال الصوفية المتعارضة مع الشريعة وتوجيهها فيقول : وقد جمع فيه بين الأقوال المتعارضة المتضادة للصوفية وتوجيه كلماتهم المعارضة المناقضة للشريعة الحققة وفيه فوائد نافعة وحشو كثير من مطالب الصوفية ضائعة^(٢).

إن كلام صاحب الرياض رحمته الله وإن كان في وصف توجيه حيدر الآملي إلا أنه يعم ملا صدرا وكل محاولات التوفيق في هذا الاتجاه.

ونظير كلام صاحب الرياض رحمته الله كلام آقا بزرك الطهراني رحمته الله في كتاب الآملي (جامع الأسرار) حيث يقول : هو مشتمل على ثلاثة أصول وفي كل أصل

(١) تفسير الميزان، ج ٥، ص ٢٨٣.

(٢) رياض العلماء، ج ٢، ص ٢٢١.

أربع قواعد حاول فيه الجمع بين المتضادات والمتعارضات من أقوال الصوفية وتوجيه كلماتهم بما ينطبق على الشريعة^(١).

إن محاولات التوفيق بين التصوف والنصوص الدينية سواء الآيات أو الروايات هي عبارة عن لي عنق تلك النصوص ، وتحميلها ما لا تحمل وتشبه إلى حد ما بعض الفلسفات التي تقول باجتماع التناقض والتضاد والتوفيق بين الشيء ونقيضه.

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج٥، ص٣٩.

وقفات مع ملا صدرا

إن ملا صدرا كالسيد حيدر الآملي لديه زلل وخلل بأصل مسلكه ومنهجه نحو التصوف ، ولذا كان يلزمه صدور الهفوات والسقطات وبشكل كبير جدا ، ولكي أدلل على ذلك أذكر شطرا من هفواته بينة الغي والزيف .

كذب الوقاتون في تفسير ملا صدرا

يقول : فصل في القيامتين الصغرى والكبرى أما الصغرى فمعلومة من مات فقد قامت قيامته وأما الكبرى فمبهمة وقتها ولها ميعاد عند الله ومن وقتها على التعيين فهو كاذب لقوله ﷺ : (كذب الوقاتون)^(١).

إن هذا الحديث ورد عن الأئمة عليهم السلام ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس المحذور في ذلك وإنما في تفسيره ؛ لأنه ورد في التوقيت لظهور الإمام المهدي عليه السلام ولم يرد في يوم القيامة.

نقل الشيخ الكليني رحمته الله في أصول الكافي ثلاثة أحاديث تدل على أن التوقيت في ظهور الإمام عليه السلام ، ولا شأن له بيوم القيامة ، أنقل منها خبرا واحدا للاختصار: عن عبد الرحمن ابن كثير قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه مهزم

(١) الحكمة المتعالية، ج ٥، ص ٢٧٧.

فقال له : جعلت فداك أخبرني عن هذا الأمر الذي نتظر متى هو ؟ فقال : يا مهزم كذب الوقتون وهلك المستعجلون ونجا المسلمون.

إيمان فرعون ما بين فكر أهل البيت عليهم السلام وابن عربي وملا صدرا

ينقل ملا صدرا كلام ابن عربي في إيمان فرعون تحت عنوان (إيمان فرعون مقبول أم لا) يقول فيه أن فرعون مقبول الإيمان وغرقه وموته شهادة خالصة لربه ولا يوجد دليل أن فرعون يدخل النار .

وعلق ملا صدرا على كلامه قائلا : ويفوح من هذا الكلام رائحة الصدق وقد صدر من مشكوة التحقيق وموضع القرب والولاية^(١).

ويقصد من مشكوة التحقيق وموضع القرب والولاية هو ابن عربي!!

هذا بالنسبة إلى إيمان فرعون وما يترتب عليه في نظر ابن عربي وملا صدرا ، أما إذا أردنا معرفة حقيقة الأمر عند أهل البيت عليهم السلام فسنجد الأمر مختلفا تماما إذ ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله : شر الأولين والآخرين اثنا عشر ، ستة من الأولين وستة من الآخرين . ثم سمي الستة من الأولين ابن آدم الذي قتل أخاه ، وفرعون وهامان وقارون والسامري والدجال اسمه في الأولين ويخرج في

(١) تفسير ملا صدرا، ج٣، ص٣٦٤.

الآخرين ، وأما الستة من الآخرين فالعجل وهو نعثل ، وفرعون وهو معاوية ، وهامان هذه الأمة وهو زياد ، وقارونها وهو سعيد ، والسامري وهو أبو موسى عبد الله بن قيس لأنه قال كما قال سامري قوم موسى : لا مساس أي لا قتال^(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : إن في التابوت الأسفل ستة من الأولين وستة من الآخرين ، فأما الستة من الأولين فابن آدم قاتل أخيه وفرعون الفراعنة والسامري والدجال كتابه في الأولين ويخرج في الآخرين ، وهامان وقارون ، والستة من الآخرين فنعثل ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري ، ونسي المحدث اثنين^(٢).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عليه السلام قال : للنار سبعة أبواب : باب يدخل منه فرعون وهامان وقارون وباب^(٣).

وعنه عليه السلام : من روع مؤمنا بسلطان ليصبيه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار ومن روع مؤمنا بسلطان ليصبيه منه مكروه فأصابه فهو مع فرعون وآل فرعون في النار^(٤).

(١) الخصال، ص ٤٥٩.

(٢) الخصال، ص ٤٨٥.

(٣) الخصال، ص ٣٦٢.

(٤) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٦٨.

وروي عن إبراهيم بن محمد الهمداني قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام : لأي علة أغرق الله ﷻ فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده ؟ لأنه آمن عند رؤية البأس والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول وذلك حكم الله تعالى في السلف والخلف قال الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ ^(١) وقال ﷻ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ ^(٢) وهكذا فرعون لما أدركه الغرق قال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ف قيل له : ﴿ أَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَى بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ^(٣) وقد كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد ولبسه على بدنه فلما أغرق ألقاه الله على نجوة من الأرض ببذنه لتكون لمن بعده علامة فيرويه مع ثقله بالحديد مرتفع من الأرض وسبيل الثقل أن يرسب ولا يرتفع وكان ذلك آية وعلامة ولعلة أخرى أغرق الله ﷻ فرعون وهي أنه : استغاث بموسى لما أدركه الغرق ولم يستغث بالله فأوحى الله ﷻ إليه يا موسى لم تغث فرعون لأنك لم تخلقه ولو استغاث بي لأغثته ^(٤).

(١) سورة غافر : ٨٤-٨٥.

(٢) سورة الأنعام : ١٥٨ .

(٣) سورة يونس : ٩٠-٩١-٩٢.

(٤) عيون الأخبار، ج١، ص٨٤.

وعن محمد بن أبي عمير قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : أخبرني عن قول الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ^(١) فقال عليه السلام : أما قوله : ﴿ قَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ إلى أن قال : وقد علم الله أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى إلا عند رؤية البأس ألا تسمع الله يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فلم يقبل الله إيمانه وقال : ﴿ أَلَا نَ وَقد عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٢) ^(٣).

إن ملا صدرا لم يكتفِ بالتوفيق بين كلام ابن عربي والنصوص الدينية ، وإنما تجاوز إلى أبعد من ذلك وأخذ يقدم كلامه على النصوص مع شدة وضوحها والمتبادر الصريح منها ، بل ينظر إلى كلامه وكأنه من النصوص الدينية التي لا يمكن ردها ، ينقل السيد الأمين رحمته الله عند ترجمة ملا صدرا قول الشيخ محمد رضا المظفر رحمته الله في ملا صدرا قائلاً : (يكثُر من النقل عن محيي الدين بن عربي المتوفى (٦٣٨هـ) في جميع كتبه ولا يذكره إلا بالتقديس والتعظيم كالتعبير عنه بالحكيم العارف والشيخ الجليل المحقق ونحو ذلك بل في بعض المواضع ما يشعر بأن قوله عنده من النصوص الدينية التي يجب التصديق بها ولا يحتمل فيها الخطأ) ^(٤).

^(١) سورة طه : ٢٤ .

^(٢) سورة يونس : ٩١-٩٠ .

^(٣) علل الشرائع ، ص ٣٤ .

^(٤) أعيان الشيعة ، ج ٩ ، ص ٣٢٨ .

يا شيخنا المظفر هذا الملا لم يكتف بعد كلام ابن عربي من النصوص الدينية بل قدم كلامه على النصوص متقربا لمنهج القويم ووجه الكريم !

روي عن الإمام الرضا عليه السلام : إن ممن يتخذ مودتنا أهل البيت لمن هو أشد فتنة على شيعتنا من الدجال ، فقلت : يا بن رسول الله بماذا ؟ قال : بموالة أعدائنا ومعاداة أوليائنا ، إنه إذا كان كذلك اختلط الحق بالباطل واشتبه الأمر فلم يعرف مؤمن من منافق^(١).

عشق المخلوق بين الدين والصوفية

إن بعض الصوفية الذين تقدموا على عصر ملا صدرا كان لهم كلام في النظر وعشق المخلوق ، حتى أن أحدهم صنف كتابا في ذلك ، أترفع عن ذكر عنوانه وذكر كلماتهم وأنزه القارئ الكريم عنها .

وقد تأثر صدر المتألهين - كما يقولون - بكلمات هؤلاء الصوفية وسطرها في حكمته المتعالية ! ليس نقدا لها وإنما متبنيا ومنظرا على صحتها وأحقيتها ، ولولا شناعة وقبح اللفظ والمعنى لذكرت بعضها ، وحتى عنوان الفصل الذي

(١) صفات الشيعة، ص ٨.

أورد فيه تلك الكلمات عنوان قبيح ولذا أذكر عنوان الفصل الذي سبقه وهو :
(التنبيه على إثبات الصور المفارقة)^(١).

إن القرآن والسنة النبوية يدعوان إلى غض البصر والتعفف ، وهؤلاء الصوفية
يسنون البدع والمخالفات الشرعية ليتقربوا بها إلى الله تعالى ، يقصدونه من
حيث نهيه وبغضه ، ويعرضون عنه من جهة أمره وشرعه ! قال عز من قائل :
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا
عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : العشق جهد عارض صادف قلبا فارغا^(٣).

وعنه عليه السلام : العشق مرض ليس فيه أجر ولا عوض^(٤).

(١) ومن شاء فليراجع كلامه ج ٧، ص ١٧١.

(٢) سورة النور: ٣٠-٣١.

(٣) مستدرک سفينة البحار، ج ٧، ص ٢٤٧، عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(٤) مستدرک سفينة البحار، ج ٧، ص ٢٤٧، عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

وعنه عليه السلام : من عشق شيئاً أعشى بصره ، وأمراض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ، ويسمع باذن غير سمیعة ، قد خرقت الشهوات عقله ، وأماتت الدنيا قلبه ، وولّيت عليها نفسه فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها^(١).

وعن الفضل بن عمر قال : سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن العشق فقال : قلوب خلت من ذكر الله فأذاقها الله حبّ غيره^(٢).

والشيخ المظفر نقل قول الشيخ هادي السبزواري في رد كلام ملا صدرا عند حاشيته على الأسفار : إنه ممنوع شرعاً^(٣).

وأيضاً الشيخ المظفر نقض على ملا صدرا كلامه هذا ورده بعدة وجوه حتى أنه وصف كلامه بكونه خطايا أراد أن يؤثر على مشاعر تلاميذه^(٤).

وتارة أخرى وصفه : بخيال الشعراء وأوهام العشاق^(٥).

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام : العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً^(٦).

^(١) نهج البلاغة، خطبة (١٠٨) .

^(٢) علل الشرائع ، ج ١ ، ص ٢٠٨.

^(٣) أحلام اليقظة، ص ١٨٨.

^(٤) أحلام اليقظة، ص ١٩٠.

^(٥) أحلام اليقظة، ص ١٩٦.

^(٦) أصول الكافي، ج ١، ص ٤٤.

حكيم الإشراق واعتقاده بحكم الأرض

صاحب حكمة الإشراق - الذي يجله ملا صدرا ونقل الكثير من أقوله في أسفاره ويعبر عنه ب (بعض الأعظم) ، ويصف كتابه (حكمة الإشراق) بأنه : (قرة عيون أصحاب المعارف والأذواق)^(١) وغيرها من نعوت المدح والثناء - كان يعتقد بأنه سيحكم الأرض بسبب منام رآه !

روى ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ) : قال الشيخ سيف الدين الآمدي اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي : لا بد أن أملك الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا قال : رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر ، فقلت : لعل هذا يكون اشتها العلم وما يناسب هذا فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه ، ورأيت كثير العلم قليل العقل^(٢).

إن المنامات لها حيز كبير في تأسيس مشارب الصوفية ومدركاتهم فلم يكن صاحب حكمة الإشراق شاذاً عن مسلكهم ، ومن هنا نجد غير واحد منهم ينقل مناماته ويبنى عليها مدركاته ومعارفه ، مثل حيدر الآملي الذي نقل مناماته في كتابه (نص النصوص) ومن ثم استدل على ثبوت ولايته من خلالها كما ذكرت ذلك تحت عنوان (ثبوت ولاية الآملي بالمنامات) !

(١) انظر كتاب ملا صدرا المبدأ والمعاد، ص ١٩٧.

(٢) وفیات الأعيان ج ٦، ص ٢٧٢. وأيضاً في طبقات الشافعيين، ج ١، ص ٧٣٤.

وأيضاً مثل الجنيد البغدادي وأستاذه السري الذي يروي الهجويري عنهما :
كان الجنيد يتحاشى أن يدارس تلاميذه مدة حياة السري ، حتى طلب منه
مريدوه أن يعلمهم فقال : أما وشيخي موجود فلا ، حتى أتاه رسول ﷺ ذات
ليلة ، فقال له : يا جنيد تكلم للناس فإن كلامك راحة للقلوب وإن الله جعل
كلامك سبباً في نجاة كثير من أمتي . فلما استيقظ من منامه ظن أن مقامه أكبر
من مقام السري لأن رسول ﷺ أمره بالدعوة فلما أرسل إليه السري مريداً
بالرسالة الآتية : إنك لم تقبل أن تدرس تلاميذك إذ طلبوا منك ذلك ،
ورفضت وساطة مشايخ بغداد ، وحيث أمرك رسول الله ﷺ فأطع الأمر .
قال الجنيد فأخرجت هذا الرأي من قلبي ، وعلمت أن السري أعلم بظاهري
وباطني ، وأن مرتبته أكبر من مرتبتي ، حيث إنه علم بسري ، وتحققت جهلي
بمقامه ، فذهبت إليه وسألته السماح وأن يخبرني من أين علم أنني رأيت رسول
الله ﷺ ، قال لي : يا بني رأيت رب العزة ﷻ فأخبرني بأنه أرسل رسول الله
ﷺ يأمرك بالدعوة . من هذه الحادثة تعلم صريحاً بأن للعارفين معرفة تامة
بأسرار مرديهم^(١).

وأيضاً الغزالي الذي يروي قصة منامه ! قائلاً : كنت في بدايتي منكراً لأحوال
الصالحين ومقامات العارفين حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى في
المنام فقال لي يا أبا حامد ! قلت : أو الشيطان يكلمني ؟ قال : لا . بل أنا الله
المحيط بجهاتك الست ثم قال : يا أبا حامد ! ذر أساطيرك وعليك بصحبة أقوام

(١) كشف المحجوب، ص ١٥٨.

جعلتهم في أرضي محل نظري ، وهم أقوام باعوا الدارين بحبي . فقلت : بعزتك إلا أذقتني برد حسن الظن بهم . فقال : قد فعلت ذلك والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فأخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً ، فقد أمضيت عليك نورا من أنوار قدسي ، فقم وقل . قال : فاستيقظت فرحاً مسروراً وجئت إلى شياخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسم وقال : يا أبا حامد ! هذا ألواحنا في البداية فمحوناها ، بلى إن صحبتني سأكحل بصر بصيرتك بأثم التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار ، فتصفو من كدر طبيعتك ، وترتقي على طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالى - كما كان لموسى عليه السلام - : أنا الله رب العالمين^(١).

والعلامة الأميني رحمه الله استهجن كلام الغزالي ورده قائلاً : مادم نفسه يقرءك السلام^(٢) . ليت شعري هل كان يضيق فم الشيطان عن أن يقول : أنا الله المحيط بجهاتك الست ، كما لم تضق أفواه المدعين للربوبية في سالف الدهر ؟ فمن أين عرف الغزالي بصرف الدعوى إنه هو الله ؟ ولماذا لم يحتمل بعد إنه هو الشيطان ؟ وإن كان قد صدق الرؤيا وأذعن بأن الله هو الذي خاطبه فلماذا لم يدع الأساطير وقد خوطب بـ : ذر الأساطير . ولم ينسج على نول النساج شيخه إلا التافهات ؟ وليته كان يوجد في صيدلية النساج كحل آخر تحد

(١) الغدير، ج ١١، ص ١٦٠. عن مفتاح السعادة، ج ٢، ص ١٩٤.

(٢) مثل معناه: إن الذي يمدح نفسه يذمها ويتدحرج إلى الورا.

بصر الغزالي وبصيرته حتى لا يبوء بإثم كبير مما في إحيائه من رياضيات غير مشروعة محبذة من قبله كقصّة لص الحمام وغيرها ، وحديث منعه عن لعن يزيد اللعين^(١) في باب آفات اللسان إلى أمثاله الكثير الباطل^(٢).

وابن عربي نقل عدة منامات للغزالي في غير موضع من مؤلفاته ، وقد ذكرت بعضها تحت عنوان : (تأثر ابن عربي بالحلاج والغزالي) .

لقب الحكماء الإلهيين

إن لقب (الحكماء الإلهيين) كان يُطلق على الفلاسفة ، وعلى عرفاء الصوفية ، ويُطلق أيضا على عرفاء الشيعة المتأثرين بالتصوف ، لأنه لقب يوناني ، كان يطلق على المرتاضين ، فلا يُتوهم أن الحق مع أصحاب هذا الوصف ، أو أنه يدل على أحقيتهم ؛ ولذا يقول صاحب (أضواء على التصوف) : عند قدماء اليونان مذهب روحي يعتنقه النساك والزهاد يناون بجانبهم عن الدنيا ويلجؤون إلى أنواع المجاهدات والرياضات الروحية يتقربون بأرواحهم إلى

(١) ذكرت كلام الغزالي في (لص الحمام) و (لعن يزيد) تحت عنوان : (الغزالي ألبس التصوف لبوس الفقه) .

(٢) الغدير، ج ١١، ص ١٦٠.

خالقهم لتلقي الحكمة والمعارف القدسية كان يطلق عليهم لقب : (تيو صوفية) ومعناه : الحكماء الإلهيون^(١).

الأسفار الأربعة هي أسفار صوفية

إن الأسفار الأربعة في الحكمة المتعالية لملا صدرا هي أسفار صوفية ، وليست على نهج أهل البيت عليه السلام ، فلم تكن في نشأتها والتبويب لها وفق أهل البيت عليه السلام ، يقول عبد الرزاق الكاشاني الذي سبق ملا صدرا بما يقرب من ثلاثة قرون : والأسفار أربعة ؛ الأول : هو السير إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين ، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الأسماوية . الثاني : هو السير في الله بالاتصاف بصفاته ، والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى ونهاية الحضرة الواحدية . الثالث : هو الترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الإثنية فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية . السفر الرابع : هو السير بالله عن الله للتكميل . وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع^(٢).

(١) أضواء على التصوف، ص ٦٦.

(٢) اصطلاحات الصوفية، ص ٣٦.

ومن هنا يتضح أن من أراد السير إلى الله تبارك وتعالى عن طريق الأسفار الأربعة فعليه أن يعرف أن سيره هذا وفق السير الصوفي ، ولم يكن منه سوى الوهم والعناء.

الشرح الفلسفي للنص الديني والقيمة المعرفية لكتب ملا صدرا

إن من فجائع الدهور وفظائع الخطوب التي حدثت مع الأئمة عليهم السلام أنهم لعنوا الصوفية وحذروا منهم ومن الميل إليهم ، ومع هذا نجد من يدعي أنه يقتضي أثرهم يوفق بين حديثهم عليهم السلام وأباطيل فلسفة الصوفية ويشرحه وفق مختلفاتهم ! وعند ملاحظة مسلكهم الذي ساروا عليه نجدهم أنهم ارتطموا مع الدين واضطروا إلى الوقوع بعدة من المحذورات الدينية منها :

المحذور الأول : تأويل النصوص الدينية وجعلها وفق المتبنيات الفلسفية - سواء الفلسفات الصوفية أو غيرها - حيث الانطلاق من الرؤية الفلسفية إلى النصوص . وحينئذ يكون شرحها على وفق ما تمليه النزعة الفلسفية.

يقول السيد الطباطبائي رحمته الله : أما الفلاسفة فقد عرض لهم ما عرض للمتكلمين من المفسرين من الوقوع في ورطة التطبيق وتأويل الآيات المخالفة بظاهرها للمسلمات في فنون الفلسفة بالمعنى الأعم ، أعني : الرياضيات والطبيعات والإلهيات والحكمة العملية ، وخاصة المشائين ، وقد تأولوا الآيات الواردة في

حقائق ما وراء الطبيعة وآيات الخلقة وحدث السموات والأرض وآيات البرزخ وآيات المعاد حتى إنهم ارتكبوا التأويل في الآيات التي لا تلائم الفرضيات والأصول الموضوعية التي نجدها في العلم الطبيعي : من نظام الأفلاك الكلية والجزئية وترتيب العناصر والأحكام الفلكية والعنصرية إلى غير ذلك^(١).

وكلام السيد ﷺ وإن كان في الشرح الفلسفي للآيات إلا أنه غير خاص بها ، مما يعني يعم النصوص الدينية بصورة عامة سواء الآيات أو الروايات ، وحتى أن ملا صدرا عند شرحه لأصول الكافي أقر بذلك وقال أن شرحه عبارة عن تأويل للأحاديث إذ يقول : ألهمني الإفاضة مما شربنا من علم القرآن والحديث وسكرنا به من تأويل الحديث^(٢).

وفي الواقع ما جاء به صدرا لا يمكن وصفه بالتأويل للحديث ؛ لأن التأويل للقرآن الكريم والحديث الشريف يكون وفق شروط وحدود حدها الدين وبينها الشرع ، وليس بتسليط فلسفات مغايرة للنصوص الدينية ومباينة لها ، ومن ثم وصفها بالتأويل لها ، فلم تكن هكذا تأويلات إلا من تسويلات النفس وخداعها ، والعلماء في زمانه لم تنطل عليهم هكذا تأويلات ووصفوها بالبدعة والخذاع كما ذكر ملا صدرا ذلك ، وبكل تأكيد رد عليهم ونال منهم كما هي سيرته المعروفة في كتبه من النيل من أصحاب الحديث والفقه ، ونعتهم

(١) تفسير الميزان، ج١، ص٦.

(٢) شرح أصول الكافي، ج١ ص٢٦٩.

بعدم الفهم إلى سائر كلمات الطعن والتوهين المتفشية في كتبه ، ويزعم أن العلم ليس إلا فيه وأصحابه الذين على فلسفته وتصوفه . يقول الملا الشيرازي: لقد ابتلينا بجماعة يرون التعمق في الأمور الربانية بدعة والتدبر في الآيات الإلهية خدعة كأنهم الحنابلة من كتب الحديث المتشابهة عليهم الحق والخلق والقديم والحديث^(١).

هو يحسبها تعمقا في الأمور الربانية وتدبرا في الآيات الإلهية ، والعلماء يرون الأمر مختلفا تماما وليس في فلسفته شيء من التعمق بالأمور الربانية ولا تدبر في الآيات القرآنية.

وبعض العلماء وصفوا شرحه لأصول الكافي بأنه شرح بالكفر كما ينقل الخوانساري رحمته الله : أوجب ذلك سوء ظن جماعة من الفقهاء الأعلام به وبكتبه بل فتوى طائفة بكفره فمنهم من ذكر في وصف شرحه على الأصول : شروح الكافي كثيرة جليلة قدرا وأول من شرحه بالكفر صدرا هذا^(٢).

والخوانساري رحمته الله بعد أن ذكر كتب ملا صدرا قال : يوجد في غير واحد من مصنفاته المذكورة كلمات لا يلائم ظواهر الشريعة^(٣).

(١) شرح أصول الكافي، ج١، ص١٦٩ .

(٢) روضات الجنات، ج٤، ص١٢١.

(٣) روضات الجنات، ج٤، ص١٢١.

المحدور الثاني : توهموا أنهم يشرحون النصوص الدينية ويبيّنون مضامينها وأسرارها ، وأوهموا من لا خبرة له بذلك ، والحال أن شرحهم هو تفريغ للنصوص من محتواها وتحريفها عن مرادها ؛ لأنهم يقتضبون معاني النصوص ويفضونها في فلسفاتهم مما يجعلهم يشرحونها ضمن إطارها ، ولا يعرفون لها معنى إلا في تلك الحدود . وبعبارة أخرى لي عنق النصوص وصرفها في غير معناها ، مما يضلّلون عامة الناس ويصرفونهم عن معرفة معانيها بأوهام لا جدوى فيها ولا فائدة ترجى منها ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١).

يقول السيوطي متحدثا عن الفخر الرازي الذي فسر القرآن الكريم تفسيرا فلسفيا : قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها ، وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية ، وقال أبو حيان في البحر : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير^(٢).

المحدور الثالث : عند التأمل بالشرح الفلسفي للنص الديني ستجد أن الأمر على العكس تماما ، إذ ترى عملية شرح النص الديني للفلسفة لا العكس ، لأن المفسر من خلال هذا النمط تكون لديه رؤية وأفكار مسبقة يلتمس موافقتها وتطبيقها على النص الديني ، فهو يلمح قراءتها من خلال النص

(١) سورة النساء : ٤٦ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ج٤، ص٢٤٢.

الديني وكل جهده يصبو لذلك ، ومن هنا كان تفسير ابن عربي وملا صدرا تفسيرا لآيات متفرقة .

المحذور الرابع : إن شرح النصوص الدينية بالفلسفة مع ما له من لي عنق النصوص ، وصرفها عن معناها المراد كما تقدم في المحذور الثاني ، تأتي بمعاني جديدة غير مراد للشرع ونسبتها له مما يعني ابتداع في الدين ما ليس فيه .

المحذور الخامس : إن تفسير النصوص الدينية تفسيرا فلسفيا يندرج تحت عنوان التفسير بالرأي المنهي عنه في حديث أهل البيت عليهم السلام ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله : من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار^(١) .

وعن الإمام الباقر عليه السلام : يا جابر إن للقرآن بطنا وللبطن بطنا وله ظهر وللظهر ظهر ، يا جابر ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن ، إن الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل منصرف على وجوه^(٢) .

وعنه عليه السلام : ما علمتم فقولوا وما لم تعلموا فقولوا الله أعلم ، فإن الرجل ينزل بالآية فيخر بها أبعد ما بين السماء والأرض^(٣) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : من فسر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ

(١) التفسير الصافي، ج١، ص٣٨.

(٢) المحاسن، ج٢، ص٣٠٠.

(٣) تفسير العياشي، ج١، ص٢٤.

كان أئمة عليه^(١).

وعنه عليه السلام : من حكم برأيه بين اثنين فقد كفر ، ومن فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر^(٢).

ومن هنا تتضح القيمة المعرفية لمؤلفات ملا صدرا التي تُصنف إلى قسمين : الفلسفية التي رام من خلالها تفسير الدين حسب مباني الفلاسفة ، وكتبه الدينية مثل تفسير القرآن الكريم وشرح أصول الكافي تفسيراً للفلسفة.

والعلماء لهم إشكالات حقيقية على شرح أصول الكافي لملا صدرا ذكر قسماً منها العلامة النوري رحمه الله في خاتمة المستدرك^(٣).

ونفس القيمة المعرفية لكل من فسر الدين بالفلسفة أو الفلسفة بالدين التي أقل ما يُقال فيها إنها تفسيرات وشروحات غير معلومة المراد للشارع لأنها خلاف الظاهر ؛ فلا طائل ولا فائدة ترجى منها.

ومن هنا لك أن تعرف عظم ظلامة أئمة أهل البيت عليهم السلام وأي إقصاء واضطهاد قد حدث لتراثهم.

(١) تفسير العياشي، ج١، ص٢٤.

(٢) تفسير العياشي، ج١، ص١٨.

(٣) انظر خاتمة المستدرك ج٢، ص٢٤١.

التفسير الرمزي للنصوص الدينية

إن حمل النصوص الدينية على الرمزية مفاده عبارة عن إيجاءات وتصورات يُحاول إلصاقها بالنصوص وإلقاءها عليها ، مع أنها لا تمت لها بصلة - ومن هنا نجد التفاسير الرمزية لا تتفق في الآية الواحدة وفي نفس الحديث أيضا - فلا تكون المعاني الرمزية إلا لصاحبها ولا شأن للشرع بها . وإن كان يصفها المخترع لها بالتأويل أو المعنى الباطني لإضفاء جانب الشرعية والقبول عليها ، وما أسهل نعت الأوهام والخواطر أو تداعي المعاني بالتأويل والمعنى الباطني أو الإلهامات والإشراقات ونحوها^(١) . وقد يتمادى بجهله أكثر ويصف من لا يفهم أوهامه وخيالاته بالبلادة ، وعدم سعة الأفق وغير ذلك بعدما اعتبرها تفسيرا للنصوص وجزءا من الدين !

(١) يقول الشيخ محمد هادي معرفة رحمته الله : قد بالغ ابن عربي في دعواه الإشراقات الربانية المنهلة على قلبه ، ويدعي أن كل ما يجري على لسان أهل الحقيقة - ويعني بهم الصوفية بالذات - من المعاني الإشارية في القرآن هو في الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله ، وأن أهل الله - ويعني بهم الصوفية - أحق الناس بشرح كتابه ، لأنهم يتلقون علومهم عن الله مباشرة ، فهم يقولون في القرآن على بصيرة ، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين ، وفضلا عن ذلك إنه يرى أن تفاسير أهل الحقيقة لا يعتربها شك ، وأنها صدق وحق على غرار القرآن الكريم ، فإذا كان القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه من عند الله ، فكذلك أقوال أهل الحقيقة في التفسير ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها منزلة من عند الله . يقرر ابن عربي كل هذه المبادئ ويصرح بها في فتوحاته. التمهيد في علوم القرآن، ج١٠، ص٤٧٤.

وأقل ما يُقال في التفسير الرمزي أنه من التفسير بالرأي ، وأخطر ما فيه أنه يأتي بمعاني جديدة من شأنها أن تحقق النصوص الدينية وتقضي عليها بمعاني أخرى غير مرادة . ومن هنا لا يُستبعد أن يكون هذا النحو من التفسير من صنع أيادي تضرر عداؤها للإسلام ، أرادة محق عقائده من خلال تحريف القرآن بدعوى التفسير والتأويل ، وإن لم يكن من مكائد المتربصين بالإسلام فهو من نتاجات الجهل الذي تؤدي نفس الغرض والغاية .

والتفسير الرمزي هو من خصائص التفسير الصوفي ، الذي كان دأبهم وسلوكهم في الجري عليه ، وقد كان أول من صنف في التفسير الرمزي الباطني هو :

١ - سهل بن عبد الله التستري (ت: ٢٨٣هـ) .

٢ - محمد بن الحسين السلمي (ت: ٤١٢هـ) .

٣ - عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: ٤٦٥هـ) . تفسيره هذا امتداد للتفسير الصوفي الباطني ، معتمدا في أكثر الأحيان على تأويلات قد ينبو عنها ظاهر لفظ الآية الكريمة. لكنه مع ذلك حاول أن يوفق بين علوم الحقيقة - حسب مصطلحهم - وعلوم الشريعة ، قاصدا أن لا تعارض بينهما^(١).

٤ - عبد الله بن محمد الأنصاري (ت: ٤٨١هـ) .

(١) التمهيد في علوم القرآن، ج ١٠، ص ٤٥٢.

٥ - أحمد بن محمد المبيدي (ت: ٤٨٠هـ) . وهذا التفسير يتضمن اختصار التفسير المتقدم للأنصاري مع زيادة فيه ، وإن كان الأنصاري معاصرا للمبيدي وتوفي قبله بسنة.

٦ - أبو بكر محمد بن علي المعروف بابن عربي (ت: ٦٣٨هـ) . قد أتى المؤلف فيه بالتفسير الرمزي الإشاري على طريقة الصوفية العرفانية وغالبه يقوم على أساس وحدة الوجود ، ذلك المذهب الذي كان له أثره السيئ في تفسير كلام الله ، والذي دعا بالقائلين أنه من صنع ابن عربي ؛ حيث مذهبه في وحدة الوجود مشهور .

ولم يكن الصوفية والباطنية أول من اتخذ الأسلوب الرمزي وإنما سبقهم اليهود إليه ، يقول محمد حسين الذهبي (ت: ١٣٩٨هـ) : إن الباطية والبهائية وأسلافهم من الباطنية ، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنصوص الشريعة على هذه الصورة التي تأتي على بيان الدين من قواعده ، وإنما هو صنيع قلدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم ، فهذا هو (فيلون) الفيلسوف اليهودي المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد ، نجده ألف كتابا في تأويل التوراة ، ذاهبا إلى أن كثيرا مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة ، ويقول الكاتبون في تاريخ الفلسفة : إن هذا التأويل الرمزي كان موجودا ومعروفا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن (فيلون) ويذكرون أمثلة من تأويلهم : أنهم فسروا آدم بالعقل ، والجنة برياسة النفس ، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية ، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من

التمرين . إلى أمثال هذا من التأويل الذي لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون^(١).

كما أن الرمزية والتأويل كانت عند أفلاطون وفلاسفة العرب ، يقول جميل صليبا : تأويل العقائد ، أو المذاهب القديمة تأويلا رمزيا ، على النحو الذي فعله أفلاطون وبعض فلاسفة العرب في إلباس الحقائق الفلسفية ثوبا رمزيا^(٢).

ويقول الشيخ محمد هادي معرفة رحمته الله : التفسير الصوفي النظري تفسير أولئك المتصوفة الذين بنو تصوفهم على مباحث نظرية فلسفية ، ورثوها من يونان القديمة ، ومن الصعب جدا أن يجد هؤلاء في القرآن ما يتفق وتعاليمهم ، وهي بعيدة عن روح القرآن وتعاليم الإسلام ، اللهم إلا إذا حملوا نظرياتهم على القرآن وأقحموا عليه إقحاما^(٣).

ويندرج التفسير الرمزي ضمن التفسير بالرأي وهذا أمر بين الواضح ، ولكن مع هذا لا يمنع من ذكر بعض كلمات الأعلام إتماما للحجة وإبلاغا للمقصود ، يقول الشيخ محمد هادي معرفة : لا نرى تفاوتاً في تفاسير الصوفية ، سوى الشدة والضعف في تأويلاتهم التي يتكلفونها حسب أذواقهم وسلاقتهم ، بلا استناد ولا أساس ، وكلها معدود من التفسير بالرأي المقيت . إذ لم نر من استند منهم على مقدمة علمية ولا برهان واضح ، سوى سوانح وخواطر

(١) التفسير والمفسرون، ص ٢٧٨.

(٢) المعجم الفلسفي، ج ١، ص ٦٢١.

(٣) التمهيد في علوم القرآن، ج ١٠، ص ٤٤٣.

عارضة ، يحسبونها اشراقات جاءتهم من مكان علي ، وليس سوى ادعاءات فارغة غير مستندة إلى ركن وثيق^(١).

ويقول الشيخ مكارم الشيرازي : لا شك أننا لسنا مخولين أن نضفي الرمزية على كل مفهوم من المفاهيم الدينية الواردة في القرآن أو مصادر الحديث ، ذلك أن هذا الأمر من قبيل التفسير بالرأي الذي نهى الإسلام عنه ، والذي يرفضه أيضا العقل والمنطق ، مع ذلك ليس من الصواب الجمود على المفهوم الابتدائي للألفاظ مع وجود بعض القرائن العقلية أو النقلية^(٢) الواردة بهذا الخصوص والذي يوجب الابتعاد عن المفهوم الأصلي للكلام^(٣).

ولا يظن أن التفسير الرمزي نظير ما ورد عن الأئمة عليهم السلام من التأويل ، لأن قولهم بحد ذاته حجة ولا يُطلب من ورائه الدليل ، بخلاف غيرهم لا يحق لهم أن يقولوا في النصوص الدينية بسوانح الأوهام وجوانح الأفكار .

والصوفية لم يكتفوا بالتفسير الرمزي للنصوص الدينية ، وإنما تجاوزوا إلى بعد من ذلك حيث فسروا العبادات بالرموز والتفسيرات الباطنية ، وقد كان كتاب الإحياء للغزالي هو الرائد في هذا المجال لمن أتى بعده ، فقد تكلم عن رمزية

^(١) التمهيد في علوم القرآن، ج ١٠، ص ٤٤٤.

^(٢) مع وجود القرائن يخرج الكلام عن الرمزية ، ويندرج ضمن الظواهر ولا وجود للرمزية حينها .

^(٣) الحكومة العالمية للإمام المهدي، ص ١٤٩.

العبادات في الجزء الثاني من الإحياء ، تحت عنوان (أسرار الطهارة) و (أسرار الصلاة) على وجه الخصوص عنوان : (بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة) وفي الجزء الثاني والثالث عن (أسرار الزكاة) وفي الجزء الثالث عن (أسرار الصوم وشروطه الباطنة) وأيضا في الجزء الثالث عن (أسرار الحج)

إن الصوفية لم يقتصرُوا على تفسير النصوص الدينية من خلال الرمزية فحسب ، ولم يقتصرُوا فيها على أشعارهم ، وإنما تبادوا وأخذوا يفسرون حتى العبادات من جهة باطنية لا تورث علما ولا عملا ، وليس وفق النهج الذي سار عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وحيدر الأملي سار على نهج الغزالي وفسر ماء الوضوء وتراب التيمم بالعلم، والجَنابة بحب الدنيا ، والغسل الحقيقي الطهارة منها ، ونحو ذلك مما ذكره في الجزء الرابع من تفسيره الموسوم ب (المحيط الأعظم) .

فإذا رأيتُم في السنين الأخيرة من يفسر العبادات بهذه الأمور التي لا تضيف شيئا لقارئها فاعلموا أنها على نحو التوجه الصوفي.

توقيفية الأسماء

إن من البحوث المهمة في التفسير وعلم الكلام والفقه وأيضا في الفلسفة والتصوف بحث توقيفية الأسماء ، ويعنون به أنه لا يصح ولا يجوز تسمية الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه في القرآن الكريم ، أو ورد تسميته في السنة النبوية ، وذهب الفلاسفة والصوفية إلى عدم توقيفية الأسماء وقالوا بإمكان تسميته تعالى بكل اسم ينزهه عن النقص وإن لم يرد في النصوص الدينية.

ومما يدل على توقيفية الأسماء ما روي عن الإمام الكاظم ﷺ : (إن الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه صفته فصفوه بما وصف به نفسه وكفوا عما سوى ذلك)^(١).

وعن الإمام الرضا ﷺ : (ليس لك أن تسميه بما لم يسم به نفسه)^(٢).

وعنه ﷺ : (إن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه وأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله والخطرات أن تحده والأبصار عن الإحاطة به جل عما وصفه الواصفون وتعالى عما ينعتة الناعتون)^(٣).

(١) أصول الكافي، ج١، ص١٥٠.

(٢) توحيد الصدوق، ص٤٥١.

(٣) أصول الكافي، ج١، ص١٨٦.

وعلماء الشيعة تبعاً للأئمة عليهم السلام قالوا بتوقيفية الأسماء ، يقول الشيخ الصدوق رحمته الله : أسماء الله تبارك وتعالى لا تؤخذ إلا عنه أو عن رسول الله صلى الله عليه وآله أو عن الأئمة الهداة عليهم السلام ^(١).

بل هو ما عليه مذهب الإمامية كما يقول الشيخ المفيد رحمته الله : إنه لا يجوز تسمية الباري تعالى إلا بما سمي به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وآله أو سماه به حججه عليهم السلام من خلفاء نبيه صلى الله عليه وآله ، وكذلك أقول في الصفات وبهذا تطابقت الأخبار عن آل محمد عليهم السلام وهو مذهب جماعة الإمامية ^(٢).

ولكن الصوفية والفلاسفة ذهبوا إلى ما لا بد لهم منه وهو القول بعدم توقيفية الأسماء ، وإلا كان عليهم طرح الكثير من البحوث والأسماء التي جاؤوا بها؛ ولذا لم يتخرجوا من تسمية الله تعالى بـ : (واجب الوجود) (علة العلل) (أصل الأصول) (غيب الغيوب) (الضرورة الأزلية) (الطبيعة الواجبية) وغير ذلك.

وهذه الأسماء لا تخلو من عدم التنزيه للباري سبحانه ، وأقل ما فيها أنه لا يُقطع بعدم خلوها مما يتنافى والتنزيه ، وحينئذ يكون وقوعها خلاف الاحتياط مما لا ارتياب فيه ولا كلام . كما أنها ترسم صورة عن الله تبارك وتعالى مخالفة لنمط الكتاب والسنة ، الذي أمرنا بالتمسك بهما وعدم تجاوزهما.

^(١) توحيد الصدوق، ص ٣٠٠.

^(٢) أوائل المقالات، ص ٥٤.

ومن الصوفية من تصرف بمعنى توقيفية الأسماء خروجاً من المحذور المترتب عليه، كما ينقل الشيخ حسن زاده قول ابن تركة موافقاً له : وقفية الأسماء في منظرهم الأعلى بمعنى أن كل كلمة وجودية في مرتبتها الخاصة بحسب النظام الكياني الناشئ من النظام العلمي العنائي الرباني ، فلكل منها مقام معلوم لا تتجافى عنه ولا تبدل ولا تحول . وقد أشار إلى توقيفية الأسماء بهذه اللطيفة الشريفة صائن الدين علي بن محمد التركة في عدة مواضع من تمهيد القواعد^(١).

ويرجع بحث توقيفية الأسماء - مع ما ورد فيه من الأحاديث والنهي عن مخالفة التوقيف - إلى التفكير بذات الله ﷻ المنهي عن الخوض فيها شرعاً - كما في جملة من النصوص الدينية - وعقلاً أيضاً .

الفرق بين الاسم والصفة

إن الفرق بين الاسم والصفة أمر اعتباري غير واقعي ؛ يقول السيد الطباطبائي رحمه الله : لا فرق بين الصفة والاسم غير أن الصفة تدل على معنى من المعاني يتلبس به الذات أعم من العينية والغيرية ، والاسم هو الدال على الذات مأخوذة بوصف ؛ فالحياة والعلم صفتان ، والحي والعالم اسمان وإذا كان اللفظ لا شأن له إلا الدلالة على المعنى وانكشافه به فحقيقة الصفة والاسم هو الذي يكشف عنه لفظ الصفة والاسم فحقيقة الحياة المدلول عليها بلفظ الحياة هي الصفة

(١) سرح العيون، ص ١٩٦.

الإلهية وهي عين الذات ، وحقيقة الذات بحياتها التي هي عينها هو الاسم الإلهي ، وبهذا النظر يعود الحي والحياة اسمين للاسم والصفة وإن كانا بالنظر المتقدم نفس الاسم ونفس الصفة^(١).

والسيد الطباطبائي رحمه الله ممن يقول بعدم توقيفية الأسماء كغيره من الفلاسفة ؛ ولذا يجوز إطلاق الاسم على الله ﷻ وإن لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومع ذلك يقول أن مقتضى الاحتياط الاقتصار على ما ورد ذكره في النصوص الدينية : وأما البحث الفقهي فمرجعه فن الفقه والاحتياط في الدين يقتضي الاقتصار في التسمية بما ورد من طريق السمع^(٢). بل كل من ذهب إلى عدم توقيفية الأسماء نوه على مقتضى الاحتياط ، ومن هنا يُعلم حال ممن يتقيد بحدود الشرع ممن لا يتقيد به.

ويقول الفخر الرازي : إن المتكلمين خصصوا لفظ الاسم ببعض أقسام هذا القسم وذلك لأن كل ماهية إما أن تعتبر من حيث هي أو من حيث إنها موصوفة بصفة معينة ، فالأول هو الاسم والثاني هو الصفة ، فالسما والأرض والرجل والجدار أسماء ، والخالق والرازق والطويل والقصير صفات ، وهذا هو الفرق بين الاسم والصفة على قول المتكلمين . إذا عرفت هذا فنقول : كل واحد من القسمين مختص بنوع شرف لا يحصل في القسم

(١) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٥٢.

(٢) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٥٩.

الآخر ، أما الاسم فهو أشرف من الصفة لوجوه . الأول : أن الاسم أقدم من الصفة لأن المراد من الصفات الأسماء المشتقة ، ولا شك أن الأسماء الموضوعية أصل للأسماء المشتقة ، إذ لو لم تنته المشتقات إلى اسم موضوع ابتداء غير مشتق لزم إما التسلسل وإما الدور وهما محالان . والثاني : أن الأسماء المشتقة مركبة من الأسماء ، والموضوعية مفردة ولا شك أن المفرد أصل المركب . والثالث : أن الأسماء الموضوعية أسماء الذات وأما المشتقة فإنها أسماء الصفات مع إضافة مخصوصة ، والذات أشرف من الصفة ، فوجب أن تكون الأسماء أشرف من الصفات ، فهذا ما يتعلق بتفضيل الأسماء^(١).

ولكن تلميذ ملا صدرا ومهذب كتاب الإحياء للغزالي الملقب بالفيض الكاشاني^(٢) رحمته الله فرق بين الاسم والصفة ، فقال بجواز إطلاق الألفاظ التي لم ترد في الشرع توصيفا لا اسما : وأما الألفاظ الكمالية فإن لم يرد فيها من جهة الشرع إذن بالتسمية كواجب الوجود، فذلك إنما يجوز إطلاقه عليه سبحانه توصيفا لا تسمية^(٣).

(١) لوامع البينات، ص ٢٨.

(٢) ملا صدرا لقب زوجته بنته بالفيض ، ولقب زوج بنته الأخرى بالفيض وهو عبد الرزاق اللاهيجي. انظر روضات الجنات، ج ٤، ص ١٩٧. ألقاب تتوافق مع نظرية الفيض الصوفية.

(٣) الوافي، ج ١، ص ٥٠٠.

وهذا التفريق في الجواز لم يقل به علماء الشيعة ، ويبدو تبعا لأبي حامد الغزالي الذي فرق بينهما قائلا : كل ما يرجع إلى الاسم فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف فذلك لا يقف على الإذن بل الصادق منه مباح دون الكاذب ولا يفهم هذا إلا بعد فهم الفرق بين الاسم والوصف^(١).

نهاية مطاف التوفيق بين الفلسفة والدين

إن يعقوب بن إسحاق الكندي (ت: ٢٥٢هـ) أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين كما يقول صاحب مفتاح الكرامة رحمته الله : هو أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين فأضاء الطريق في ذلك لمن بعده ، وذكر السيد في الفرج : أن له واحد وثلاثين كتابا في دلالة علوم الفلسفة على مذهب الإسلام وعلى علوم النبوة . فأدى به المطاف أن يكتب في تناقض القرآن^(٢).

وروى ابن فندمة (ت: ٥٦٥هـ) عند ترجمة الكندي : قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات واختلفوا في ملته فقال قوم : كان يهوديا ثم أسلم وقال بعضهم كان نصرانيا^(٣).

(١) المقصد الأسنى، ص ١٥٤.

(٢) مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة، ج ١٢، ص ٢٥٠.

(٣) تنمة صوان الحكمة، ص ٥.

إن من يروم التوفيق بين الفلسفة والدين تجده على غير ورع وتقوى ، وإلا ما أقحم نفسه بأمر على اقل تقدير لا يعلم مراد الشارع فيه ، ومجهول التحقق من صحته بالنسبة إليه ؛ كما الكندي متهما في دينه ، ساقط المروءة كما يروي الذهبي في صفاته : كان متهما في دينه ، بخيلا ، ساقط المروءة^(١).

ومما رواه الصفدي من سيرته : كان مفرط البخل كان يأكل التمر ثم يدفع النوى إلى داية له^(٢) ويقول لها تجزي بما بقي عليه من حلاوة التمر . وجاءت إليه يوما جارية سوداء من عند أمه ومعها كوز فقال له أملك تطلب منك ماء باردا فقال ارجعي فأمللي الكوز من عندها وجيئي به فلما جاءت به قال فرغبة عندنا وأعطيها ملاء من المزملة^(٣) فلما مضت قال أخذنا منها جوهرها بلا كيفية وأعطيناها جوهرها بكيفية لتتفع به^(٤).

ولا يبعد أن تكون محاولة الكندي في مزج الدين بالفلسفة والتوفيق بينهما كانت بأمر المأمون العباسي ، من أجل ضرب السلطة الدينية المتمثلة بالأئمة الأطهار عليهم السلام ، كما كان للمأمون السابقة والبادرة الأولى في إدخال الفلسفة اليونانية وترجمتها ونشرها في بلاد المسلمين كما يروى ، وإن كان أيضا روي أن بدايات دخول الفلسفة لبلاد المسلمين كانت في العصر الأموي ، وحتى فيما

(١) سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٣٣٧.

(٢) الحاضنة الداية : وهى الموكلة بالصبي تحفظه وتربية. تاج العروس، ج١٨، ص١٥٤.

(٣) المزملة : التي يبرد فيها الماء. القاموس المحيط، ج٣، ص٣٩٠.

(٤) الوافي بالوفيات، ج٢٨، ص٧٤.

إذا لم يكن دخول الفلسفة بواسطة المأمون العباسي فإنه كانت له اليد الطولى في نشر الفلسفة وبثها في البلاد الإسلامية ، وازدهار بيت الحكمة وشرعه في عصره شاهد وبرهان جلي على ذلك^(١).

وبعد أن أدخل الكندي الفلسفة للنص الديني أدى به المطاف أن يكتب كتاباً في تناقض القرآن ! ولا عجب من شخص يروم مزج الفلسفة بالدين والتوفيق بينهما أن يكتب في ذلك ، كما روى ابن شهر آشوب : أن إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرد به في منزله وأن بعض تلامذته دخل يوماً على الإمام الحسن العسكري فقال له أبو محمد عليه السلام : أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ

(١) تنظيم بيت الحكمة في بغداد والاهتمام بطلب الكتب العلمية من بلاد الروم ، وبرعاية الخلفاء ولاسيما المأمون أخذ جماعة من نصارى الشام يترجمونها إلى العربية ، وقد اشتهر منهم جماعة كانوا من أركان النهضة العلمية في ذلك الحين ، وتبعهم سواهم حتى بلغت الترجمة أوجها في القرن الرابع الهجري . ومن أراد الاطلاع على أسماء النقلة والكتب التي نقلوها فليراجع كتاب الفهرست لابن النديم فإنه جمع فأوعى . وقد تناول النقل الطب والرياضيات والفلك وأصناف العلوم الفلسفية. ولم تقف النهضة عند هذا الحد بل أخذ العلماء من الناطقين بالعربية يدرسون هذه المنقولات ويشرحونها ويصنفون الكتب في موضوعاتها ، وتوسعوا في بعض الفروع إلى درجة بعيدة فجاءوا بما يذكر لهم في تاريخ الفكر العام . ومع أن أكثر الناقلين عن اليونانية والسريانية كانوا من السريان وأكثر المصنفين يمتون بأنسابهم إلى غير العرب ، فإن اللسان العربي كان الأداة التي استعملت في النقل والتصنيف ، فأصبح لغة العلم والثقافة في ظلمات القرون الوسطى ، وتسرب إليه كثير من الألفاظ الجديدة والمعاني الجديدة مما يعكسه لنا الشعر والنثر في العصر العباسي. أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٤٤.

فيه من تشاغله القرآن ، فقال التلميذ : نحن من تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره ، فقال له أبو محمد عليه السلام : أتؤدي إليه ما ألقيه إليك ؟ قال : نعم ، قال : فصر إليه وتلطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله فإذا وقعت الأنسة في ذلك فقل قد حضرتني مسألة أسألك عنها فإنه يستدعي ذلك منك فقل له إن أذاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها ؟ فإنه سيقول لك أنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع ، فإذا أوجب ذلك فقل له : فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فتكون واضعا لغير معانيه . فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن القى عليه هذه المسألة فقال له : أعد علي ، فأعاد عليه فتفكر في نفسه ورأى ذلك محتملا في اللغة وسائغا في النظر فقال : أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك ؟ فقال : إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك ، فقال كلا ما مثلك من اهتدى إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة فعرفني من أين لك هذا ؟ فقال : أمرني به أبو محمد فقال : الآن جئت به وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت ، ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه^(١).

وقوله عليه السلام : (فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فتكون واضعا لغير معانيه) نقض على جميع من فسر وشرح النصوص الدينية بالفلسفة ،

(١) مناقب آل أبي طالب، ج ٣ ص ٥٢٦.

لأنها شروحات لا دليل عليها ، وغير معلومة المراد من الشارع ، وعلى أقل تقدير يحتمل أنه أراد غير هذه التأويلات من الشروحات.

وقد كانت توفيقات الكندي محل استياء واعتراض العلماء والأوساط العلمية بصورة عامة حتى أن الشاعر أبا العباس الناشئ رد عليه بقصيدة من جملة ما جاء فيها :

أبا يوسف إنني نظرت فلم أجد	على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عند قوم إذا امرؤ	بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
أتقنرُ الحادا بدين محمد	لقد جئت شيئا يا أخا كندةٍ إدا
وتخلط يونانا بقحطان ضلة	لعمري لقد باعدت بينهما جدا ^(١)

وبكل تأكيد لم يكن محذور التوفيق مختصا بفلسفة المشاء ، أو مدرسة معينة على وجه الخصوص ، وإنما يعم الفلسفة الصوفية للإشراق والحكمة المتعالية.

(١) مروج الذهب، ج١ ص ٣٢٣.

إدراك أصول الدين من خلال الفلسفة تعرض للهلاك الدائم

يقول الشيخ مرتضى الأنصاري رحمته الله : عدم جواز الخوض لاستكشاف الأحكام الدينية ، في المطالب العقلية ، والاستعانة بها في تحصيل مناط الحكم والانتقال منه إليه على طريق اللبس ، لأن انس الذهن بها يوجب عدم حصول الوثوق بما يصل إليه من الأحكام التوقيفية ، فقد يصير منشأ لطرح الأمارات النقلية الظنية، لعدم حصول الظن له منها بالحكم . وأوجب من ذلك : ترك الخوض في المطالب العقلية النظرية لإدراك ما يتعلق بأصول الدين ، فإنه تعريض للهلاك الدائم والعذاب الخالد^(١).

مناقشة الملحدين بالعقل وليس بالفلسفة

إن من أكبر الخدع التي انطلت وما زالت تنطلي على الكثيرين أن مناقشة الملحدين ومحاورتهم تتوقف على الأمور العقلية ، ولذا يتطلب دراسة الفلسفة والاهتمام بها ، وكل من لم يدرس الفلسفة لم تكن له لغة عقلية فلا يمكنه محاورة الملحدين والمشككين .

ونحن نقر أن محاورة هؤلاء تتوقف على العقل ولكن أنى لكم حصر الأمور العقلية والتعقل في الفلسفة ؟!

(١) فرائد الأصول، ج١، ص٦٤.

وهذه دعوى مفادها العقل متمثل بالفلسفة ، ولا يمكن التسليم بها ولا موجب يثبتها ، بل إن الواقع يشهد بخلاف ذلك حيث التعقل والأمور العقلية قائمة عليها حياة الأفراد والجماعات - مع أن الغالبية الساحقة فيهم لم يعرفوا عن الفلسفة أدنى شيء - فنجد مثلا من تطبيقات العقل درأ الأفسد بالفساد ، والتفريط بالمصلحة الضئيلة والخاصة من أجل مصلحة أكبر ، وكما يعبر الشيخ المظفر : من منا لم يحصل له العلم بوجود النار عند رؤية الدخان ؟ ومن ذا الذي لا يتوقع صوت الرعد عند مشاهدة البرق في السحاب ؟ ومن ذا الذي لا يستنبط أن النوم يحجم القوى ، وأن الحجر يتل بوضعه في الماء ، وأن السكينة تقطع الأجسام الطرية ؟ وقد نحكم على شخص بأنه كريم لأنه يشبهه في بعض صفاته كريما نعرفه ، أو نحكم على قلم بأنه حسن لأنه يشبه قلما جريئاه... وهكذا إلى آلاف من أمثال هذه الاستنتاجات تمر علينا كل يوم . وفي الحقيقة أن هذه الاستنتاجات الواضحة التي لا يخلو منها ذو شعور ترجع كلها إلى أنواع الحجة المعروفة التي نحن بصدد بيانها ، ولكن على الأكثر لا يشعر المستنبط أنه سلك أحد تلك الأنواع وإن كان من علماء المنطق . وقد تعجب لو قيل لك : إن تسعة وتسعين في المائة من الناس هم منطقيون بالفطرة من حيث لا يعلمون^(١).

(١) منطق المظفر، ص ٢٣٢.

إن أصحاب الفلسفة أنفسهم يقولون الناس منطقيون بالفطرة^(١) بمعنى أن التفكير والتعقل في أصل خلقتهم موجود ، وحتى الأقيسة الفلسفية يستعملها البشر في حياتهم اليومية من غير الالتفات لها .

وخير شاهد ودليل - وإن كان هذا الأمر شديد الوضوح ولا يتطلب إثباته - على أن المدركات العقلية لا تتوقف على الفلسفة ، وإثبات وجود الخالق العظيم يتوقف على مدركات العقل وليس على الفلسفة ، هو خطابات القرآن الكريم للملحدين وجاحدين وجود الحق تعالى مع خلوها من الاصطلاح الفلسفي ، والآيات في هذا المجال كثيرة كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢)

وقوله تعالى : ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٣)

(١) لا تتوهم أن هذه العبارة في خصوص المنطق ولا تعم الفلسفة ، لأنه لم يكن وراء المنطق شيء مغاير لمواد الفلسفة وأقيستها ، ويمكن التعبير والقول أن المنطق هو جزء من أجزاء الفلسفة.

(٢) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٣) سورة الجاثية : ٥ .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)

ومن الأحاديث في هذا المجال على سبيل المثال ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام :
فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته . ويذكروهم
منسي نعمته . ويحتجوا عليهم بالتبليغ . ويشيروا لهم دفائن العقول^(٢).

فهذه من الآيات والروايات التي تدل على احتجاج الله على خلقه - بما فيهم
الملحدين - وإرشادهم إلى معرفته بالعقل ، وكما ترى لا دخل للمصطلحات
الفلسفية في البين ، ولم يتوقف عليها شيء من الخطابات والحوارات في إثبات
الخالق العظيم ؛ فمن يدعي أن إثبات وجوده تعالى والاستدلال عليه بالفلسفة
دون غيرها ، عليه إنكار الجدوى والفائدة من الآيات القرآنية ومحاججات
الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم !

وحتى مناظرات الأئمة عليهم السلام مع الملحدين كانت بالمدرجات العقلية وليست
بالمصطلحات الفلسفية ، وإليك بعض النماذج لكي تتضح الصورة بشكل
أجلى : روي أن الديصاني قال للإمام الصادق عليه السلام : يا جعفر بن محمد دلني

(١) سورة الرعد : ٣ .

(٢) نهج البلاغة، ص ٣٤ .

على معبودي ولا تسألني عن اسمي فقال له أبو عبد الله ﷺ اجلس وإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها فقال له أبو عبد الله ﷺ ناولني يا غلام البيضة فناوله إياها فقال له أبو عبد الله ﷺ يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة فلا الذهب المائعة تختلط بالفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهب المائعة فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها لا يدري للذكر خلقت أم للأنثى تنفلق عن مثل ألوان الطواويس أترى لها مدبرا قال فأطرق مليا ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأنت إمام وحجة من الله على خلقه وأنا تائب مما كنت فيه^(١).

وعنه ﷺ : والعجب من مخلوق يزعم أن الله يخفى على عباده وهو يرى أثر الصنع في نفسه بتركيب يهر عقله ، وتأليف يبطل حجته^(٢).

وسأل ابن أبي العوجاء الإمام الصادق ﷺ فقال : ما الدليل على حدوث الأجسام ؟ فقال : إني ما وجدت شيئا صغيرا ولا كبيرا إلا وإذا ضم إليه مثله صار أكبر ، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى ، ولو كان قديما ما زال ولا حال ، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل فيكون بوجوده بعد

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ١٩٨.

(٢) الإهليجة، ص ٦٩.

عدمه دخول في الحدث وفي كونه في الأولى دخوله في العدم ، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم في شيء واحد^(١).

بل إن البراهين الفلسفية التي تدلل على وجود الله تبارك وتعالى والتي عادة ما تذكر في الكتب الفلسفية مثل برهان العلة والحدوث والنظم كلها مذكورة في القرآن الكريم ، والسنة الشريفة وبصورة أشد أقناعا وأبلغ أثرا ، كما تقدم في الآيات والأحاديث السابقة ، وإذا أردنا أن نستعرض طائفة أخرى فخذ على سبيل المثال ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في إثبات قدم الله تبارك وتعالى والمقصود من قدمه أنه غير مسبوق بعدم وحدث حيث روي عنه عليه السلام : الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر ، الدال على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده...مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته ، وبما وسمها من العجز على قدرته ، وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه^(٢).

وهذا الحديث مضافا إلى كونه يدل على قدم الصانع ﷻ يتضمن الاستدلال على خالقيته للأشياء أيضا إذ الاستدلال على الأزلية بعد الاستدلال على حدوث وإحداث الخلق.

ولا أدري هل كانت النصوص الدينية مقتصرة على بيان الأحكام الفقهية وإهمال أعظم الجوانب وأهمها وهو الجانب العقدي والكلامي ، وأوكلت

(١) أصول الكافي، ج١، ص١٩١.

(٢) نهج البلاغة، ص٤١٨.

أمره إلى الفلاسفة؟! وإذا جنحنا لذلك يعني أن القرآن الكريم وبعثت الأنبياء والرسل كانت من أجل تبليغ الفقه ومسائل الحلال والحرام لمن هم غير مؤمنين بوجود خالق أصلا! وهذا بكل تأكيد واضح البطلان ولا يلتزم به حتى الفلاسفة، إذن يتعين الثاني وهو أن القرآن الكريم والأنبياء والأوصياء كانوا يخاطبون الملحدّين والبشر بصورة عامة بخطابات عقلائية توجب لهم الإيمان مع تجردها عن ألفاظ الفلسفة.

وملخص ما تقدم وما يترتب عليه أن محاورّة الملحدّين والمشكّكين في وجود الخالق لا تقتصر على المطالب الفلسفي، ومما يدل عليه أن دعوى الأنبياء والأوصياء ﷺ إلى الله تعالى والاستدلال على وجوده لم تكن بالمصطلحات الفلسفية، فلا وجه لجعل محاور التوحيد تدور على أفقها وفي خصوص المشتغلين بها.

ثم إن حصر محاورّة الملحدّين بالفلسفة يترتب عليه محذور يصعب على هؤلاء الالتزام به في خصوص من كان ملحدا ولا يعرف المصطلحات الفلسفية، وهو يمثل الغالبية العظمى لأغلب البشر، فهل نطلب منهم تعلمها ومن ثم محاورتهم!

وأخيرا لا يفوتني أن برهان العلة والنظم الذي تفنن الفلاسفة في ألفاظه ومعانيه يعرفه حتى أعراب الصحراء، مما يعني أنهما من المدركات العقلية في أصل خلقة الإنسان وقد صاغه أحد أعاربيها ببضعة كلمات: البعرة تدل على البعير والروث على الحمير وآثار الأقدام على المسير. فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير.

فعند ملاحظة ما قبل (فسماء ذات أبراج) نجد برهان العلة ، وهي وما بعدها برهان النظم الذي يدل على المنظم.

وبعد هذا لا بد من معرفة معنى المراد من العقل ، والذي هو المدركات والقوى التي أودعها الله تعالى في خلقة الإنسان بموجبها يتعقل التوحيد وحقائق الوجود.

وقد حصل اللبس والزلل الكبير في تحديد المراد من العقل ، ومن هنا تعرف دعوى إثبات وجود الخالق العظيم من خلال الفلسفة ؛ لأن أصحاب هذه الدعوى توهموا أن المراد من العقل هو الفلسفة وعلى هذا الفهم الخاطئ للعقل شيدوا زعمهم الباطل.

وليس هؤلاء فحسب من أضاعوا معرفة المراد من العقل ، وإنما الكثير من الباحثين والمؤلفين والدارسين - ناهيك عن غيرهم - ولذا تجد بعضهم يقول إن هذه الفرقة أو الجماعة لا تقول بالعقل ، مع أنهم يقولون به ، ولكن لأنهم لم يتبنوا الفلسفة توهم ذلك الباحث أنهم لم يقولوا بالعقل ، وتجد مثلاً مؤلفاً يقول أن هذه الجماعة لا تقول بالعقل في هذه المسألة أو في هذا البحث ، في حين هم يقولون به ولكن لإقصائهم المباحث الفلسفية فيه توهم أنهم لا يقولون بالعقل .

خرافة العقل هو الفلسفة

إن خرافة العقل هو الفلسفة انطلت وما زالت تنطلي على الكثيرين فيتوهمون أن لا وجود للعقل إلا في ظل حدود الفلسفة.

والخطب العجيب بحوث ومؤلفات قائمة على هذه الخرافة ، والغريب المضحك أيضا أنك تجدهم يستدلون على الفلسفة من خلال آيات قرآنية وأحاديث تثبت دور العقل وتشيد به فيجترونها للفلسفة ، ويثبتون صحة منهجها من خلال تلك الآيات والروايات ، والسبب يعود لخرافة العقل هو الفلسفة المتأصلة في عقولهم . فلا بد من التنبه لهذا التوهم والزلل المنهجي الكبير الذي وقع به الكثيرون.

وعلى هذا يتطلب من الباحثين والمؤلفين الكتابة في هذا الحقل الذي غالبا ما يقع فيه الاشتباه والخطأ.

الشيخ جعفر كاشف الغطاء والشبهات الفلسفية

عندما قدم الشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمه الله أصفهان طرحوا عليه شبهات فلسفية وطلبوا منه الإجابة عنها فأجاب بما ينبغي لكن من دون استعمال المصطلحات المعهودة في الفلسفة فلم يقبلوا منه وقالوا : إنك لم تدرس الفلسفة فكيف تجيب عن هذه الأسئلة ؟

فقال : أجب عنها من خلال مطالعاتي لروايات أهل البيت عليهم السلام ونحن غير مأمورين ببيان الاصطلاحات العقلية بل نحن مكلفون بما تتحقق معه النتيجة^(١).

كتاب فلسفتنا ونقاش الملحدين

إن مناقشة الملحدين ومجادلتهم بالعقل والدليل وهذا لا يعني الفلسفة ، وكثيرا ما يُتهم عندما يُقال النقاش بالأمور العقلية يعني الفلسفة ، مع أنه لا ملازمة في البين كما تمت الإشارة لذلك في العناوين السابقة ، فالسيد محمد باقر الصدر رحمته الله في كتابه (فلسفتنا) انتهج في نقاش الملحدين اللغة العقلية البديهية وقلما كان يقحم المصطلح الفلسفي فيه.

وقد كان رحمته الله موقفا في كتابه لكي يكون ردا على جميع الملحدين ، وليس على خصوص من يفهم المصطلحات الفلسفية فيما لو كتبه بتلك المفردات ، إذ يكون حينها مقتصر على فئة نادرة جدا تعرف تلك المصطلحات وتفهم معناها، ومن جهة أخرى اللغة العقلية البديهية أبلغ في التأثير لأن النقاش إذا كان يدور مدار المصطلح الفلسفي يفقد معناه الحقيقي ويتحول إلى نقاش جاف مركونا في قالب اللفظ.

(١) في مدرسة الشيخ بهجت، ج٢، ص١٤٩.

وإليك أن تتأمل مجادلات الأئمة عليهم السلام مع الملحدين كيف أنها كانت عقلية عظيمة الأثر ، في حين أن خلوها من المصطلحات الفلسفية مما لا يرتاب فيه أحد.

الفلسفة حقائق الوجود والوجود أم أوهام الوجود والموجود ؟!

قبل بيان تعريف الفلسفة يستحسن بيان مقدمة مختصرة عن الفلسفة أو المدرسة المشائية والإشراقية والحكمة المتعالية :

إن الفلسفة المشائية هي امتداد لفلسفة أرسطو (ت: ٣٢٢ قبل الميلاد) ، ولك أن تصفها بأنها متمثلة بمدرسة أرسطو ، كانت تعتمد على الاستدلال والبرهان في معرفة حقائق الأشياء ولم تجعل الكشف والشهود طريقا في المعرفة ، ولكن هذا لم يكن اتجاهها سائدا في هذه المدرسة ، حيث كان ابن سينا يعتمد الكشف والشهود أيضا ، كما يدل عليه الفصل الذي عقده في الإشارات والتنبيهات تحت عنوان (مقامات العارفين) . من أقطابها أبو إسحاق الكندي (ت: ٢٦٦هـ) الذي حاول تأليف كتاب في تناقض القرآن لولا تنبيه الإمام الحسن العسكري عليه السلام كما روى ابن شهر آشوب في المناقب^(١) ، وأبو نصر الفارابي (ت: ٣٣٩هـ) الملقب بالمعلم الثاني بعد المعلم الأول أرسطو ، وابن سينا (ت: ٤٢٩هـ) الملقب

(١) انظر عنوان : (نهاية مطاف التوفيق بين الفلسفة والدين) .

بالشيخ الرئيس أي رئيس المدرسة المشائية كما يرى بعضهم وابن رشد (ت: ٥٩٥هـ) .

والفلسفة الإشراقية أنشأها أبو الفتح يحيى بن حبش المعروف بشهاب الدين السهروردي (ت: ٥٨٧هـ) - وهو غير شهاب الدين عمر السهروردي صاحب (عوارف المعارف) وغير أبي النجيب السهروردي - التي يرى بعضهم أنها امتداد لفلسفة أفلاطون ، وهذه الفلسفة تعتمد طريق الكشف والشهود في معرفة حقائق الوجود بشكل أساس ورئيسي يقول السهروردي : إن أردت أن تكون عالما إلهيا من دون أن تتعب وتداوم على الأمور المقربة إلى القدس فقد حدثت نفسك بالممتنع أو شبيه الممتنع ، فإن طلبت واجتهدت لا تلبث زمانا طويلا إلا ويأتيك البارقة النورانية وسترتقي إلى السكينة الإلهية الثابتة^(١) .

ولكن هذه الفلسفة تثبت مدعياتها وحقائقها للآخرين من خلال الاستدلال والبرهان ، فهي تعتمد الكشف والشهود في إدراك الحقائق والاستدلال عليها وإثباتها للآخرين بالنظر والبرهان كما يقول أصحابها .

وأصل تسمية فلسفة الإشراق تعود إلى شجرة بوذا حيث يروى في الفلسفات الهندية أن بوذا جلس تحت ظل شجرة متأملا وفقا للطريقة التي تعلمها ، وساعي إلى الوقوف على الحقيقة وبلوغ درجة الإشراق ، وأشهد الأرض على استحقاقه لهذه الدرجة (ومن ثم يصوره البوذيون واضعا كفه اليمنى على الأرض) واكتشف أن أصل المعاناة يعود إلى الرغبة والجهل والعارف بالأسرار

(١) المشارع والمطارحات، ص ٣٧٨ .

هو من يدرك ذلك ومنذ تلك الفترة أصبحت الشجرة التي جلس في ظلها مقدسة عند البوذيين وسُميت شجرة الإشراق، كما أصبح يُعرف بيوزا والمكان الذي حدث فيه الإشراق يُسمى بوذا جايا^(١).

وأما فلسفة أو مدرسة الحكمة المتعالية التي أسسها ملا صدرا فهي تعتمد الشهود والبرهان معا في معرفة الوجود ، إذ اعتمدت طريقا المعرفة في كلا المدرستين السابقين ودجت بينهما ، ومن هنا يرى بعضهم أن ملا صدرا لم يكن مبتكرا وإنما موفقا بين الفلسفتين كما كان موفقا بين التصوف والدين ، وإن كان لا يخفى دوره في ذلك التوفيق من تأسيس مدرسة مستقلة بكيانها بعد ما ضمت كلا الطريقتين في المعرفة ، من البرهان في المشاء والشهود في الإشراق، كما أن أصالة الوجود واعتباريته لم تكن بشكل واضح لها استقلالها ومعالمها إلا في فلسفة الحكمة المتعالية لصدرا القائلة بأصالة الوجود ، وأما الفلسفة المشائية والإشراقية لم تكن فيهما هذه المسألة بشكل صريح ، وإن كان يستظهر بعض المتبعين من المشاء القول بأصالة الوجود ، ومن الإشراق القول بأصالة الماهية.

والاختلاف في أصالة الوجود والماهية هو اختلاف ذهني أي مفهوما ولا وجود له في الخارج ، فإذا قلنا الأصالة للوجود تكون صورة زيد (مشخصاته الخارجية) في الخارج تبعا لوجوده الذي يشترك مع غيره في الوجود ، وحينها

(١) انظر الموسوعة العربية العالمية، ج ٥، ص ٢٣١.

تكون صورته اعتبارية ، وإذا قلنا الأصالة للماهية يكون وجود زيد تبعا لصورته ، وصورته منشأ حقيقته ووجوده اعتباري .

وعلى هذا يختلف تعريف الفلسفة فمن يرى الأصالة للوجود يقول هي بحث - حقائق - الوجود ومن يرى أصالة الماهية يقول بحث الموجود.

وهذا التعريف هو لذوي الاتجاه الفلسفي ، أما الاتجاه الآخر المعارض لها ، أو من لا يرى لها أهمية بصورة عامة ، يراها البحث في أوهام الوجود على مبنى أصالة الوجود ، والبحث في أوهام الموجود على مبنى أصالة الماهية ؛ يقول السيد الخوئي رحمته الله : نرى كتب الفلاسفة الأقدمين ومن تأخر عنهم من أهل التحقيق والنظر قد صارت عرضة لسهام النقد ممن تأخر حتى أن بعض ما اعتقده السابقون برهانا يقينيا أصبح بعد نقده وهما من الأوهام ، وخيالا من الأخيلة^(١).

ويتساءل السيد الخوئي رحمته الله : كان المسلمون بأسرهم على ذلك ولم يكن لهم أي اختلاف فيه حتى دخلت الفلسفة اليونانية أوساط المسلمين ، وحتى شعبتهم بدخولها فرقا تكفر كل طائفة أختها ، وحتى استحال النزاع والجدال إلى المشاجرة والقتال فكم هتكت في الإسلام من أعراض محترمة ، وكم اختلست من نفوس بريئة ، مع أن القاتل والمقتول يعترفان بالتوحيد ، ويقران بالرسالة والمعاد.... ولست أدري وليتني كنت أدري بماذا يعتذر من ألقى الخلاف بين

(١) البيان في تفسير القرآن، ص ٦٧.

المسلمين وبم يجب ربه يوم يلاقه ، فيسأله عما ارتكب ؟ فإننا لله وإنا إليه راجعون^(١).

وسئل ﷺ : هل إن دراسة الفلسفة لازمة لطالب العلوم الدينية الذي يضع نفسه في موضع الأخذ والرد بالنسبة إلى سائر العقائد والأديان وهل هناك وجوب كفائي على طلاب العلوم الدينية في القيام بهذا الدور ، وهل يمكن إدخال هذا تحت عنوان كونه (أي الفلسفة) مقدمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو كونه مقدمة للحفاظ على الدين أو كليهما ، وإن لم تكن لازمة لطلاب العلوم الدينية فهل فيها رجحان أو لا رجحان فيها أصلا ، ثم إن دراسة الفلسفة على من تكون غير جائزة - أرجو أن توضحوا لنا جواب هذه الفقرة تماما - ولو فرضنا أن فهم علم أصول الفقه أو بعض أبوابه - فهما صحيحا كاملا - كان متوقفا عليها فهل هناك رجحان في دراستها عموما ، أو بقيد أن هذا الطالب يكون له مستقبل جيد في الإفادة إن شاء الله ؟

فأجاب : لم يتضح لنا توقف ما ذكر على دراسة الفلسفة وقد تعرضوا للمقدار اللازم منها في طي أصول الدين والفقه ، وإذا خاف من الضلال إثر دراستها حرم وإلا فلا مانع منه في حد نفسه ، والله العالم^(٢).

(١) البيان في تفسير القرآن، ص ٤٠٦.

(٢) صراط النجاة، ج ١، ص ٤٥٩.

المراد من نقل كلا السيد الخوئي رحمته الله ليس للاستشهاد بجهة الإفتاء وإن كان لهذا الجانب مورد ومقامه المحفوظ ، وإنما لبيان أن السيد الخوئي رحمته الله بعد أن خاض غمار الفلسفة تلخص إلى أن إثبات التوحيد وعلم الكلام بصورة عامة لم يكن متوقفا على الفلسفة ، كما يتوهم من لا خبرة له بذلك ويقول بتوقف علم الكلام على الفلسفة !

وأصحاب الاتجاه الفلسفي وأنصارهم لم يعبأوا بكلام الأعلام الذين يوافقون السيد الخوئي رحمته الله فيما يراه ، بل يتناولون عليهم ويصفوهم بأنهم غير متخصصين في هذا الاتجاه ، ويحسبون قولهم عن غير تخصص فلا يكثرث له ! توهما منهم أن هؤلاء الأكابر لم يطلعوا على الفلسفة ولا على مصادرها ، ولم يعرفوا مطالبها ولم يكن لهم باع وخبرة فيها ، وليست الفلسفة إلا منزلة عليهم من وحي المشاء والإشراق لا يشاركونهم ولا ينازعهم فيها أحد !

ابن عربي ووحدة الوجود في نظر السيد عبد الأعلى السبزواري

إن السيد عبد الأعلى السبزواري رحمته الله كان من أهل المعرفة الذين ينهلون من فكر أهل البيت عليهم السلام ، ولم يكن من العرفاء المتأثرين بالفكر الصوفي ، ولذا كان من الدامين والطاعنين على ابن عربي .

وقد علق رحمته الله على خبر روي في (بحار الأنوار) عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : (إن إبليس اتخذ عرشا فيما بين السماء والأرض واتخذ زبانية بعدد الملائكة فإذا دعا رجلا فأجابه وطئ عقبه وتخطت إليه الأقدام تراءى له إبليس ورفع إليه وإن أبا منصور كان رسول إبليس لعن الله أبا منصور لعن الله أبا منصور ثلاثا) . قال فيه رحمته الله : هذه الرواية تبطل جملة مما يدعونه أهل الكشف والشهود خصوصا مثل مكاشفات محيي الدين كما في جملة من كتبه سيما ما سماه بالفتوحات المكية^(١).

وبعد أن ذكر دعاء : (إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضياء النظر إليك حتى تحرق أبصار القلوب حجب النور ، فتصل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك) قال رحمته الله : هذا غاية كمال العارفين التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون . وما سوى ذلك مما دعا إليه بعض العرفاء

(١) التعليق على كتاب بحار الأنوار، ج٢، ص١١٠. والخبر مروي عن (اختيار معرفة الرجال) المعروف برجال الكشي، ص٢٥٦.

كابن الفارض ومحبي الدين والحلاج ونحوهم ، وما نسب إلى بعض الشيخية على ما صرح به في شرح زيارة الجامعة ، فإن كل ذلك خروج عن الحق القويم وابتعاد عن الصراط المستقيم^(١).

وكان رحمته الله من الرافضين لفكرة وحدة الوجود بكل معانيها وتفصيلها يقول رحمته الله :
القائلون بوحدة الوجود ، فمقتضى الأصل ، والإطلاق طهارتهم أيضا . إلا إذا رجع اعتقادهم إلى إنكار الضروري . ولهذه المسألة أقسام أيضا :
منها : الوحدة في مجرد الإطلاق اللفظي فقط ، ولا محذور فيه من عقل ، أو نقل .

ومنها : الوحدة في عين الكثرة ، أو وحدة الوجود وكثرة الموجود ، ولا ريب في أن الله تبارك وتعالى منزّه عن هذه التصورات ولكن الظاهر عدم رجوعهما إلى إنكار الضروري .

ومنها : الوحدة الواقعية الشخصية ، بأن يكون الله تبارك وتعالى عين الكل ، والكل عينه تعالى . ولا ريب في أنه إنكار للضروري إن كان له وجه معقول متصور^(٢).

وأیضا يرفضها بكل معانيها في مورد آخر فيقول : إحاطته تعالى بما سواه تارة :
إحاطة وجودية ، وأخرى : علمية ، وثالثة : فعلية ، فمن الأول قوله تعالى :

(١) مواهب الرحمن، ج٨، ص٢٢٥.

(٢) مذهب الأحكام، ج١، ص٣٨٨.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١). ومفهوم الإحاطة والمحاط متقوم بالاثنيينة لغة وعقلا . فتوهم وحدة الوجود من مثل هذه التعبيرات في الآيات المباركة - كما زعم جمع من الفلاسفة والعرفاء - باطل ، فضلا عن وحدة الوجود والموجود كما زعم جمع من خواص العرفاء والفلاسفة ، وسيأتي تفصيل هذه المذاهب وفسادها في محالها إن شاء الله تعالى . ومن الثاني قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٢) . وقوله تعالى : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) . وهذا القسمان من إحاطته يعلمان جميع ما سواء من أنحاء الممكنات. وأما إحاطته الفعلية كقوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٤) فإن كان المراد بالفعل الخلق والتقدير فهي تعم جميع ما سواء أيضا^(٥).

والسيد عليه السلام لديه نقد للمنظومة تحت عنوان (إفاضات الباري في نقض ما ألفه السبزواري) لكن أثناء حادثة الانتفاضة الشعبانية ذهبت بعض مخطوطاته ومن

(١) سورة النساء : ١٢٦ .

(٢) سورة الطلاق : ١٢ .

(٣) سورة سبأ : ٣ .

(٤) سورة التوبة : ٤٩ .

(٥) مواهب الرحمن، ج١، ص١٠٤.

جملتها هذا الكتاب ، كما أنه في تفسير (مواهب الرحمن) يذكر بعض الآراء الفلسفية ويفندها^(١).

ومن يطالع (مواهب الرحمن) سيجد انتقاداته للفلسفة والفلاسفة في عدة مواضع حتى أنه يمكن إحصاؤها في كتاب مستقل.

وقد يُقال : أن السيد السبزواري رحمته الله لم يكن منتقدا للفلسفة وإنما لبعض الآراء الفلسفية ، ولذا كان في تفسيره يذكر المطالب الفلسفية التي يراها لم تخالف الرؤية الدينية.

والجواب : إنه كان رحمته الله يذكر الآراء الفلسفية لكي يُعرف أنه من أهلها ويمضي نقده ، وإذا كان لم يأخذ منها إلا الموافق للدين هذا يعني أنها لم تكن له رافدا في المعرفة ولم تضيف له شيئا ، فقيمتها المعرفية بالنسبة إليه من حيث الوجود والعدم على حد سواء .

ويكفي أن في نقده للآراء الفلسفية هو نقد الفلسفة ولا نطلب منه أن يذم هذه المادة على نحو الخصوص (الفلسفة) لكي نعرف أنه ذام لها ، وللتقريب من خلال المثال أن أبا حامد الغزالي كتب نقدا للآراء الفلسفية في كتابه (تهافت

^(١) لقاء مع ابنه السيد علي السبزواري . وأيضا الكتاب (إفاضات الباري في نقض ما ألفه السبزواري) مذكور ضمن مصنفاته في المفضل من تاريخ النجف الأشرف، ج ٨، ص ١٨٦.

الفلاسفة) فهل نقول أنه لم يكن منتقدا للفلسفة ! وماذا بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك لتعرفوا منه أنه منتقد للفلسفة !

وبعض العلماء يذكر الآراء الفلسفية في كتبه ليكون نقده أبلغ وليس للتبني مثل ما فعل والد العلامة المجلسي (رحمهما الله) حيث يقول المجلسي الابن : إياك أن تظن بالوالد العلامة نور الله ضريحه أنه كان من الصوفية ، ويعتقد مسالكهم ومذاهبهم ، حاشاه عن ذلك وكيف يكون ذلك وهو كان آنس أهل زمانه بأخبار أهل البيت عليه السلام وأعلمهم وأعملهم بها ، بل كان سالكا مسالك الزهد والورع ، وكان في بدو أمره يتسمى باسم التصوف ليرغب إليه هذه الطائفة - الصوفية - ولا يستوحشوا منه ، فيردعهم عن تلك الأقاويل الفاسدة والأعمال المبتدعة ، وقد هدى كثيرا منهم إلى الحق بهذه المجادلة الحسنة ، ولما رأى في آخر عمره أن تلك المصلحة قد ضاعت ، ورفعت أعلام الضلال والطغيان ، وغلبت أحزاب الشيطان ، وعلم أنهم أعداء الله صريحا تبرأ منهم ، وكان يكفرهم في عقائدهم الباطلة وأنا أعرف بطريقته ، وعندي خطوطه في ذلك^(١).

(١) عقائد الإسلام، ص ٩٤.

السيد الخميني الأسفار الأربعة منعته من المحبوب

رسالة موسومة بسبيل المحبة أرسلها السيد الخميني عليه السلام إلى إحدى قريباته يعرب فيها أن الأسفار الأربعة منعته من السفر إلى المحبوب ، ويظهر فيها تأسفه وحزنه على فصوص الحكم وشبهه ممن له قصة مخزنة على حد تعبيره :

عزيزتي فاطمة

أخيراً فرضت علي كتابة عدة أسطر ولم تقبلي عذر الشيخوخة والتألم والابتلاءات الآن أبدأ الحديث عن آفات الشيخوخة والشباب حيث إنني أدركت المرحلتين أو فقولي طويتهما وأنا الآن في منحدر البرزخ أو النار وجها لوجه مع أعوان حضرة ملك الموت وهذا تعرض علي صحيفة أعمالي السوداء ويطلبون مني حساب عمري الضائع ولا جواب لدي سوى الأمل برحمة من وسعت رحمته كل شيء الذي أنزل على من هو رحمة للعالمين ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(١) عسى أن أصبح مشمولاً لهذا النحو من الآيات الكريمة . لكن ما العمل بالنسبة للعروج إلى حريم الكبرياء والصعود إلى جوار المحبوب والورود إلى ضيافة الله التي يجب الوصول إليها بسعيها في (مرحلة) الشباب حيث كان النشاط والاستطاعة وبمكائد الشيطان انشغلت بالمفاهيم والاصطلاحات المنمقة والمبهرجة.. ولم يحصل لي منها جمعية ولا حال ولم أحاول أبدا الحصول على روحها ولا

(١) سورة الزمر: ٥٣ .

إرجاع ظاهرها إلى باطنها وملكها إلى ملكوتها وقلنا : لم يتحصل من قيل المدرسة وقالها إلا الكلام المحزن بعد كل ذلك الجهد والتوثب وقد غصت في عمق الاصطلاحات والاعتبارات وانشغلت بدلا من رفع الحجب بجمع الكتب وكأنه ليس في الكون والمكان وجود لغير حفنةٍ من ورق ممزق سميت باسم العلوم الإنسانية والمعارف الإلهية والحقائق الفلسفية.. مع أنها تحول بين الطالب المفطور بفطرة الله وبين الوصول إلى المقصد وتغرقه في الحجاب الأكبر.

الأسفار الأربعة بطولها وعرضها منعني من السفر إلى المحبوب لا من الفتوحات حصل لي فتح.. ولا من (فصوص الحكم) حصلت على حكمة.. فضلا عن غيرهما الذي له قصة محزنة..

وأصبحت في كل خطوة مني مبتلىً بالاستدراج إلى أن بلغت الكهولة وما فوقها التي أكابدها الآن ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أُرْدَلِ الْعُمْرِ لَكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^(١) ولأنك يا ابنتي بعيدة عن هذه المرحلة عدة فراسخ ولم تتذوقي طعمها أوصلك الله إليها فإنك - ودون الوقوع في آفاتنا - تتوقعين مني الكتابة والحديث وتمزجين أيضا بين النظم والنثر.. ولا تعلمين أنني لست كاتباً ولا شاعراً ولا خطيباً . وأنت يا ابنتي العزيزة التي (لم تخبري الحياة بعد)، أصبحت حلوى قبل أن تصبح حصرماً اعلمي أنك سوف تحملين على ظهرك يوماً حمل التأسف الثقيل على الشباب الذي تضعينه بهذه المشاغل أو

(١) سورة النحل : ٧٠ .

بما هو أفضل منها كما أحمله أنا (وسوف ترين) أن قافلة العشاق المحبين لله فاتتك لا سمح الله.. إذن اسمعي من هذا الهرم البائس الذي يحمل هذا الحمل وقد انحنى تحته . لا تكتفي بهذه الاصطلاحات التي هي الفخ الكبير لإبليس وكوني بصدد البحث عنه جل وعلا^(١).

فهم بعضهم من هذه الرسالة أن السيد الخميني رحمته الله تندم على اهتمامه بالفصوص والأسفار ، وبعضهم قال : إن هذه الرسالة لا تدل على الندم وإنما لم يحصل مراده منهما ، وليس المهم هو الخوض في هذه الجزئية ، وإنما المهم هو الاعتبار وأخذ العبرة منها والسيد كان صادقاً فيما يقول من أن هذه الكتب منعت من الوصول . وما أحسبه أن هذه الكتب ليس من شأنها الوصول ، لا أنها تقتضي ذلك والقصور والمانع في دارسيها ، ومن هنا أعرب السيد الخميني رحمته الله عن عدم جدواها ولم تحلق به نحو المحبوب.

على كل المنهمكين بالأسفار والفصوص أن يضعوا هذه الرسالة نصب أعينهم حتى لا ينصدموا في نهاية المطاف ، ويجدوا أنفسهم خالي الوفاض وصفر اليدين من أي شيء ، ومن ثم يميلون إلى الإلحاد ، ويشككون في ضروريات الدين والمذهب ، كما وصف الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذين يميلون للفلسفة والتصوف بالدعاة إلى فحلة الملحدون حيث روي عنه عليه السلام : علماءهم شرار خلق الله على وجه الأرض لأنهم يميلون إلى الفلسفة والتصوف ،

(١) وصايا عرفانية، ص ٧٣.

وايم^(١) الله إنهم من أهل العدول والتحرف ، يبالغون في حب مخالفينا ويضلون شيعتنا ومواليينا ، فإن نالوا منصبا لم يشبعوا من الرشاء ، وإن خذلوا عبدوا الله على الرياء ، ألا إنهم قطاع طريق المؤمنين والدعاة إلى نحلة الملحدين^(٢) ، فمن أدركهم فليحذرهم وليصن دينه وإيمانه^(٣).

١ (ايم الله من ألفاظ القسم ، كقولك لعمر الله وعهد الله ، وفيها لغات كثيرة ، وتفتح همزتها وتكسر ، وهمزتها وصل ، وقد تقطع .النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص١٠٦

٢ (كما كان إلحاد ابن أبي العوجاء بسبب الحسن البصري ، انظر عنوان : (إلحاد ابن أبي العوجاء بسبب الحسن البصري)

٣ (حديقة الشيعة، ص٥٩٢.

مفردات الصوفية التي انتشرت في أوساط المسلمين

إن للصوفية عدة رؤى وأفكار انتشرت في بعض أوساط المسلمين تحت مسمى العرفان ، ولذا من الضروري جدا بيان جملة من تلك الأفكار والمفردات ، لكي يتنبه القارئ الكريم ويعرف مصدرها ومنشأها فيما إذا وجدها مسطورة في المصنفات والبحوث وإن لم يعرف أصحابها بالتصوف :

الفناء والبقاء

إن الفناء عند الصوفية هو عدم شعور الشخص بنفسه ، أو بشيء من لوازم نفسه . وقيل : الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية ، وقيل : الفناء سقوط الأوصاف المذمومة ، والبقاء ثبوت النعوت الحمودة ، وعلامته عندهم ذهاب حظ المرء من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى ، والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ، ويبقى بما لله تعالى . وعلامة فنائك عن الخلق انقطاعك عنهم ، وعن التردد إليهم ، واليأس منهم . وعلامة فنائك عن نفسك وعن هواك تركك التعلق بالأسباب التي تجلب النفع وتدفع الضر . وآخر الفناء عند الصوفية أن لا ترى شيئا إلا الله ، وأن تكون ناسي لنفسك ولكل الأشياء

سوى الله . فإذا قال الصوفي : ليس في الوجود إلا الله عبر بذلك عن فناء ذاته في الذات الإلهية^(١).

وأول من تكلم في الفناء والبقاء بالمعنى المتداول في كتب العرفان النظري هم الصوفية وإليك أقدم وأهم مصادرهم التي تشهد بذلك :

١ - يقول الحلاج في كتابه (الطواسين) : التصوف الاستهلاك في حقائق الحق ، والفناء عن جميع صفات الخلق^(٢).

ويقول فيه أيضا : إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عباده فتح عليه باب الذكر ، ثم فتح عليه باب القرب ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم يرفعه عن الحجب ، فيرى الفردانية بالمشاهدة ، ثم أدخله دار الفردانية ، ثم كشف عن الكبرياء والجمال ، فإذا وقع بصره على الجمال بقي بلا هو ، فحينئذ صار العبد فانيا ، وبالحق باقيا ، فوقع في حفظ سبحانه ، وبرئ من دعوى نفسه^(٣).

٢ - عقد أبو بكر الكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) بابا تحت عنوان (قولهم في الفناء والبقاء) يقول فيه : الفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ويسقط عنه التمييز ، فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فنى به كما قال عامر بن عبد الله ما أبالي امرأة رأيت أم حائطا والحق يتولى تصريحه فيصرفه

١ (انظر المعجم الفلسفي لجميل صليبا، ص ١٦٧. ويأتي تعريفه أيضا عند عبد الرزاق الكاشاني .

٢ (الطواسين، ص ٢٢٣.

٣ (الطواسين، ص ٢٤١.

في وظائفه وموافقاته فيكون محفوظا فيما لله عليه مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات فلا يكون له إليها سبيل وهو العصمة^(١).

٣ - عقد القشيري (ت: ٤٦٥هـ) في رسالته عنوانا يتكلم فيه عن الفناء والبقاء يقول فيه : أشار القوم بالفناء : إلى سقوط الأوصاف المذمومة . وأشاروا بالبقاء : إلى قيام الأوصاف المحمودة به^(٢).

٤ - يقول أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) : أن لا يرى في الوجود إلا واحدا وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا . وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده ، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق^(٣).

ويقول أيضا : الفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ، ومنتهى نعيم الصديقين^(٤).

٥ - يقول عمر السهروردي (ت: ٦٣٢هـ) في عوارفه : قد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء يعنون به فناء الإرادة ، والهوى والإرادة أطف

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ٩٢.

(٢) الرسالة القشيرية، ص ١٣٩.

(٣) إحياء علوم الدين، ج ١٣، ص ١٥٨.

(٤) إحياء علوم الدين، ج ١٥، ص ٧٢.

أقسام الهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ، أما الفناء الباطن فهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود ، يكون في تجلي الذات^(١).

٦ - ابن عربي (ت: ٦٣٨هـ) لديه رسالة تحت عنوان : (الفناء في المشاهدة) يقول في مطلعها : أما بعد فإن الحقيقة الإلهية تتعالى أن تشهد بالعين التي ينبغي لها أن تشهد وللكون أثر في عين المشاهدة فإذا فني ما لم يكن وهو فان ويبقى من لم يزل وهو باق حينئذٍ تطلع شمس البرهان لإدراك العيان.

٧ - يقول عبد الرزاق الكاشاني (ت: ٧٣٠هـ) عند شرحه للفصوص : الولاية هو الفناء في الله والله هو المحيط بالكل^(٢).

وعرف الكاشاني الفناء في اصطلاحات الصوفية : بزوال الرسوم جميعا بالكلية في عين الذات الأحدية مع ارتفاع الاثنية وهو مقام المحبوبة^(٣).

٨ - يقول القيصري (ت: ٧٥١هـ) عند شرح الفصوص : الخاصة عبارة عن فناء العبد في الخلق ، فالولي هو الفاني فيه الباقي به . وليس المراد بالفناء هنا انعدام عين العبد مطلقا بل المراد منه فناء جهة البشرية في الجهة الربوبية إذ لكل عبد جهة من الحضرة الإلهية^(٤).

^(١) عوارف المعارف، ص ١٧٠.

^(٢) فصوص الحكم / فص حكمة قدرية في كلمة عزيزية.

^(٣) اصطلاحات الصوفية، ص ٣٦٥.

^(٤) مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم، ص ١٤٦.

ويقول أيضا : الفناء موجب لأن يتعين العبد بتعينات حقانية وصفات ربانية مرة أخرى ، وهو البقاء بالحق فلا يرتفع التعين منه مطلقا... ولا بحصول الكشف الشهودي أيضا ، إلا أن يكون موجبا لفناء الشاهد في المشهود ومحو العابد في المعبود^(١).

٩ - يقول عبد الرحمن الجامي (ت: ٨٩٨هـ) : في أبي سعيد الخزاز : قالوا أول من تكلم في علم الفناء والبقاء الخزاز^(٢).

وأیضا كتب الطبقات والسير تدل على أن القوم أو من استعمل مفردة الفناء والبقاء :

١ - يقول محمد النيسابوري (ت: ٤١٢هـ) في طبقاته : أبو سعيد الخزاز واسمه أحمد بن عيسى وهو من أهل بغداد صحب ذا النون المصري وأبا عبد الله الناجي وأبا عبيد البصري وصحب أيضا سريا السقطي وبشر بن الحارث وغيرهم وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم قيل إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء مات سنة تسع وسبعين ومائتين^(٣).

٢ - يقول ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) : الخزاز أبو سعيد إمام القوم في كل فن من علومهم بغدادي الأصل له في مبادئ أمره عجائب وكرامات مشهورة ظهرت

(١) مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم، ص ١٤٧.

(٢) نفحات الأنس، ص ٢٣٤.

(٣) طبقات الصوفية، ص ١٨٣.

بركته عليه وعلى من صحبه وهو أحسن القوم كلاما خلا الجنيد فإنه الإمام
وقيل إن أول من تكلم في علم الفناء والبقاء أبو سعيد الخراز^(١).

٣ - يقول الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) : الفناء والبقاء من ترهات الصوفية^(٢).

٤ - يقول عبد الحي الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ) : أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز،
شيخ الصوفية ، وهو أول من تكلم في علم الفناء والبقاء^(٣).

٥ - يقول رينولد ألين نيكلسون (ت: ١٣٦٤هـ) فكرة الفناء التي برزت أكثر من
غيرها في تاريخ التصوف التالي لعهدهم لم يتكلم فيها أحدهم كلاما واضحا
صرىحا ، بل كان الصوفي الفارسي أبو يزيد البسطامي أول من استعمل كلمة
الفناء بمعناها الصوفي الدقيق أي بمعنى محو النفس الإنسانية وآثارها وصفاتها ،
حتى يمكن أن يعد هذا الرجل بحق أول واضع لهذا المذهب^(٤).

(١) تاريخ دمشق، ج ٥، ص ١٣٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٣٩٣.

(٣) شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٥٩.

(٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٢٢.

الجمع بين خبرين وفق الفكر الصوفي

إن مفردة (الفناء) و (البقاء) في حديث أهل البيت عليه السلام لم تكن بالمعنى المتداول عند الصوفية وكتب العرفاء وإنما بمعنى الهلاك والزوال . وأما الصوفية فيقصدون بهذه المفردة كما تقدم عدم شعور الشخص بنفسه ، أو بشيء من لوازم نفسه ، والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى - كما يقولون - ولكن الغريب أنني رأيت سؤالاً وجه لأحد الأعلام - الذين تأثروا بمفردات الصوفية - في كيفية الجمع بين خبرين روي عن أمير المؤمنين عليه السلام يُتصور فيهما التعارض حيث جاء في أحد الخبرين : (إنا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء)^(١) والآخر جاء فيه : ((واعلم أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللبقاء لا للموت لا للحياة))^(٢)

والتعارض الذي يُتصور هو في عبارة : (للبقاء لا للفناء) في الحديث الأول وعبارة ((وللفناء لا للبقاء) في الحديث الآخر .

وقد جمع بينهما ورفع التعارض بين الفقرتين بقوله : إنكم خلقتم للبقاء في المعبود والفناء في الموجود.

ولكن عند الرجوع للخبرين تجد من الواضح جداً أن المراد من الفقرة الأولى : هو أن الخروج من الدنيا لا يعني الفناء وإنما الإنسان مخلوق للبقاء وخروجه من

(١) أمالي الطوسي، ص ٢٤٦.

(٢) نهج البلاغة، خطبة : (٣١) .

الدنيا انتقال من دار إلى أخرى ، وإليك نص الخبر المروي في أمالي الطوسي لكي ترى هذا المعنى جليا : أيها الناس أصبحتم أغراضا تنتضل فيكم المنايا ، وأموالكم نهب المصائب ، وما طعمتم في الدنيا من طعام فلکم فيه غصص ، وما شربتموه من شراب فلکم فيه شرق . وأشهد بالله ما تنالون من الدنيا نعمة تفرحون بها إلا بفراق أخرى تكرهونها . أيها الناس إنا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون فتزودوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه والسلام.

ومما يدل على أن المراد من البقاء هو البقاء في الدنيا وعدم الموت وليس البقاء في المعبود كما تبرع للجمع بينهما ما ورد عنه عليه السلام في نهج البلاغة : (ولو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما أو إلى دفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان بن داود)^(١) وأحاديث كثيرة تدل على هذا المعنى فلا يتبادر ذلك المعنى الصوفي إطلاقا.

والمراد من الفقرة الأخرى : أنك مخلوق للفناء والموت في الدنيا وليس للبقاء والحياة فيها ، وإليك بعض فقرات الخبر المروي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين في وصية الإمام الحسن عليه السلام لكي يتضح المعنى المراد أكثر : واعلم أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللغناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وأنت في منزل قلعة ، ودار بلغة ، وطريق إلى الآخرة ، وأنت طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ولا بد أنه مدركه.

(١) نهج البلاغة، خطبة : (١٨٢) .

واضح جدا المراد من الخبرين ولا يتطلب أبدا الاستعانة بمفردات الصوفية من
الفناء والبقاء ، أو غيرهما ومن ثم إسقاطها على الأحاديث ، وتحميلها ما لا
تحتمل من معاني - لا دليل عليها - تلك المصطلحات وصرفها عن معناها المراد
بشكل جلي والذي لا يحتمل غيره.

من لا شيخ له فشيخه الشيطان

من أفكار الصوفية البارزة وأساسياتهم البادية فكرة اتخاذ الشيخ ، وإليك جذورها في أقدم مصادرهم :

١- يقول عبد الكريم القشيري الشافعي (ت:٤٦٥هـ) في رسالته المعروفة بالرسالة القشيرية : يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا . هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غراس فإنها تورق ، ولكن لا تثمر؛ كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا نفسا فهو عابد هواه لا يجد نفاذا^(١).

٢- يقول أبو حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ) :المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ، ليهديه إلى سواء السبيل . فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة . فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير ، فقد خاطر بنفسه وأهلكها . ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها ، فإنها تجف على القرب . وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر ، فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه ، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد ، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبقى في متابعته شيئا ولا

(١) الرسالة القشيرية، ص ٥٤٢.

يذر. وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب ، فإذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحسن حصين^(١).

٣- يقول أحمد الرفاعي (ت: ٥٧٨هـ) من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان ، وإن المرید ينال من الله تبارك وتعالى ببركة شيخه بقدر ما تأدب وحفظ الحرمة وراقب السر ، وينبغي للمرید أن يعرف لشيخه الحق بعد وفاته كما كان يعرف له الحق في حالة حياته..... ممن يذكر الله تعالى بلا شيخ لا الله له حصل ولا نبيه ولا شيخه^(٢).

٤ - وعنون ابن عربي (ت: ٦٣٨هـ) في الفتوحات المكية بابا باسم : (معرفة مقام احترام الشيوخ) يقول فيه :

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله	فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم	على الدلالة تأييدا على الله
الوارثون هم للرسول أجمعهم	فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم	لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولهم	عن الشريعة فتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثرا	فإنهم طلقاء الله في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته	عنه ولو جاء بالأنباء عن الله

(١) إحياء علوم الدين، ج ٨، ص ١٣٦.

(٢) قلادة الجواهر ص ١٨٢.

٥ - وعقد عبد الوهاب الشعراني (ت: ٩٧٣هـ) في (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية) عدة عناوين في لزوم طلب الشيخ وطاعته وهي : (من أدب الطريق استئذان الشيخ) (من شأن المريد أن لا يقول لشيخه لم) (لا تعترض على شيخك أيها المريد) وقد ذكر فيها الكلام الكثير الذي يأمر ويحث على ضرورة اتخاذ الشيخ وامثال أوامره ، ومن جملة ما نقله الشعراني في تلك الأبواب : وقد كان سيدي علي بن وفا يقول : إن وجدت أستاذك المحقق فقد وجدت حقيقتك ، وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله عندها ، وإذا وجدت الله عندها وجدت كل شيء ، فليس كل المراد إلا في وجد هذا الأستاذ . فافهم تغم... وكان يقول : ما الأمر إلا أن تجد أستاذك وقد وجدت مرادك ، هنا الله فؤادك^(١).

ويقول الشعراني أيضا : إن سيدي علي بن وفا يقول : الزم الأستاذ فإنه يظهر سر الربوبية ، فربما أوحى إليك ربك في حجاب قلب شيخك من طريق الإلهام ، فإن قلبه مظهر سر الربوبية ، فعلى المريد أن يقف عند أمر أستاذه ولا يتعداه ، ولا يلتفت عن أستاذه يمينا ولا شمالا ، إذ ليس المريد من يتوجه بقلبه إليه غير الأستاذ ، وليس من مرتبته صحة التوجه إلى الحق تعالى لجهله به إلا أن يكون مضطرا^(٢).

(١) (الأنوار القدسية، ج٢، ص١٧.

(٢) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٨.

ونقل أيضا قول بن وفا : كل من أراد الكمال بغير أستاذه وهاديه فقد أخطأ طريق المقصود^(١).

وقول آخر لابن وفا : مرشدك إلى الحق تعالى هو العين التي ينظر الحق بها إليك باللطف والرحمة ، وهو وجه الحق الذي يقبل بواسطته عليك ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، فاعرف والزم وانظر ماذا ترى ... وكان يقول : لا يظفر مرید بأستاذ إلا وذلك المرید مخصوص عند الله تعالى ولولا أنه مخصوص عنده ما جمعه على من يوصله إلى حضرته فسلم لشيخك أيها المرید تسلم وتغنم^(٢).

٦- يقول إسماعيل حقي (ت: ١١٢٧هـ) في تفسيره : من كلام أبي يزيد البسطامي : من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان^(٣).

ونقل حقي عن كتاب (التأويلات النجمية) : في الآية - يقصد آية لقاء النبي موسى مع الخضر عليه السلام - إشارات :

منها : أن شرط المسافر أن يطلب الرفيق ثم يأخذ الطريق.

ومنها : أن من شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميرا والثاني مأمورا له ومتابعا.

(١) الأنوار القدسية، ج ٢، ص ٢٨.

(٢) الأنوار القدسية، ج ٢، ص ٣٠.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٢٠٣.

ومنها : أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبر عن مدة مكثه في سفره ليكون الرفيق واقفا على أحواله فإن كان موافقا له يرافقه في ذلك.

ومنها : أن من شرط الطالب الصادق أن يكون نيته في طلب شيخ يقتدي به أن لا يبرح حتى يبلغ مقصوده ويظفر به فإن طلب الشيخ طلب الحق تعالى على الحقيقة^(١).

الامتعاض من اتخاذ الشيخ

قد يتساءل لماذا الامتعاض الشديد من مقولة وسلوك من لا شيخ له فشيخه الشيطان فهي نظير رجوع الجاهل للعالم ؟
والجواب :

إن الصوفية يقولون لا يمكن التكامل من غير شيخ ، وهذا مما لا دليل عليه من الشرع ، ومن جهة أخرى أنهم يقطعون طرق التكامل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بقولهم هذا ، لأنه يُتوهم التكامل غير ممكن بلا شيخ ، بل يزامنه الخوف والهلع الشديد ، لأنه سيكون حينها الشيخ والموجه هو الشيطان كما يزعمون ، فهل هذا كرجوع الجاهل للعالم أو كتعلم مسائل الفقه وغيرها ؟!

(١) تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٢٠٣.

جوابٌ ثانٍ :

لا يندرج موضوع الشيخ بالمعنى الصوفي ضمن رجوع العالم للجاهل، ويتطلب أن لا يُنظر فقط فيما تشترك معه من عمومات العناوين الراجعة ، أو ما يمكن أن تندرج فيه ويغض النظر عن مواطن الافتراق وما يترتب عليها من مساوئ ، والواقع يشهد كيف أن الذين صدقوا هذه النمط من السلوك أصبح كل همهم طلب الأستاذ في هذا المجال ، وتيقن عدم الارتقاء من دونه ، وعلاوة على ذلك نظروا لهذه المقولة وتعاملوا معها وكأنها من مسلمات الشريعة الواردة في الآيات والروايات.

جوابٌ ثالثٍ :

إن الصوفية توقف التكامل والمعرفة على الشيخ فعندهم الطريق إلى الله تعالى متعذر من غير شيخ ، ولا يبعد أن يكون ذلك من الوسائل التي تبتغي الالتفاف حولهم ، وبعبارة أخرى أنهم بثوا هذه الفكرة من أجل إيجاد أتباع لهم ومريدين ، فكان أصل الفكرة من أهواء الصوفية ثم أخذوا التنظير لها وحاولوا إدراجها تحت عناوين راجحة ، مع أنه لا يمكن إدراجها بهذا المعنى المتعارف عليه عند الصوفية ومن تأثر بهم ، لما تقدم سابقا أنه لا دليل عليها من الشرع ، ناهيك عن المساوئ وما يلزم من محاذير.

ثم إن نفس أوامر الشرع من الواجبات والمندوبات ، ونواهيهِ من المحرمات والمكروهات هي بمثابة المرشد والموجه الذي لا يتطلب بعده مؤونة وتكلف ، أو

قل اختراع فكرة الأستاذ ، حتى أن بعض كبار العرفاء كان يقول أن تعاليم الشرع هي بمثابة الأستاذ والمربي.

ولا يستوجب هذا التكلف والعناء في محاولة تصحيح فكرة الأستاذ ، التي هي صوفية المنشأ بكل تأكيد ولا غبار في نسبتها إليهم ، كما ذكرت وجودها في أقدم مصادرهم تحت عنوان من لا شيخ له فشيخه الشيطان.

ومضافا إلي ذلك بعض كبار مسلك العرفاء يشترطون في الأستاذ أن يكون وصل إلى مرتبة الإنسان الكامل ، وهذا المصطلح أيضا جاء في أقدم كتب الصوفية ، مثل ابن عربي في الفتوحات المكية حتى إنه عقد له عنوانا مستقلا تحت عنوان الإنسان الكامل ، وأيضا عبد الكريم الجيلي (ت: ٨٠٥هـ) له كتاب باسم الإنسان الكامل وغيرهم من الصوفية الذين جذروا لهذا المصطلح.

وبعضهم يشترط في الأستاذ أن يكون وصل للسفر الثالث أو السفر الرابع ، ومعرفة ذلك متعذر المنال ، أو على أقل تقدير هو من الصعوبة بمكان ، إذ من يمكنه معرفة بواطن الأشخاص وفي أي مرتبة وصلوا ؟! بل إن من يمكنه إدراك باطن الأستاذ ويعرف في أي مرتبة لا يقل عنه شأنًا إذا لم يكن أرفع منه .

فكرة الأستاذ من فضل الله عليك

إن من الأفكار والأمور التي انتشرت واشتهرت عند الصوفية فكرة أن الأستاذ والمربي من فضل الله عليك ، وهذه الفكرة لم تكن وليدة ذاتها وإنما انبثقت من مقولة : (من لا شيخ له فشيخه الشيطان) فهي من ثمارها ومما تفرع عليها ، وقد انتقل الأصل مع فرعه إلى ظاهرة جمهور العرفاء المتأثرين بالتصوف ؛ ولذا تجدها محكية في أقوالهم ومسطورة في كتاباتهم ، وأخذت تنمو في أوساطهم شيئاً فشيئاً حتى كانت من القطيعات واليقينيات في سماء معرفتهم ومن أمهات أبجدياتهم وعاشوا في ظلال آمالها ، يشمخ بهم الأمل تارة ويخفق بهم اليأس أخرى حتى يقطع بهم سبل التكامل ، ويظنون أن لا تكامل من غير أستاذهم المنشود ، ولم يخطر ببالهم أنها وأصلها من متزعات عالم التصوف.

يقول علي بن وفا (ت: ٨٠٧هـ) الذي يعد من أكابر الصوفية : لا يظفر مرید بأستاذ إلا وذلك المرید مخصوص عند الله تعالى ولولا أنه مخصوص عنده ما جمعه على من يوصله إلى حضرته فسلم لشيخك أيها المرید تسلم وتغنم^(١).

ويقول أيضا :

أستاذك بالنسبة إليك هو فضل الله عليك ورحمته ، فتحققك به خير من جميع ما استفدته منه ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا

(١) الأنوار القدسية، ج ٢، ص ٣٠.

ومن كلماته أيضا في هذا المجال : إن وجدت أستاذك المحقق فقد وجدت حقيقتك ، وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله عندها ، وإذا وجدت الله عندها وجدت كل شيء ، فليس كل المراد إلا في وجد هذا الأستاذ فافهم تغنم^(٣).

من كلمات الصوفية الظريفة في طلب الشيخ

كان الشيخ أبو العباس المرسى يقول : كل من لم يصبر على صحبة شيخه ابتلاه الله بخدمة النساء وموت القلب^(٤).

والشيخ أبو الحجاج الأقسري يقول : من خدم شيخه بلا أدب جره ذلك إلى العطب ، ومن خدمه بالأدب فقد حاز عز الدارين وحصل الأرب^(٥).

كان أبو بكر الوراق يقول : كل مريد لا تغنيه رؤية شيخه عن الطعام والشراب أسبوعا فليس بصادق^(٦).

^(١) (سورة يونس : ٥٨ .

^(٢) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٣٠.

^(٣) (الأنوار القدسية، ج٢، ص١٧.

^(٤) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٣.

^(٥) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٤.

^(٦) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٤.

كان أبو بكر الوراق يقول : إذا أمرك شيخك بالخلوة فاسمع ولا تطالبه بدليل على ذلك^(١).

ويقول عبد القادر الجيلاني : من لم يعتقد في شيخه الكمال لا يفلح على يديه أبدا^(٢).

ويقول علي بن وفا : فكما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها^(٣).

ويقول إبراهيم الدسوقي : المريد الصادق مع شيخه ، كالميت مع مغسله لا كلام ولا حركة ، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيئته ، ولا يدخل ، ولا يخرج ، ولا يخالط أحدا ، ولا يشتغل بعلم ، ولا قرآن ، ولا ذكر إلا بإذنه ، لأنه أمين على المريد فيما يرقيه ، ورب عمل فاصل دخلته النفس فصار مفضولا . ثم يقول : هكذا كانت طريقة الخلف والسلف مع أشياخهم ، فإن الشيخ هو والد السر في اصطلاحهم ويجب على الولد عدم العقوق لوالده وليس للعقوق ضابط يرجع إليه ، إنما الأمر عام في سائر الأحوال ، وما جعلوه إلا كالميت بين يدي الغاسل . فعليك يا ولدي بطاعة والدك المذكور وقدمه في كل أمر لك بأوامر الله على والد الجسم ، فإن والد السر أنفع من والد الجسم ، وذلك لأن

(١) الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٤.

(٢) الأنوار القدسية، ج٢، ص٧.

(٣) الأنوار القدسية، ج٢، ص٧.

والد السر يأخذ الولد كأنه قطعة حديد جامد ، فلا يزال يسكبه ، ويذويه ، ويقطره ، ويلقي عليه من سر الصنعة سرا حتى يجعله ذهباً إبريزاً^(١).

ويقول إبراهيم الدسوقي أيضاً : المريد الصادق مع شيخه كالمت مع مغسله ، لا كلام ولا حركة ، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيئته ، ولا يدخل ولا يخرج ، ولا يخالط أحداً ، ولا يشتغل بعلم ولا قرآن ولا ذكر إلا بإذنه^(٢).

ويقول أبو العباس المرسى : قلوب المريدين تحت ظل قلب الأشياخ ، وقد خاب من لم يكن تحت ظل قلب شيخ^(٣).

ويقول يوسف العجمي : من أدب المريد أن يقف عند كلام شيخه ولا يتأوله ، ليفعل ما أمره به شيخه وإن ظهر أن شيخه أخطأ^(٤).

ويقول محمد أمين الكردي : أن لا يعترض عليه (أي على شيخه) فيما فعله ، ولو كان ظاهره حراماً ، ولا يقول : لم فعل كذا ، لأن من قال لشيخه : لم لا يفlech أبداً . فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن^(٥).

^(١) (الأنوار القدسية، ج٢، ص١٧.

^(٢) (الأنوار القدسية، ج٢، ص١٧.

^(٣) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٢.

^(٤) (الأنوار القدسية، ج٢، ص٨١.

^(٥) (تنوير القلوب، ص٥٢٨.

ويقول علي بن وفا يقول : الزم الأستاذ فإنه يظهر سر الربوبية ، فربما أوحى إليك ربك في حجاب قلب شيخك من طريق الإلهام ، فإن قلبه مظهر سر الربوبية ، فعلى المريد أن يقف عند أمر أستاذه ولا يتعداه ، ولا يلتفت عن أستاذه يمينا ولا شمالا ، إذ ليس المريد من يتوجه بقلبه إليه غير الأستاذ ، وليس من مرتبته صحة التوجه إلى الحق تعالى لجهله به إلا أن يكون مضطرا^(١).

استلهام الروحانيات من قبور العرفاء

إن من سيرة الصوفية وتعاليمهم استلهام الروحانيات من قبور العرفاء ، ومن الواضح إن زيارة قبور العلماء من الأمور السائغة شرعا ، بل من الأمور الراجحة لأنها تندرج ضمن زيارة قبور المسلمين التي ندب إليها الشرع وقد تضافرت النصوص الدينية في مصادر الفريقين تدلل على ذلك ، وكما ورد في بعضها : (تذكركم الآخرة) .

ولكن زيارة قبور العرفاء بالمعنى المتعارف عليه في دائرة العرفاء ، ومن تأثر بهم بقصد استلهام الروحانيات والتخاطر والتجاذب بينهم ، وما إلى ذلك من معانٍ وأفكار تواردت إليهم من الفكر الصوفي ، حيث إن هذه الأفكار تعتبر ضمن أولوياتهم ومما وقع التسالم عليه في أوساطهم عند زيارة قبور مشايخهم

(١) الأنوار القدسية، ج٢، ص٢٨.

ومن ثم انقدحت وبرقت في روحانيات ظاهرة العرفاء في الآونة الأخيرة وأصبحت مما يتعارف عندهم.

وهذه أقوال وأفكار قدماء الصوفية في زيارة قبور مشايخهم وكيف أنهم يأخذون التعاليم والإرشادات منهم كما يقولون :

يقول محمد الكتاني والذي هو من أعلام التصوف في القرن الرابع الهجري : من الشيوخ من ينتفع به مريده الصادق بعد موته أكثر من انتفاعه به حال حياته، وبعضهم سمع نطق شيخه من قبره يأمره وينهاه^(١).

ويقول إبراهيم الدسوقي (ت: ٦٩٦هـ) : إذا صدق المريد مع شيخه وناداه من مسيرة ألف عام أجابه حيا كان الشيخ أو ميتا^(٢).

وله أيضا : إذا صدق المريد مع شيخه ونادى شيخه من مسيرة ألف عام أجابه حيا كان الشيخ أو ميتا ، فليتوجه الصادق بقلبه إلى شيخه في كل أمر دهمه في دار الدنيا ، فإنه يسمع صوت شيخه ويغيثه مما هو فيه ؛ ومهما ورد عليه من مشكلات سره ، يطبق عينيه ، ويفتح عين قلبه ، فإنه يرى شيخه جهارا ، فإذا رآه فليسأله عما شاء وأراد^(٣).

^(١) (الأنوار القدسية، ج ٢، ص ٢٥.

^(٢) (الأنوار القدسية، ج ٢، ص ١٦.

^(٣) (الأنوار القدسية، ج ٢، ص ١٦.

ويقول أبو المواهب الشاذلي (ت: ٨٨١هـ) : من أدب المرید إذا زار شیخا في قبره أن لا یعتقد أنه میت لا یسمعه ، بل الأدب أن یعتقد حیاته البرزخية لینال برکته ، فإن العبد إذا زار ولیا وذكر الله عند قبره ، فلا بد أن ذلك الولي یجلس في قبره ، ویذكر الله معه كما شهدنا ذلك مرارا مع الإمام الشافعي ، ومع ذي النون المصري ، ومع جماعة من مشایخ القرافة ، فإن لم یشهد ذلك فأقل مراتبه الإیمان بحیاتهم المذكورة^(١).

(١) الأنوار القدسية، ج١، ص ٩٨٠

الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق

كثيرا ما يتوهم أن مقولة (الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق) من الأحاديث مع أنها عبارة صوفية انتشرت وذاع صيتها في أقدم وأهم مصادرهم وإليك شطرا منها :

يقول أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) : الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق^(١).

ونسب يوسف زيدان في كتاب (فوائح الجمال وفوائح الجلال) - الذي يتحدث فيه عن حياة نجم الدين كبرى (ت: ٦١٨هـ) - هذه العبارة إلى نجم الدين كبرى حيث يقول : قال الشيخ الإمام الأجل الزاهد العابد البارع الورع الفاضل الكامل سلطان الطريقة والحقيقة سيد الشهداء نجم الدين الكبرى قدس الله روحه :الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق^(٢).

ويقول ابن عربي (ت: ٦٣٨هـ) : إن كان لكل شخص طريق تخصه فإن الطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق يعني أن كل نفس طريق إلى الله^(٣).

ويقول أيضا : هذا الصراط الذي تكلمنا فيه هو الذي يقول فيه أهل الله إن

(١) مجموعة رسائل الغزالي، ص ٩٨.

(٢) فوائح الجمال وفوائح الجلال، ص ٩٠.

(٣) الفتوحات المكية، ج ٢، ص ٣١٧.

الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق^(١).

ويقول عبد الله بن محمد بن شاهاور الرازي (ت: ٦٥٤هـ) : قال بعض المشايخ:
الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلق^(٢).

ويقول جلال الدين الرومي (ت: ٦٧٢هـ) الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس بني
آدم^(٣).

ويقول إبراهيم الدسوقي (ت: ٦٧٦هـ) : الطريق عدد أنفاس الخلائق^(٤).

ويقول عفيف الدين التلمساني (ت: ٦٩٠هـ) : أحوال السالكين تختلف في مدة
السلوك إلى أن ينقضي اختلافا كثيرا وتكون واردات السالك مختلفة بحسب
اختلاف أحواله ولذلك قيل إن الطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق
فللسالك الواحد في كل نفس طريق خاص بذلك النفس هذا في السالك
الواحد فما ظنك بالخال في اختلاف السالكين من سائر طوائف أهل
الأرض^(٥).

^(١) (الفتوحات المكية، ج ٣، ص ٤١١.

^(٢) (منارات السائرين، ٢٣٠.

^(٣) (المشنوي المعنوي، ص ٥٥٢.

^(٤) (الجوهر المضيئة، ج ١، ص ٧٥.

^(٥) (شرح مواقف النفري، ص ٢٩٠.

ويقول عبد الرحمن الأنصاري الأسدي المعروف بابن دباغ (ت: ٦٩٩هـ) :
الطرق إلى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق كثرة^(١).

ويقول عبد الرزاق الكاشاني (٧٣٠هـ) عند شرحه لفصوص ابن عربي : فصح
قولهم الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق وبعدد الأنفاس الإلهية^(٢).

ويقول الكاشاني أيضا عند شرحه على منازل السائرين لعبد الله الأنصاري :
الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق وأنفاسها لا تتناهى إلا بتناهيهم^(٣).

ويقول داوود القيصري (ت: ٧٥١هـ) ولهذا قيل : الطرق إلى الله بعدد أنفاس
الخلائق^(٤).

ويقول محمد السلماني (ت: ٧٧٦هـ) : الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق^(٥).

ونسب إبراهيم الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) عبارة شبيهة لها للجوزجاني حيث
يقول: قال أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني من علامات السعادة على العبد
تيسير الطاعة عليه وموافقة السنة في أفعاله وصحبته لأهل الصلاح وحسن
أخلاقه مع الأخوان وبذل معروفه للخلق واهتمامه للمسلمين ومراعاته لأوقاته

(١) مشارق أنوار القلوب، ص ١١٣.

(٢) شرح فصوص الحكم، ص ١٥٠.

(٣) شرح منازل السائرين، ص ٢٣٠.

(٤) شرح فصوص الحكم، ص ٢٩٦.

(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٢٥٧.

وسئل كيف الطريق إلى الله فقال الطرق إلى الله كثيرة وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه إتباع السنة قولاً وفعلاً وعزماً وعقداً ونية^(١).

ويقول عبد الكريم الجيلي (ت: ٨٣٢هـ) : اعلم رحمك الله تعالى أن الطائفة تقول الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق^(٢).

ويقول الجيلي أيضاً : اعلّموا إخواني أوصلنا الله وإياكم إليه ، ودلنا جميعاً به عليه أن الطريق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق للعوام ، وليس إلا طريقة واحدة لخواصه الكرام^(٣).

ويقول نعمة الله بن محمود النخجواني (ت: ٩٢٠هـ) : لا يخفى على السالكين المتدرجين في مسالك التحقيق المتعطشين بزالال التوحيد أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق إذ ما من ذرة من ذرائر العالم إلا وله طريق منها وأقوم الطرق وأحسنها وأوضح السبل وأبينها هو الذي اختاره الله سبحانه لحبيبه ﷺ ولورثته من الأولياء زاد الله فتوحهم^(٤).

ويقول أحمد طاشكبري زاده (ت: ٩٦٨هـ) في رسالة ذكرها : اعلم أن حصول المقصود إنما يكون بالتوحيد والفناء وهو إنما يكون بكلمة التوحيد لأن السالك لم يصل إلى الفناء والبقاء إلا برفع الحجب فبالنفي ترفع الحجب وبالإثبات

(١) الاعتصام، ص ٥٩.

(٢) الإسفار عن رسالة الأنوار، ص ١٤٢.

(٣) قاب قوسين وملتقى الناموسين في معرفة سيد الكونين، ص ٣١.

(٤) الفوائح الإلهية والمفاتيح الغيبية، ص ١٩.

يثبت الحق لأن التنزيه شأن السالك على الوجه الخاص وهو طريق المعراج كما صرح به الشيخ الأكبر في كتبه وأما قولهم الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق فمعناه أن سلوك كل أحد إنما يكون بحسب استعدادة وقابليته كما يشعر به قولهم بعدد أنفاس الخلائق^(١).

وعبد الوهاب الشعراني (ت: ٩٧٣هـ) له عبارة مشابهة لها إذ يقول : كل ما ابتدئ على طريق القربة إلى الله فهو من الشريعة والسنة الظاهرة^(٢).

ويقول محمد المناوي (ت: ١٠٣١هـ) : لذلك قالوا : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق^(٣).

ويقول أحمد التلمساني (ت: ١٠٤١هـ) : الطرق إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق^(٤).

ويقول إسماعيل حقي (ت: ١١٢٧هـ) : الطرق إلى الله كثيرة^(٥).

ويقول محمد السمنودي (ت: ١١٩٩هـ) : قال ابن عطاء الله : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم ولا يدري تلك الأمور إلا من سار في طريقة الأفراد وصاحبهم وكشف له عن سر حقيقتهم واستظل بظل ركبهم وترقى

^(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص ٤٧٣.

^(٢) الأنوار القدسية، ج ١، ص ١٢٣.

^(٣) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ج ٣، ص ١٦٩.

^(٤) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٨، ص ٢٠.

^(٥) تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ٢٧٢.

بالصدق والعشق في جبههم فأدركوه المدارك وسلكوه المسالك لأن الطرائق عدد أنفاس الخلائق^(١).

ويقول مصطفى العروسي (ت: ١٢٩٣هـ) في شرحه على شرح الرسالة القشيرية: الطرائق على قدر أنفاس الخلائق^(٢).

ولكن السيد حيدر الأملي (من علماء القرن الثامن الهجري) نسبها في كتبه للنبي ﷺ مع أنه في كل كتبه لم يذكر المصدر ولم يذكر السند أيضا اشتباها منه، لأن علماء الشيعة والعامة على حد سواء ومن تقدم عليه وتأخر عبروا عنها بالقليل ولم ينسبوها للرسول ﷺ ، وبعضهم نسبها للحكماء والعرفاء كاملا هادي السبزواري حيث يقول : وقد قال الحكماء والعرفاء الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق^(٣).

وبعضهم نسبها لابن عطاء ، وبعضهم نسبها إلى نجم الدين كبرى ، ونُسبت إلى غير هؤلاء كما تقدم أنفا.

وسبب الاشتباه الذي حصل للسيد حيدر الأملي أن هذه العبارة جاءت في كلمات ابن عربي التي انهمك فيها ، وكانت من مصادر المعرفة الأساسية بالنسبة إليه.

(١) تحفة السالكين ودلائل السائرين، ص ٩٣.

(٢) نتائج الأفكار، ج ٣، ص ٣٨٦.

(٣) شرح الأسماء الحسنی، ص ٢٤٥.

نعم رأيت كتابين كتباً في العصور المتأخرة ضمن الأوساط الشيعية أيضاً نسباً العبارة للنبي ﷺ من غير ذكر المصدر والسند على طريقة الآملي ولا يبعد أنهما اعتمدا عليه في تلك النسبة.

وبسبب هذه المقولة وغيرها من البدع كان لكل شيخ طريقة ومنهج للتربية وذكر مخصوص ؛ ولذا كان التصوف يتضمن الكثير من المعتقدات والطرق حسب زعمهم ، وكلها تحت مسمى السلوك والعرفان!!

ولكن لماذا الصوفية اختلقت مقولة (الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق) في نظر السيد شهاب الدين المرعشي ﷺ ؟!

يقول السيد المرعشي ﷺ : خلاصة الكلام أنه آل أمر الصوفية إلى حد صرفوا المحصلين عن العلم بقولهم : إن العلم حجاب وأن بنظرة من القطب الكامل يصير الشقي سعيداً بل ولماً وبنفحة في وجه المسترشد والمريد أو تقلة في فمه تطيعه الأفاعي والعقارب الضارية وتحل تحت أمره قوانين الطبيعة ونواميس نشأة الكون والفساد ، وأن الولاية مقام لا ينافيها ارتكاب الكبائر بل الكفر والزندقة معللين بأنه لا محرم ولا واجب بعد الوصول والشهود ، ثم إن شيوع التصوف وبناء الخانقاهات كان في القرن الرابع حيث إن بعض المرشدين من أهل ذلك القرن لما رأوا تفنن المتكلمين في العقائد ، فاقتبسوا من فلسفة فيثاغورس وتابعيه في الإلهيات قواعد وانتزعوا من لاهوتيات أهل الكتاب والوثنيين جملاً وألبسوها لباساً إسلامياً فجعلوها علماً مخصوصاً ميزوه باسم

علم التصوف أو الحقيقة أو الباطن أو الفقر أو الفناء أو الكشف والشهود وألفوا وصنفوا في ذلك كتباً ورسائل وكان الأمر كذلك إلى أن حل القرن الخامس وما يليه من القرون فقام بعض الدهاة في التصوف فرأوا مجالا ورحبا وسيعا لأن يحوزوا بين الجهال مقاما شامخا كمقام النبوة بل الألوهية باسم الولاية والغوثية والقطبية بدعوى التصرف في الملكوت بالقوة القدسية فكيف بالناسوت فوسعوا فلسفة التصوف بمقالات مبنية على مزخرف التأويلات والكشف الخيالي والأحلام والأوهام ، ألفوا الكتب المتظافرة الكثيرة ككتاب التعرف ، والدلالة ، والفصوص ، وشروحه ، والنفحات ، والرشحات ، والمكاشفات ، والإنسان الكامل ، والعوارف ، والمعارف ، والتأويلات ونحوها من الزبر والأسفار المحشوة بحكايات مكذوبة ، وقضايا لا مفهوم لها البتة ، حتى ولا في مخيلة قائلها كما أن قارئها أو سامعها لا يتصورون لها معنى مطلقا وإن كان بعضهم يتظاهر بحالة الفهم ويقول بأن للقوم اصطلاحات لا تدرك إلا بالذوق الذي لا يعرفه إلا من شرب من شرابهم وسكر من دنهم وراحهم فلما راج متاعهم وذاع ذكرهم وراق سوقهم تشعبوا فرقا وشعوبا وأغفلوا العوام والسفلة بالحديث الموضوع المفتري (الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق) وجعل كل فرقة منهم لتمييزها عن غيرها علائم ومميزات بعد اشتراك الجميع في قتل الشوارب وأخذ الوجهة والتجمع في حلقات الأذكار عاملهم الله وجزاهم بما فعلوا في الإسلام . وأعتذر من إخواني الناظرين عن إطالة الكلام حيث إنها نفثة مصدور وتنفس سعداء وشقشقة هدرت غصص وآلام وأحزان بدرت ، عصمنا الله وإياكم من تسويلات نسجة العرفان وحيكة

الفلسفة والتصوف وجعلنا وإياكم ممن أناخ المطية بأبواب أهل بيت رسول الله
ﷺ ولم يعرف سواهم أمين أمين^(١).

(١) شرح إحقاق الحق، ج ١، ص ٣٩٩.

الخاتمة

ختامها أرفع من المسك في أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تدم الصوفية وتحذر منهم ، وفي الحقيقة هذه الأحاديث لم تقتصر على الطعن والتحذير ، وإنما تبين وتكشف عن حقيقة الصوفية ، وعن الزلل الذي وقعوا فيه ، وأيضا تكشف عن مكامن الزلل فيمن اتبعهم من الشيعة كالحديث الذي جاء فيه : (ويأولون أقوالهم)^(١) ، ومن ضمنها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تقوم الساعة على أمتي حتى يخرج قوم من أمتي اسمهم صوفية ليسوا مني وإنهم يهود أمتي يخلقون للذكر ، ويرفعون أصواتهم بالذكر يظنون أنهم على طريق الأبرار بل هم أضل من الكفار وهم أهل النار لهم شهقة كشهقة الحمار وقولهم قول الأبرار وعملهم عمل الفجار وهم منازعون للعلماء ليس لهم إيمان وهم معجبون بأعمالهم ليس لهم من عملهم إلا التعب^(٢).

وعنه صلى الله عليه وآله : يا أبا ذر يكون في آخر الزمان قوم يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم يرون أن لهم الفضل بذلك على غيرهم ، أولئك يلعنهم ملائكة السماوات والأرض^(٣).

(١) يأتي الخبر لاحقا .

(٢) الاثنا عشرية ص ٤٣ ، عن كشكول الشيخ البهائي .

(٣) أمالي الطوسي ، ص ٥٦٩ .

وروي بسند صحيح عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال : قال رجل من أصحابنا للصادق جعفر بن محمد عليه السلام قد ظهر في هذا الزمان قوم يقال لهم الصوفية فما تقول فيهم ؟ فقال عليه السلام : إنهم من أعدائنا فمن مال إليهم فهو منهم ، وسوف يحشر معهم ، وسيكون أقوام يدعون حبا ، ويميلون إليهم ويتشبهون بهم ، ويلقبون أنفسهم بلقبهم ويولون أقوالهم ، ألا فمن مال إليهم فليس منا وإنا منه براء ، ومن أنكرهم ورد عليهم كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(١).

وروي أيضا باختلاف يسير : قال رجل للإمام الصادق عليه السلام قد خرج في هذا الزمان قوم يقال لهم الصوفية فما تقول فيهم ؟ فقال عليه السلام : إنهم أعداؤنا فمن مال إليهم فهو منهم ويحشر معهم وسيكون أقوام يدعون حبا ويميلون إليهم ويتشبهون بهم ويلقبون أنفسهم بلقبهم ويأولون أقوالهم ألا فمن مال إليهم فليس منا وإنا منه براء ومن أنكرهم ورد عليهم كان كمن جاهد الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(٢).

وعن الشيخ المفيد رحمته الله في كتاب الرد على أصحاب الحلاج عن أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه ، عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد أنه قال سألت أبا الحسن (أي الإمام الرضا)

^(١) إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، ج ٤، ص ٢٠٢.

^(٢) الاثنا عشرية، ص ٤١ ، نقلا عن حديقة الشيعة.

عليه السلام عن الصوفية فقال : لا يقول بالتصوف أحد إلا لخدعة أو ضلالة أو حماقة^(١).

وعنه عليه السلام أنه قال : من ذكر عنده الصوفية ولم ينكرهم بلسانه أو قلبه فليس منا ومن أنكرهم فكأنما جاهد الكفار بين يدي رسول الله ﷺ^(٢).

ونقل الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب أنه قال : كنت مع الهادي علي بن محمد عليه السلام في مسجد النبي ﷺ فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري كان رجلا بليغا وكانت له منزلة عنده عليه السلام ثم دخل المسجد جماعة من الصوفية وجلسوا في ناحية مستديرا وأخذوا بالتهليل فقال عليه السلام لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخداعين فإنهم خلفاء الشيطان ومخربوا قواعد الدين يتزهدون لراحة الأجسام ويتهجدون لصيد الأنعام يتجوعون عمرا حتى يدينخوا للإيكاف حمرا^(٣) لا

(١) الاثنا عشرية، ص ٤٠.

(٢) الاثنا عشرية، ص ٤٠ ، نقلا عن حديقة الشيعة.

(٣) داخ يديخ دينا وديخه هو : ذلله . لسان العرب، ج ٣، ص ١٦.

الإكاف والأكاف من المراكب شبه الرحال والأقتاب وزعم يعقوب أن همزته بدل من واو وكاف وو كاف والجمع أكفة وأكف كإزار وأزره وأكاف الحمار وإكافه وو كافه وو كافه والجمع أكف وقيل في جمعه وكف وأنشد في الأكاف لراجز إن لنا أحمره عجافا يأكلن كل ليلة أكافا أي يأكلن ثمن أكاف أي يباع أكاف ويُطعمه بثمنه ومثله نطعمها إذا شئت أولادها أي ثمن أولادها ومنه المثل تجوع الحرة ولا تأكل ثديها أي أجرة ثديها وأكف الدابة وضع عليها الإكاف كأوكفها أي شد عليها الإكاف . لسان العرب، ج ٩، ص ٨.

يهللون إلا لغرور الناس ولا يقللون الغذاء إلا ملأ العساس^(١) واختلاس قلوب
الدفناس^(٢) ، يكلمون الناس باملائهم في الحب ويطرحون بإذلالهم في
الجب^(٣) أورادهم الرقص والتصدية^(٤) ، وأذكارهم الترنم والتغنية فلا يتبعهم
إلا السفهاء ولا يعتقدهم إلا الحمقى فمن ذهب إلى زيارة أحدهم حيا وميتا
فكأنما ذهب إلى زيارة الشيطان وعبادة الأوثان^(٥) ومن أعان أحدا منهم فكأنما
أعان يزيد ومعاوية وأبا سفيان . فقال له رجل من أصحابه وإن كان معترفا
بحقوقكم ؟ قال فنظر إليه شبه المغضب وقال دع ذا عنك من اعترف بحقوقنا لم
يذهب في عقوقنا أما تدري أنهم أخس طوائف الصوفية والصوفية كلهم

ويقول أبو الفيض الزبيدي : الإكاف . قال شيخنا : ظاهره أن الإكاف يكون للإبل ويأتي له
في أكف أنه خاص بالحمر وهو الذي في أكثر الدواوين كما سيأتي هناك وبالتحريك أكثر في
الاستعمال . وفي النهاية في حديث عائشة لا تمنع المرأة نفسها من زوجها وإن كانت على
ظهر قتب . القتب للجمل كالإكاف لغيره . ومعناه الحث لهن على مطاوعة أزواجهن وأنه لا
يسعهن الامتناع في هذه الحال فكيف في غيرها . وقيل : إن نساء العرب كن إذا أردن الولادة
جلسن على قتب ويقلن إنه أسلس لخروج الولد فأرادت تلك الحالة . قال أبو عبيد : كن
نرى أن المعنى : وهي تسير على ظهر البعير فجاء التفسير بعد ذلك القتب للبعير كما في
المصباح والمحكم . والإكاف للحمير . وفي الخلاصة أنه عام في الحمير والبغال والإبل . تاج
العروس ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

(١) العس : القدح الضخم . العين ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢) الدفّس : الأحمق الدنيء وفي بعض الأصول : البذي كالدفناس . تاج
العروس ، ج ٨ ، ص ٢٨٨ .

(٣) كناية عن إيقاعهم في الضلال .

(٤) التصدية : التصفيق والصوت . لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

(٥) الوثن : الصنم ، والجمع وثن . الصحاح في اللغة ، ج ٦ ، ص ٢٢١٢ .

مخالفونا وطريقتهم مغايرة لطريقتنا وإن هم إلا نصارى أو مجوس هذه الأمة أولئك الذين يجهدون في إطفاء نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون^(١).

وروي مسندا عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه خاطب أبا هاشم الجعفري فقال : يا أبا هاشم سيأتي زمان على الناس وجوههم ضاحكة مستبشرة وقلوبهم مظلمة منكدرة ، السنة فيهم بدعة والبدعة فيهم سنة ، المؤمن بينهم محقر والفساق بينهم موقر ، أمراؤهم جاهلون جائرون وعلماؤهم في أبواب الظلمة سائرون ، أغنياؤهم يسرقون زاد الفقراء وأصاغرهم يتقدمون على الكبراء ، كل جاهل عندهم خبير وكل محيل^(٢) عندهم فقير ، لا يميزون بين المخلص والمرتاب ولا يعرفون الضأن من الذئب ، علماؤهم شرار خلق الله على وجه الأرض لأنهم يميلون إلى الفلسفة والتصوف ، وايم الله إنهم من أهل العدول والتحرف ، يبالغون في حب مخالفينا ويضلون شيعتنا ومواليينا ، فإن نالوا منصبا لم يشبعوا من الرشاء ، وإن خذلوا عبدوا الله على الرياء ، ألا إنهم قطاع طريق المؤمنين والدعاة إلى نحلة الملحد^(٣)ين ، فمن أدركهم

(١) (الاثنا عشرية، ص ٣٧ نقلا عن حديقة الشيعة.

(٢) قد يكون المراد بالمحيل : هو المخادع والكذاب .

(٣) كما كان إلحاد ابن أبي العوجاء بسبب الحسن البصري ، انظر عنوان : (إلحاد ابن أبي العوجاء بسبب الحسن البصري)

فليحذرهم وليصن دينه وإيمانه . ثم قال : يا أبا هاشم هذا ما حدثني أبي عن آبائه عن جعفر بن محمد عليه السلام وهو من أسرارنا فاكتمه إلا عن أهله^(١).

ومن مواظب النبي عيسى عليه السلام : ما أكثر العلماء وليس كلهم ينتفع بما علم وما أوسع الأرض وليس كلها تسكن . وما أكثر المتكلمين وليس كل كلامهم يصدق ، فاحتفظوا من العلماء الكذبة الذين عليهم ثياب الصوف منكسي رؤوسهم إلى الأرض يزورون به الخطايا يرمقون من تحت حواجبهم كما ترمق الذئاب وقولهم يخالف فعلهم ، وهل يجتني من العوسج^(٢) العنب ومن الحنظل التين ، وكذلك لا يؤثر قول العالم الكاذب إلا زورا وليس كل من يقول يصدق^(٣).

والشيخ الكليني رحمته الله عقد في الكافي بابا تحت عنوان (دخول الصوفية على أبي عبد الله عليه السلام واحتجاجهم عليه فيما ينهون الناس عنه من طلب الرزق) أورد فيه رد الإمام عليه السلام عليهم وتوبيخه لهم.

(١) حديقة الشيعة، ص ٥٩٢.

(٢) العوسج : شجر كثير الشوك معروف ، وهي ضروب منها ما يثمر ثمرا أحمر يقال له المصع. تهذيب اللغة، ج ١، ص ١٠٠.

ويقول العلامة الطريحي رحمته الله : العوسج : فوعل من شجر الشوك له ثمر مدور فإذا عظم فهو الغرقد ، الواحدة عوسجة. مجمع البحرين، ج ٢، ص ٣١٨.

(٣) تحف العقول، ص ٥٠٣.

المصادر

- ١- التمهيد في علوم القرآن : محمد هادي معرفة .
- ٢- التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي .
- ٣- الأصول الستة عشر : ما جمعه نخبة من الرواة عن الأئمة عليهم السلام
- ٤- الإهليجة : ما رواه المفضل بن عمر الجعفي عن الإمام الصادق عليه السلام
- ٥- المحاسن : أحمد بن محمد بن محمد بن البرقي .
- ٦- الكافي : محمد بن إسحاق الكليني .
- ٧- الخصال : محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق .
- ٨- الأمالي : محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق .
- ٩- الأمالي : محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي .
- ١٠- أمالي المرتضى : علي بن الحسين المعروف بالسيد المرتضى .
- ١١- الاعتقادات : محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق .
- ١٢- أوائل المقالات : محمد بن محمد المعروف بالشيخ المفيد.

١٣- اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) : محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي .

١٤- الغيبة : محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي .

١٥- الاحتجاج : أحمد بن علي الطبرسي .

١٦- الوافي : محمد محسن بن مرتضى المعروف بالفيز الكاشاني .

١٧- الخرائج والجرائح : سعيد بن عبد الله المعروف بقطب الدين الراوندي .

١٨- الغدير : عبد الحسين بن أحمد المعروف بالعلامة الأميني .

١٩- أعيان الشيعة : محسن الأمين بن عبد الكريم العاملي .

٢٠- إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات : محمد بن الحسن المعروف بالحر العاملي .

٢١- الاثنا عشرية : محمد بن الحسن المعروف بالحر العاملي .

٢٢- المسترشد في إمامة أمير المؤمنين : محمد بن جرير الطبري .

٢٣- التعليق على بحار الأنوار : السيد عبد الأعلى السبزواري .

٢٤- الذريعة إلى تصانيف الشيعة : محمد محسن بن علي الطهراني .

٢٥- أحلام اليقظة : الشيخ محمد رضا المظفر .

٢٦ - أوصاف الأشراف : محمد بن محمد بن الحسن المعروف بالخواجة نصير الدين الطوسي .

٢٧ - الإتيان في علوم القرآن : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .

٢٨ - المستدرک على الصحيحين : محمد بن عبد الله النيسابوري .

٢٩ - الوافي بالوفيات : خليل بن أيك بن عبد الله الصفدي .

٣٠ - الفهرست : محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم .

٣١ - أسد الغابة : علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير .

٣٢ - الطواسين : الحسين بن منصور الحلاج .

٣٣ - أخبار الحلاج : علي بن أنجب الساعي .

٣٤ - المثوي المعنوي : محمد بن محمد المعروف بجلال الدين الرومي .

٣٥ - الطبقات الكبرى : (لوائح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية) : عبد الوهاب بن أحمد الشعراني .

٣٦ - اللمع في التصوف : عبد الله بن علي السراج .

٣٧ - التعرف لمذهب أهل التصوف : محمد بن إسحاق الكلاباذي .

٣٨ - الفخري في الآداب السلطانية : محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي .

٣٩ - الإحاطة في أخبار غرناطة : محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماي.

٤٠ - الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية : نعمة الله بن محمود النخجواني .

٤١ - الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية : أحمد بن مصطفى بن خليل طاشكبري زاده .

٤٢ - الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية : محمد المدعو عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي .

٤٣ - الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل : عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي .

٤٤ - الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية : عبد الوهاب بن أحمد الشعراني .

٤٥ - الجواهر المضيئة : عبد القادر بن محمد بن محمد القرشي .

٤٦ - الحكمة المتعالية : محمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بملا صدرا.

٤٧ - المبدأ والمعاد : محمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بملا صدرا.

٤٨ - أفلوطين عند العرب : عبد الرحمن بدوي .

٤٩ - المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى : محمد بن محمد الغزالي .

- ٥٠- إحياء علوم الدين : محمد بن محمد الغزالي .
- ٥١- المنقذ من الضلال : محمد بن محمد الغزالي
- ٥٢ - المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء : محمد محسن بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني .
- ٥٣- الفتوحات المكية : محمد بن علي المعروف بابن عربي .
- ٥٤- الرسالة القشيرية : عبد الكريم بن هوازن القشيري .
- ٥٥- الإشارات والتنبيهات : حسين بن عبد الله بن سينا .
- ٥٦- الكلام والعرفان : مرتضى بن محمد حسين المطهري .
- ٥٧- العرفان : مرتضى بن محمد حسين المطهري .
- ٥٨- الحماسة والعرفان : عبد الله الجوادى الآملى .
- ٥٩- الروح المجرد : محمد الحسين الحسيني الطهراني .
- ٦٠- الملل والنحل : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني .
- ٦١- الفيوضات الربانية : إسماعيل بن محمد بن سعيد القادري .
- ٦٢- الإسفار عن رسالة الأنوار : عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي .
- ٦٣- الموسوعة الصوفية : سليمان المدني .

- ٦٤ - الموسوعة العربية العالمية : مجموعة من المؤلفين والباحثين .
- ٦٥ - اصطلاحات الصوفية : عبد الرزاق بن أحمد الكاشاني .
- ٦٦ - المعجم الفلسفي : جميل صليبا .
- ٦٧ - أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : أنيس المقدسي .
- ٦٨ - العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي .
- ٦٩ - الصحاح : إسماعيل بن حماد الجوهري .
- ٧٠ - المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار .
- ٧١ - بصائر الدرجات : محمد بن الحسن الصفار .
- ٧٢ - بحار الأنوار : محمد باقر بن محمد تقي المعروف بالعلامة المجلسي
- ٧٣ - بد العارف : عبد الحق بن سبعين .
- ٧٤ - تفسير العياشي : محمد بن مسعود بن عياش المعروف بالعياشي .
- ٧٥ - تفسير القمي : علي بن إبراهيم القمي .
- ٧٦ - تفسير الصافي : محمد محسن بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني .
- ٧٧ - تفسير ملا صدرا : محمد بن إبراهيم الشيرازي المعروف بملا صدرا .

- ٧٨ - تفسير الميزان : محمد حسين بن محمد الطباطبائي .
- ٧٩ - تفسير روح المعاني : محمود بن عبد الله الألوسي .
- ٨٠ - تفسير الرازي : محمد بن عمر الرازي .
- ٨١ - توحيد الصدوق : محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق .
- ٨٢ - تصحيح اعتقادات الإمامية : محمد بن محمد المعروف بالشيخ المفيد .
- ٨٣ - تحف العقول : الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني .
- ٨٤ - تهذيب الكمال : جمال الدين بن الزكي المزني .
- ٨٥ - تاريخ بغداد : أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي .
- ٨٦ - تاريخ دمشق : علي بن الحسن المعروف بابن عساكر .
- ٨٧ - تبين كذب المفترى : علي بن الحسن المعروف بابن عساكر .
- ٨٨ - تاريخ الإسلام : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي .
- ٨٩ - تلبيس إبليس : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي .
- ٩٠ - تمهيد القواعد : علي بن محمد التركة .
- ٩١ - تنوير القلوب : محمد أمين الإربلي .
- ٩٢ - تنمة صوان الحكمة : علي بن زيد البيهقي المعروف بابن فندمه .

٩٣ - تلخيص المحصل : محمد بن محمد بن الحسن المعروف بالخواجة نصير الدين الطوسي .

٩٤ - تحقيق ما للهند من مقولة : محمد بن أحمد البيروني .

٩٥ - تاريخ التصوف الإسلامي : عبد الرحمن بدوي .

٩٦ - تحفة السالكين ودلائل السائرين : محمد بن حسن بن محمد السمنودي .

٩٧ - جامع الأسرار ومنبع الأنوار : حيدر بن علي بن حيدر الآملي .

٩٨ - حياة الحيوان : محمد بن موسى الدميري .

٩٩ - حلية الأولياء : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني .

١٠٠ - حريم القدس : محمد محسن الطهراني .

١٠١ - خلاصة الأقوال : الحسن بن يوسف بن علي المعروف بالعلامة الحلبي .

١٠٢ - دلائل الإمامة : محمد بن جرير بن رستم الطبري .

١٠٣ - ديوان الحلاج : الحسين بن منصور الحلاج .

١٠٤ - رجال النجاشي : أحمد بن علي النجاشي .

١٠٥ - رياض العلماء : عبد الله بن عيسى الأفندي .

١٠٦ - روضات الجنات : محمد باقر الموسوي الخوانساري .

- ١٠٧- رسائل ابن عربي : محمد بن علي المعروف بابن عربي .
- ١٠٨- رسائل سبعة : محمد حسين بن محمد الطباطبائي .
- ١٠٩- سفينة البحار : الشيخ عباس بن محمد رضا القمي .
- ١١٠- سرح العيون في شرح العيون : حسن زاده الآملي .
- ١١١- سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي .
- ١١٢- سير أعلام النبلاء : محمد بن أحمد الذهبي .
- ١١٣- شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن هبة المعروف بابن أبي الحديد المعتزلي .
- ١١٤- شرح أصول الكافي : محمد صالح بن أحمد المازندراني .
- ١١٥- شرح الأسماء الحسنى : هادي بن مهدي السبزواري .
- ١١٦- شرح دعاء الصباح : هادي بن مهدي السبزواري .
- ١١٧- شرح البداية في علم الدراية : زين الدين بن علي العاملي المعروف بالشهيد الثاني .
- ١١٨- شرح إحقاق الحق: شهاب الدين محمد حسين بن محمود المرعشي النجفي .
- ١١٩- شذرات الذهب : عبد الحي بن أحمد العكري .
- ١٢٠- شرح حكمة الإشراف : محمد بن محمود الشهرزوري .

- ١٢١- شرح منازل السائرين : عبد الرزاق بن أحمد الكاشاني .
- ١٢٢- شرح مواقف النفري : سليمان بن علي التلمساني .
- ١٢٣- صفات الشيعة: محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق.
- ١٢٤- صراط النجاة : استفتاءات للسيد الخوئي مع تعليق وملحق للشيخ جواد التبريزي .
- ١٢٥- طبقات الصوفية : محمد بن الحسين السلمي .
- ١٢٦- طبقات الشافعيين : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي .
- ١٢٧- طرائق الحقائق : محمد معصوم علي الشاة نعمة اللاهي .
- ١٢٨- علل الشرائع : محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق.
- ١٢٩- عيون الأخبار : محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق .
- ١٣٠- عين الحياة : محمد باقر بن محمد تقي المعروف بالعلامة المجلسي .
- ١٣١- عوالي اللئالي : محمد بن زين الدين الأحسائي .
- ١٣٢- عقائد الإسلام : محمد تقي بن مقصود علي الأصبهاني المشهور بالمجلسي الأول.
- ١٣٣- عوارف المعارف : عمر بن محمد السهروردي .

١٣٤ - غرر الحكم ودرر الكلم : ما جمعه عبد الواحد الآمدي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

١٣٥ - فرائد الأصول : مرتضى بن محمد المعروف بالشيخ الأنصاري .

١٣٦ - فلسفة السهروردي (فارسي) : غلام حسين إبراهيمي ديناني .

١٣٧ - فصوص الحكم : محمد بن علي المعروف بابن عربي .

١٣٨ - في التصوف الإسلامي وتاريخه : رينولد ألين نيكلسون .

١٣٩ - فوائج الجمال وفوائح الجلال : أحمد بن عمر الخوارزمي .

١٤٠ - قوت القلوب : محمد بن علي بن عطية المكي .

١٤١ - قلادة الجواهر : محمد بن حسن الرفاعي .

١٤٢ - قاب قوسين وملتقى الناموسين : عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي .

١٤٣ - كامل الزيارات : جعفر بن محمد بن قولويه .

١٤٤ - كشف المحجوب : علي بن عثمان الهجویری .

١٤٥ - لسان العرب : محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري .

١٤٦ - لوامع البيان شرح أسماء الله تعالى والصفات : محمد بن عمر الرازي .

١٤٧ - مجمع البيان : علي الفضل بن الحسن الطبرسي .

- ١٤٨- مواهب الرحمن : السيد عبد الأعلى السبزواري .
- ١٤٩- من لا يحضره الفقيه : محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق.
- ١٥٠- مناقب آل أبي طالب : محمد بن علي ابن شهر آشوب .
- ١٥١- مستدرک الوسائل : حسين بن محمد تقي المعروف بالمحدث النوري .
- ١٥٢- مستدرک سفينة البحار : علي بن محمد النمازي الشاهرودي .
- ١٥٣- مرآة العقول : محمد باقر بن محمد تقي المعروف بالعلامة المجلسي .
- ١٥٤- مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة : جواد بن محمد العاملي .
- ١٥٥- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : حبيب الله محمد بن هاشم الخوئي .
- ١٥٦- مجمع الرسائل : تقارير أبحاث السيد الخوئي .
- ١٥٧- مجموعة مقالات : محمد حسين بن محمد الطباطبائي .
- ١٥٨- مقالات تأسيسية : محمد حسين بن محمد الطباطبائي .
- ١٥٩- منارات السائرین : عبد الله بن محمد بن شاهاور الرازي .
- ١٦٠- مسند أحمد : أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .
- ١٦١- مروج الذهب : علي بن الحسين المسعودي .

١٦٢ - مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم : داود بن محمود القيصري .

١٦٣ - ممد الهمم در شرح فصوص الحكم : حسن زاده الآملي .

١٦٤ - محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار : محمد بن علي المعروف بابن عربي .

١٦٥ - مقارنة الأديان : أحمد بن جاب الله شلبي :

١٦٦ - نهج البلاغة : ما جمعه محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

١٦٧ - نص النصوص : حيدر بن علي بن حيدر الآملي .

١٦٨ - نفحات الأنس : عبد الرحمن بن أحمد الجامي .

١٦٩ - نتائج الأفكار : مصطفى بن محمد العروسي .

١٧٠ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد التلمساني .

١٧١ - وفيات الأعيان : أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان .

الفهرست

المقدمة	٣
معنى العرفان والتصوف	٧
تحقق المكاشفات في نظر العرفاء أو الصوفية	١٠
معنى المكاشفات	١٥
المكاشفات الشيطانية	٢٢
المكاشفات الرحمانية في النصوص الدينية	٢٤
العرفان والتصوف والعرفاء والصوفية حقيقة واحدة	٣٢
أصل التصوف وأصوله عند العامة	٣٨
الحسن البصري	٤٠
لقاءات الحسن البصري بالأئمة عليهم السلام وذمهم له	٤٣
مكاشفة شيطانية للحسن البصري بينها أمير المؤمنين عليه السلام	٥١
مساوئ البصري تعدها الصوفية مزايا	٥٦
كلام الحسن البصري يشبه كلام الأنبياء !	٥٧
إلحاد ابن أبي العوجاء بسبب الحسن البصري	٦٠
في ظل الحسن البصري نشأت المعتزلة	٦٢
مالك بن دينار	٦٧
فرقد السبخي	٦٩
أبو هاشم الكوفي	٧١
سفيان الثوري	٧٢
نسبة التصوف إلى التشيع	٨٠
مراحل دخول التصوف إلى التشيع	٨٤

٨٥	 الحلاج
٩٢	 سبب دخول التصوف إلى التشيع على يد الحلاج
١٠٩	 نماذج من حيل ودجل الحلاج
١١٤	 ثلة من عرفاء الشيعة الذين أثنوا على الحلاج
١٢١	 المرحلة الثانية في دخول التصوف للتشيع
١٢٧	 وقفات مع السيد حيدر الآملي
١٢٧	 الشيعة والصوفية في نظر الآملي حقيقة واحدة !
١٣٤	 الحديث الموضوع عند الآملي
١٣٥	 الأوامر الإلهية للآملي !
١٣٦	 فتوحات ابن عربي وفتوحات الآملي
١٣٧	 رسول الله وابن عربي والآملي كل واحد له كتابان !!
١٣٩	 تفسير الآملي
١٤٢	 الله أمر الآملي بشرح الفصوص !
١٤٤	 الله أمر الآملي بإخراج كتبه لخواص عباده !
١٤٥	 ثبوت ولاية الآملي بالمنامات !
١٤٨	 النبوة التشريعية والإنبائية
١٥٠	 لا يمكن شرح معارف الآملي حتى لو صارت البحور السبعة مدادا !
١٥٢	 غلو الصوفية والآملي في ذواتهم
١٥٦	 الحسن البصري ما بين ذم الأنمة عليه السلام وثناء الآملي
١٦٠	 ابن الفارض ما بين نظر السيد عبد الأعلى السبزواري والآملي
١٦٢	 ثناء الآملي العجيب على ابن عربي وفصوصه
١٧١	 ذم الآملي الشديد لمنتقدي الفصوص وصاحبها
١٧٤	 شرح الفصوص علامة الغلو في التصوف

١٧٥	وحدة الوجود عند الآملي.....
١٨١	القسم الثاني من المرحلة الثانية لدخول التصوف إلى التشيع.....
١٨٤	ملا صدرا بين التوفيق والتأسيس.....
١٨٥	كل ما لدى ملا صدرا من ابن عربي.....
١٨٩	تأثر ابن عربي بالحلاج والغزالي.....
١٩١	نماذج من أفكار الحلاج التي تبناها ابن عربي.....
٢١٠	تأثر الغزالي بمن سبقه من الصوفية.....
٢١٢	الغزالي ألبس التصوف لبوس الفقه.....
٢٢٥	متبنيات الصوفية من المعتقدات الهندية والصينية والفارسية.....
٢٤١	(تذييل) الفلسفة اليونانية مستقاة من الفلسفة الهندية.....
٢٤٣	كرامات الصوفية.....
٢٥٢	التوفيق بين التصوف والتشيع ضرب من الوهم والخيال.....
٢٥٥	وقفات مع ملا صدرا.....
٢٥٥	كذب الوقتون في تفسير ملا صدرا.....
٢٥٦	إيمان فرعون ما بين فكر أهل البيت عليه السلام وابن عربي وملا صدرا.....
٢٦٠	عشق المخلوق بين الدين والصوفية.....
٢٦٣	حكيم الإشراق واعتقاده بحكم الأرض.....
٢٦٦	لقب الحكماء الإلهيين.....
٢٦٧	الأسفار الأربعة هي أسفار صوفية.....
٢٦٨	الشرح الفلسفي للنص الديني والقيمة المعرفية لكتب ملا صدرا.....
٢٧٤	التفسير الرمزي للنصوص الدينية.....
٢٨٠	توقيفية الأسماء.....
٢٨٢	الفرق بين الاسم والصفة.....

٢٨٥		نهاية مطاف التوفيق بين الفلسفة والدين
٢٩٠		إدراك أصول الدين من خلال الفلسفة تعرض للهلاك الدائم
٢٩٠		مناقشة الملحدين بالعقل وليس بالفلسفة
٢٩٨		خرافة العقل هو الفلسفة
٢٩٨		الشيخ جعفر كاشف الغطاء والشبهات الفلسفية
٢٩٩		كتاب فلسفتنا ونقاش الملحدين
٣٠٠		الفلسفة حقائق الوجود والموجود أم أوهام الوجود والموجود؟!
٣٠٦		ابن عربي ووحدة الوجود في نظر السيد عبد الأعلى السبزواري
٣١١		السيد الخميني الأسفار الأربعة منعتني من المحبوب
٣١٥		مفردات الصوفية التي انتشرت في أوساط المسلمين
٣١٥		الفناء والبقاء
٣٢١		الجمع بين خبرين وفق الفكر الصوفي
٣٢٤		من لا شيخ له فشيخه الشيطان
٣٢٨		الامتعاض من اتخاذ الشيخ
٣٣١		فكرة الأستاذ من فضل الله عليك
٣٣٢		من كلمات الصوفية الظريفة في طلب الشيخ
٣٣٥		استلهام الروحانيات من قبور العرفاء
٣٣٨		الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلاق
٣٤٧		الخاتمة
٣٥٤		المصادر
٣٦٧		الفهرست

